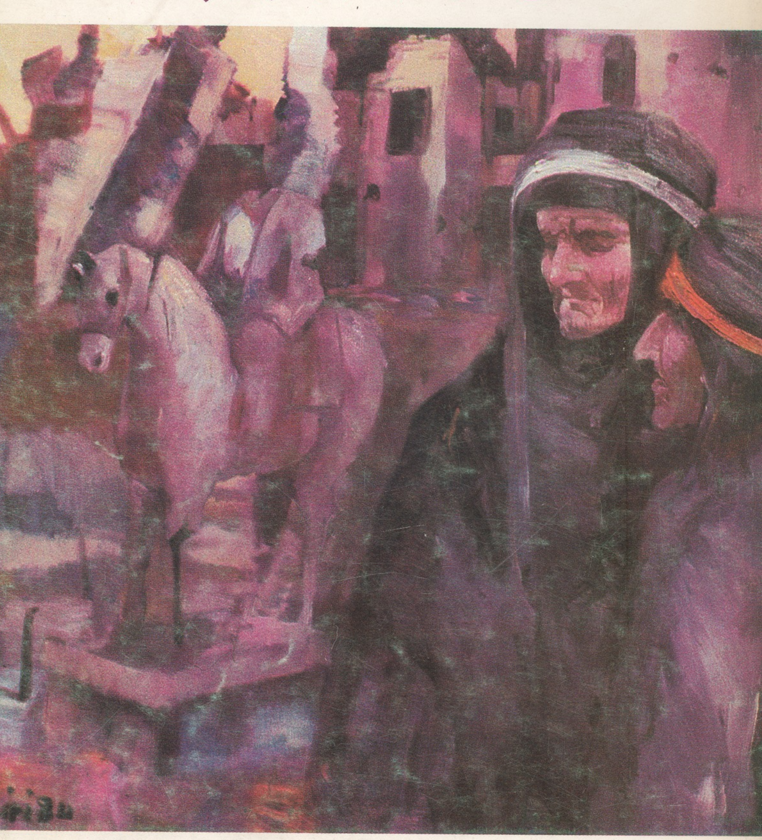


232



الثقافة الجديدة

مجلة شهرية يصدرها الحزب الشيوعي العراقي

232

العدد 6 السنة 38 نيسان 1991

فهرست

■ موقفنا :

■ مقابلات

■ نحو المؤتمر الخامس لحزبنا ـ آراء ومناقشات

■ ابحاث

■ أدب وفن

■ مقتطفات ومعالجات

■ وثائق حزبنا

الغلاف الاول للفنان عبد الرحمن الجابري
الغلاف الأخير بوستر تضامني مع اطفال العراق صدر في السويد

من اجل احباط مناورات صدام حسين!

بقلم هيئة تحرير (طريق الشعب)

اذا كان من الضروري، بعد كل الذي جرى، الاقرار بانحسار الانتفاضة وتراجع الحركة الشعبية موقتاً امام بطش القوات الموالية لصدام حسين التي لم توفر أية وسيلة للابادة في هجومها على المواطنين العزل، والمدن المفتوحة، فان من واجبنا جميعاً، كأحزاب وتنظيمات واطر تحالفية، الحيلولة بجميع الوسائل الممكنة، سياسياً وفكرياً وغيرها، دون تحول الانحسار والتراجع المؤقت الى هزيمة سياسية.

ولا بد من الاقرار بان هذا التراجع ما كان ممكناً ان يحدث، لولا الكثير من الاخطاء السياسية وسوء التقدير لميزان القوى، والمبالغة، وضعف المبادرة والاستعداد لقيادة التحرك الجماهيري.

وقد كان واضحاً منذ البدء ان الطاغية لن يتعفف عن استخدام اشرس واقذر الوسائل لحماية سلطته المطلقة، ولن يتردد في الاقدام على أي تنازل، سواء تعلق بالسيادة الوطنية أو ثروات البلاد أو ارواح الشعب، أو الاستسلام الذليل غير المشروط للتحالف الامريكي - الاطلسي أو لشياطين العالم كلهم، مادام ذلك كله يحقق له الاستمرار في الحكم.

فالتجربة التأريخية، التي تابعت الحركة الوطنية فصولها المريرة، وكانت في اكثر من مرة مشاركاً سلبياً فيها، تؤكد هذه الحقيقة، وتؤشر بجلاء لاستعداد صدام حسين، لتكرارها مرات عديدة، دون ان يبالي بالصورة التي تتكرر فيها، سواء اتخذت طابع مأساة أو ملهاة، مادام الشعب وحركته الوطنية، هما الضحية في نهاية المطاف.

وتبين هذه التجربة:

اولاً: الجمع بين الارهاب الدموي الشامل، والمناورة السياسية، لتصفية المعارضة الوطنية بمختلف فصائلها وتياراتها، والسعي للانفراد بأطراف منها، سعياً لتشتيتها، ووضعها في مواجهة بعضها البعض، كلما اشتدت عليه ازماته وعزلته الخانقة.

ثانياً: الاستعداد لابداء تنازلات معينة والاستجابة لبعض المطالب، شرط اسهامها في التنفيس عن ازمته وعزلته، وتكريس دكتاتوريته، وعلى ان تظل في الاطار العام لسلطته المطلقة.

ثالثاً: الطابع المناور والغادر لاي اتفاق أوحل، يفرض عليه بحكم الواقع، أو يضطر للقبول به.

رابعاً: ان مناورات صدام حسين استهدفت، باستمرار، اجهاض العملية الثورية، واشاعة اليأس والاحباط واللاأبالية في صفوف الجماهير من جانب، واعادة الاعتبار لنظامه، و«تنظيفه» من جرائمه ونتائجها الكارثية والمروعة بحق الشعب من جانب آخر. وقد اغتنت الحركة القومية الكردية، بشكل خاص، وبمختلف فصائلها وفي مراحل مختلفة من نضالها الصعب والمعقد لتحقيق التطلعات القومية للشعب الكردي، ولاسقاط الدكتاتورية بتجربتها الخاصة في التعامل مع صدام حسين ونظامه وحلوله ومواثيقه، واسهمت هذه التجربة في نضوج قياداتها السياسية، وبرامجها ويفترض ان تكون منطلقاً لأية خطوة لها على هذا الطريق.

ان الهدف المباشر للنظام الدكتاتوري في الظرف الراهن هو الافلات ولو مؤقتاً من طوق الحركة الشعبية، ومن المصير المحتوم الذي ينتظره، بعد الهزيمة التي مُني بها عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، عربياً ودولياً، وازدياد المطالبة المتسعة بتشديد الحصار عليه واسقاطه، ومحاكمة رأسه كمجرم حرب.

ولتحقيق هذا الهدف، استجاب النظام بمهانة واذلال تليقان به لكل الشروط التي املتها عليه الولايات المتحدة والحكومات الاطلسية. وهو على كامل الاستعداد للرضوخ للمزيد من الشروط. وللوصول لهذا الهدف، لن يمانع صدام حسين من اعطاء الوعود بشأن أية تنازلات أو تحقيق أية مطالب داخلياً بما في ذلك الحديث عن الديمقراطية والتعددية والانتخابات والقيادة الجماعية والحكم الذاتي، وربما اكثر منه للشعب الكردي، مادام ذلك كله لن يخرج عن سياق حكمه الاستبدادي المطلق.

ان شعبنا المرهف الحس، والغني بتجربته، يدرك ان أي هدف من اهدافه، بما في ذلك ابسط حقوق الانسان، ومبادىء العدالة، وليس الديمقراطية ودولة القانون، يستحيل تحقيقه مع بقاء صدام حسين في الحكم.

لقد تابع حزبنا وحلفاء الحركة القومية الكردية ، بقلق الانباء التي نشرت حول الحوار الدائر الآن في بغداد بين وفد من اطراف في الجبهة الكردستانية العراقية، ونظام صدام حسين .

ونحن اذ ننطلق من الحرص على نضال شعبنا المشترك بعربه وكرده واقلياته، وبجميع تياراته السياسية وانتماءاته الفكرية ، نتطلع الى وقفة مسؤولة من جانب اشقائنا في «جك» ، بالاتجاه الذي يفشل المناورة التي يراد منها اجهاض بديلنا الديمقراطي ، واطالة عمر الدكتاتورية وتبرئة دمتها من جرائمها البشعة بالعودة الى دراسة الاوضاع التي آلت اليها حركتنا ، نتيجة انحسار الانتفاضة بما في ذلك مأساة شعبنا الكردي ، وما تتطلبه من خطوات واجراءات ووسائل نضالية في اطار القيادة السياسية الكاملة للجبهة الكردستانية ، وفي لجنة العمل المشترك للمعارضة العراقية .

واذ نأمل ان يتحقق ذلك ، والحاق الهزيمة بمخططات الدكتاتورية ، نتطلع بالمقابل ، الى وقفة مسؤولة من جميع الفصائل والاطراف الوطنية والقومية والاسلامية في هذه المرحلة الحرجة ، تنطلق من دواعي اليقظة والحرص الشديد على تجنب أي موقف أو تدبير من شأنه تعميق البلبلة والالتباس ، وصب الماء في طاحونة صدام حسين ، الذي يريد تفريق الصفوف وتصديع العمل المشترك والوحدة الوطنية بين شعبنا العراقي عرباً وكرداً واقليات .

وهو ما يستحق بذل كل الجهود للحيلولة دون امراره .

١٩٩١/٤/٢٠

عراق منكفيء... لكن لا جمهوريات شيعية، سنية، أو كردية

أثناء مؤتمر المعارضة العراقية في بيروت أجرت الزميلة منى سكرية والزميل سميح صعب لقاء مع الرفيق فخري كريم، عضو المكتب السياسي لحزبنا، ونشرته الزميلة (السفير) في ٢٥/٣/١٩٩١.

■ **ما هي ملاحظاتكم بشكل عام حول المؤتمر الاول لقوى المعارضة العراقية؟**

ـ ان المؤتمر عبارة عن تظاهرة ايجابية للمعارضة العراقية، وقد حقق المرجو منه، فالامانة العامة ولجنة العمل المشترك عندما قررتا عقد هذا المؤتمر، توخيا أولاً تهيئة الاجواء للقاء جميع قوى المعارضة من دون استثناء بما في ذلك الشخصيات الاجتماعية والسياسية والفكرية للمعارضة العراقية، كما حرصتا على تعزيز مواقع العمل المشترك، وتدقيق التوجهات البرنامجية المشتركة، وكذلك البحث، ان أمكن، بالآفاق المستقبلية.

وكما لاحظتم فان المؤتمرين بحثوا هذه الأمور، وتوصلوا إلى ثوابت مشتركة في مختلف المجالات الحساسة.

■ **ما هي السلبيات التي رافقت المؤتمر، بمعنى أوضح ما هي الخلافات التي برزت داخل أجواء المؤتمر؟**

ـ لابد لمؤتمر كهذا يضم جميع الاطراف المتباينة، ان لم نقل المختلفة في كثير من القضايا، من بروز تباينات تجاه قضايا أساسية، بشكل يبدو كما لو انه أحياناً لا يصب في

تعـزيز العمـل المشترك. لكن الاتجاه العام لمناقشة القضايا الاساسية، كما نقدر، لم يكرس ما هو خلافي، بل ما هو مشترك، اذا أخذنا بعين الاعتبار ان المهمة الاساسية لقوى المعارضة العراقية في الظرف الراهن يتجسد في تحديد التصور لعراق المستقبل، عراق ما بعد صدام حسين.

استطيع ان أتصور ان جميع الأطراف أكدت على ان البديل السياسي عن صدام حسين هو نظام ديمقراطي، تعددي، تداولي، فلا مكان لجمهورية شيعية ولا جمهورية كردية أو دولة كردية، ولا لجمهورية سنية، ولا لأي مشروع يمس بوحدة العراق وسيادته، وهذا أهم شيء في نظري.

نحن نؤكـد ان الأطراف الاساسية من علمانية ودينية، أكدت بوضوح على أهمية تجاوز كل ما يمس الثابت الاساسي وهو عراق موحد ديمقراطي، وهذا بتقديري مهم جداً وأكبر من كل التباينات.

■ **هل تستطيع قوى المعارضة بكل فئاتها ان ترتب وضعاً سياسياً منقذاً في الداخل في حال سقوط صدام حسين الآن، بمعزل عن تدخلات خارجية، وبعيداً عن التباينات التي بينها؟**

- اعتقد انها تستطيع، لأنني كما قلت لقد اتفقت الأطراف الاساسة للمعارضة وأعني بذلك التيارات الأربعة، والآن وقد انضم اليها أطراف أخرى بلون سياسي آخر، اتفقت على ان تتصدى لعراق ما بعد صدام حسين بالوسائل الديمقراطية وان تبدأ قيادة البلاد بشكل مشترك في مرحلة انتقالية تدوم كحد أدنى سنة وكحد اقصى سنتين، نشكل خلالها حكومة ائتلافية تضم جميع الاحـزاب والقـوى من دون استثنـاء، وان تأخـذ على عاتقها تحضير البلاد لانتخابات حرة مباشرة، وانتخاب برلمان ووضع دستور دائم.

■ **بالنسبة إلى هذه النقطة، فان رئيس المجلس الأعلى للثورة الاسلامية السيد محمد باقر الحكيم قال ان المجلس الأعلى سيكـون بمثابة الهيئة التأسيسية في حال سقوط صدام حسين، ماذا يعني بذلك؟**

- أنا لم أسمع بهذا التصريح. وأنا أميل إلى ان السيد الحكيم لا يمكن ان يدلي بمثل هذا التصريح، وان يقرر هو ان المجلس الأعلى هو البديل عن صدام حسين، وإلا فماذا عن كل ما توصلنا اليه بشكل مشترك بدءا من البيان الذي وقعناه في ١٩٩٠/١٢/٢٧ وهو يعرف ببيان دمشق. وقد استمعتم هنا إلى ممثلي السيد الحكيم وهم يؤكدون بوضوح على ان المجلس الأعلى المشترك وكذلك الاطراف الاسلامية الاساسية المشاركة في لجنة العمل المشتـرك ملتـزمـة ببـرنـامج العمل المشترك، وستلتزم بالمقررات التي ستصدر عن هذا المؤتمر، وجميعها يتعلق بمستقبل العراق السياسي الديمقراطي التداولي.

■ **أين سيعقد مؤتمركم الثاني في ظل الحديث عن امكان انعقاده في السعودية، في حين**

يوجد من يقول بضرورة عقده في دولة اوربية؟

ـ أولاً سنعقد دورة ثانية وليس مؤتمراً وذلك حسب الظروف والامكانات والمستجدات. وثانياً، ان هذا المؤتمر لم يقرر اطلاقاً ان ينعقد في الرياض وان التوجه لاحقاً سيبحث عن المكان، لكن هناك ميل أساسي لأن يعقد في بلد خارج المنطقة العربية. ربما ستسألين لماذا، اننا عندما فكرنا بعقد هذا المؤتمر حاولنا ان نبحث عن بلد آخر محايد لا يضفي طابعاً معيناً على المعارضة العراقية، وللأسف الشديد، فان البلدان التي طلبنا منها دراسة هذا الأمر، وأشير بذلك إلى النمسا وسويسرا، ثم فرنسا، لم تستجب لطلبنا، مما اضطررنا إلى عقد هذا المؤتمر في بيروت.

وهذا يشير إلى حساسية الأمر، فاذا كنا لا نريد عقد المؤتمر في سوريا التي هي حليف للمعارضة العراقية منذ سنوات، والتي نعتز بتحالفنا معها، فكيف الأمر اذا كان المكان يتعلق بالرياض. ماذا يعني ذلك للمعارضة العراقية؟ ولماذا الرياض؟ انني اؤكد اننا لم نتخذ قراراً بعقده في الرياض، الميل لأن نعقده في بلد اوربي، وهذا هو توجه الامانة العامة التي هي مسؤولة عن تحديد هذه المسألة.

■ **هذا هو توجه الامانة العامة. ماذا سيكون توجه الدول الاقليمية المعنية بالوضع في العراق؟ يعني ألا يمكن للتجاذبات السياسية ان تفرض رأيها؟**

ـ لقد قلنا للاطراف المعنية بالصراع في المنطقة، وبالتحديد في الموضوع العراقي وبسبب النتائج التي ترتبت على الحرب، ان الشأن العراقي يجب ان يبقى شأناً عراقياً، وان احترام استقلالية القرار العراقي والتعامل مع المعارضة العراقية باعتبارها الطرف المعني بهذا القرار هو من مصلحة هذه الاطراف بالتحديد، وان أي تدخل بالشؤون العراقية لقوى المعارضة لا يمكن إلا ان ينعكس سلباً على الاطراف التي تسعى لمد يدها في شؤون المعارضة العراقية وشؤون الشعب العراقي مستقبلاً.

اننا نطمح ونتطلع إلى ان تأخذ هذه الاطراف بعين الاعتبار هذه الرغبة وذلك بعدم التدخل في الشؤون العراقية الداخلية.

أما ما تريده الاطراف الاقليمية فهذا شأن خاص بها لا نسمح لأنفسنا بأن نتدخل به إلا بالقدر الذي يتعلق بمستقبل بلدنا والذي يتعلق بتوجهاتنا نحن كمعارضة.

هوغ والرياض

■ **من الذي عمل على تأمين اللقاء بينكم كمعارضة وبين وزير الدولة للشؤون البريطانية دوغلاس هوغ وماذا عن هذا اللقاء؟**

ـ انه لقاء يأتي في سياق جهد الامانة العامة ولجنة العمل المشترك في مهمتها للاتصال بجميع البلدان والقوى العربية والاوربية والدولية بوجه عام، ومع الاطراف المعنية بالصراع

في الشرق الاوسط بشكل خاص، فاستجابت المملكة العربية السعودية أولاً، وقد ذهبنا اليها والتقينا مسؤولين سعوديين، وكانت الاستجابة الثانية من الحكومة البريطانية، فالتقينا وزير الدولة دوغلاس هوغ، وفي اللقاءين أكدنا:

١ ـ ان المعارضة العراقية، وبالتحديد لجنة العمل المشترك، تشكل الجسم الاساسي للبديل السياسي المطلوب للنظام العراقي الراهن.

٢ ـ اننا نناضل من أجل سقوط صدام حسين.

٣ ـ اننا نتطلع إلى دعم المجتمع الدولي بكل اطرافه وخصوصاً الاعضاء الدائمين في مجلس الأمن الدولي. وهذا الدعم المطلوب يتحدد اصلاً بالدعم السياسي، وهذا الدعم يتمثل في نقل القضية العراقية إلى مجلس الأمن من زاوية المخاطر التي تتهدد الانتفاضة باقدام صدام حسين على استخدام اسلحة*كيمياوية، ثم ان الدعم السياسي يتمثل في كسر التردد في سلوك وسياسة بعض البلدان وبالتحديد الولايات المتحدة الاميركية وبعض البلدان الاوربية التي لم تحسم أمرها في ما يتعلق باستمرار أو عدم استمرار نظام صدام حسين، وكذلك في التعامل مع قوى المعارضة العراقية كبديل، وهذا يعني عدم اعطاء الفرصة لصدام حسين للعودة مجدداً إلى المسرح السياسي.

■ **ماذا تريدون تحديداً من المسؤولين الاميركيين؟ وهل تقبلون دعماً اميركياً؟**

ـ اذا كان الحديث يدور عن دعم يأخذ طابع التدخل في شؤون العراق، فنحن نرفض هذا الدعم، ونحن لا نريد الدعم العسكري، وبصراحة أقول، وأنا هنا أعبر عن وجهة نظر حزبي، اذ نحن نعتبر ان الحرب استهدفت أساساً الشعب العراقي ونحن رفضناها وادناها، وندين نتائجها، ونعتبر ان الحرب كوسيلة لحل الأزمة لم يكن يراد منها تحرير الكويت فقط وانما تحقيق اهداف أخرى.

نحن نعيش مرحلة غريبة جداً ومؤلمة جداً. فالقوات الاميركية والاجنبية تحتل جزءاً من أرض بلادنا وهذه جريمة أخرى ارتكبها صدام حسين لأنه بحماقته واصراره على نهجه المغامر والمدمر وتجاوزه لارادة الشعب العراقي قد حقق لهذه القوى ما لم تستطع تحقيقه في أي وقت آخر. لهذا نحن نرفض التدخل العسكري وننطلق في هذا من الايمان العميق بقدرات شعبنا. فنحن نختار الاعتماد على الشعب لينهي صدام حسين وليس على أي تدخل اجنبي.

■ **. . . تقبلون الدعم السياسي؟**

ـ نقبله بالاتجاهات التي أشرت اليها.

■ **هناك تخوف من ان تسبق اميركا قوى المعارضة العراقية كأن تدعم انقلاباً عسكرياً ضد صدام حسين؟**

ـ ان هذا الاحتمال موجود، ونعتقد ان تردد الادارة الاميركية في ان تحسم موقفها ينطوي على مواصلة الجهد الاميركي في التحضير لمثل هذا البديل. ويبدو انها تفضل هذا البديل عن بديل المعارضة العراقية لأنها قد تتصور ان مثل هذا البديل قد يتجاوب معها ويحقق مصالحها المباشرة في العراق. ونحن نرى في ذلك خطيئة كبيرة. ان من سيأتي بعد صدام حسين لابد ان يفتح ملفه، أي بمعنى آخر لا يمكن غلق هذا الملف وفيه: القضايا الوطنية، الكردية، الديمقراطية، التمييز الطائفي. وبالتالي تريد أو لا تريد، فان من يأتي بعد صدام لابد ان يتعاون مع القوى الاساسية الموجودة أساساً في العراق.

■ كحزب شيوعي ما هو موقفكم من الطرح القائل باعتماد النظام الفيدرالي في العراق كأساس للحكم؟

ـ نحن مع كل ما يؤدي إلى تعزيز وحدة العراقيين عرباً وكرداً واقليات، ويستجيب إلى التطلعات المشروعة للقومية الثانية في البلاد وهي القومية الكردية والاقليات القومية الأخرى على ان تكون على أساس الحفاظ على وحدة البلاد السياسية، وان تكون على أساس الحوار المباشر بين الاطراف الاساسية.

■ أي نوع من الشعور يخالجك. هل ان نهاية صدام حسين قريبة، أم ان حرباً طويلة سيشهدها العراق ما بين السلطة والشعب؟

ـ موضوعياً ومنطقياً، فان العد التنازلي لصدام ولنظامه قد بدأ، ثم ان الحديث عن حرب أهلية مبالغ فيه...

■ أنا لم أقل حرب أهلية، بل احتمال استمرار الوضع القائم حالياً لفترة طويلة، صراع ما بين انتفاضة ستأخذ دورها، وسلطة تقمع قدر ما تستطيع وأين ترى المصلحة الدولية في ذلك؟

ـ للأسف الشديد ان المصلحة الدولية وخصوصاً بعض الاطراف فيها، لا تأخذ بعين الاعتبار مصلحة هذا الشعب العراقي، كما هي لا تأخذ بعين الاعتبار مصلحة الشعوب الأخرى بل هي تأخذ بعين الاعتبار ماذا يحقق لها أي حل، ويؤمن مصالحها أفضل من أي آخر.

ان العد التنازلي لنهاية صدام قد بدأ، لأن صدام لا يمثل في حقيقة الأمر إلا اجهزة قمعية ومؤسسات عسكرية قمعية، ليس هنالك شيء اسمه تمثيل صدام حسين للسنة في العراق، أو ان المؤسسة العسكرية والمؤسسة القمعية هي مؤسسات سنية. وعليه يتوزع الشيعة في الجنوب والاكراد في الشمال، وهذا ما قد يؤدي إلى استمرار الوضع الحالي إلى ما لا نهاية. ان ما يجري في الشمال والجنوب لابد ان يمتد إلى معقل العراق أي بغداد. آمل ان لا يستمر الوضع طويلاً في انتهاء صدام حسين...

■ متى كان آخر مؤتمر عقده الحزب الشيوعي العراقي؟

ـ في العام ١٩٨٥ .

■ أين؟

ـ داخل العراق، في احدى المناطق المحررة من كردستان .

■ . . . ومؤتمركم المقبل، هل سيكون في العراق المحررة بأكملها؟

ـ كان من المفترض ان نعقده في فترة ما في السنة الماضية، وللأسف، لربما كان في الأمر ايجابية، ان تحديد موعد انعقاد المؤتمر تأخر بسبب التطورات في العراق. ونحن بالتأكيد نتمنى ان نعقد مؤتمرنا في عراق متحرر من صدام حسين.

■ لقد تغيرت أمور كثيرة منذ انعقاد مؤتمركم في العام ١٩٨٥ . ما هو تصور الحزب لنفسه، لتحالفاته، للاتحاد السوفييتي، للغته الحزبية؟ . . .

ـ لقد تغيرنا كجزء من التغير العاصف الذي شمل العالم كله. تغيرنا أولاً بسبب الوضع الداخلي، وربما أشير إلى التغير الذي بدأناه في العام ١٩٨٠ عندما انتقل الحزب إلى صفوف المعارضة، فواجه بالتالي مهمة جديدة لم تكن موضع تفهم كل الاطراف أو كل الحركة التي كنا نسميها بالحركة الشيوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي. كانوا ينطلقون من مفهوم معين في التعامل مع الوضع في العراق، ونحن كنا نتعامل من موقع آخر، كنا نريد اسقاط صدام حسين ونظامه، وهم كانوا يعتبرونه بمعنى معين انه ما يزال ينطوي على امكانية الاستمرار.

ان التطورات التي جرت في حياة الحزب الداخلية والمرتبطة بالتغيرات الداخلية بدأت منذ المؤتمر الرابع للحزب الذي أنعقد في العام ١٩٨٥، وفي هذا المؤتمر، طرحنا للمرة الاولى كيفية التعامل مع الهيئة القيادية على الصعيد الديمقراطي، وتركنا للمندوبين اختيار هيئتهم القيادية، وبصراحة، لا نستطيع ان نقول ان وجهة نظر الحزب الفكرية والسياسية والتنظيمية لم تتأثر بالتغييرات العاصفة التي حصلت في الحركة الشيوعية وفي الاتحاد السوفييتي. وما هي ملامح هذه التغيرات التي انعكست على الحزب!

أولاً: على الصعيد البرنامجي، استطيع ان أقول، وهذا يتضح يوماً بعد يوم، ان المهمة المباشرة أمام الحزب، أو البرنامج المباشر أمامه، ليس بناء الاشتراكية في العراق، فنحن الآن أمام مهمات أخرى تماماً، فنحن نحتاج لسنوات طويلة لاعادة اعمار البلد، ولتصحيح المسار وبتحديد أكثر دقة، نحن نحتاج إلى انطلاقة من كل القوى المعنية باعادة البلد وتحديداً القطاع الخاص. فكل مفاهيمنا حول القطاع العام والاشتراكية والدولة تغيرت، وان لم ترسُ بعد على أساس برنامجي وفي إطار مؤتمر.

ثم على صعيد صيغة الحكم، كنا نؤكد سابقاً على العمل المشترك والتحالفات،

لكن صيغة هذه التحالفات وهذا العمل المشترك تعمقت وتتوضح أكثر من خلال ان النظام المطلوب النضال في سبيله كحزب شيوعي هو نظام ، ديمقراطي تعددي تداولي لا مكان فيه لدور قيادي مقرر سلفاً ولا لأية صيغة توتاليتارية تقرر من قبل الحزب الذي يمتلك الحقيقة والشرعية إلى آخره، كما كان يقال في السابق.

ان كل ما يتعلق بالحكم هو شأن يرتبط بارادة الشعب، فاذا كنا قادرين على ان نكسب هذا الشعب فهناك صناديق اقتراع، واعتقد ان مهمتنا كحزب، لا بل مهمة كل الشيوعيين والتقدميين والماركسيين في ما يسمى بالعالم الثالث، المتميز عن اوربا شئنا أم أبينا، ان مهمة هذه القوى تتمثل في كلمة واحدة هي الديمقراطية، وهو منال بعيد. ان الآخرين يتحدثون عن تعميق الديمقراطية فيما تنتقل الاحزاب إلى مواقع الديمقراطية، ونحن نتحدث عنها. ولهذا أنا استغرب عندما يسألوننا ان علينا ان نغير، نحن حتى الآن لم نستطع ان نحقق برنامج الحد الأدنى ليس كحزب شيوعي، وانما كقوى من مختلف الاطراف، وهذا الحد الأدنى يتمثل بالديمقراطية.

أما في موضوع التحالفات، فلماذا هناك مركز ثقل يقرر نظرياً ادوار الاحزاب. هناك تغيرات تتناول كل المسلمات النظرية تقريباً، وللأسف فان النقاشات التي جرت وتجري سواء في داخل حزبنا أو في داخل الاحزاب الأخرى ما تزال مستمرة وتخلق أحياناً ارباكات. وهذه النقاشات تبدو كما لو انها عدمية، وانها تنفي من دون ان تطرح البديل، مما يحتاج إلى جهد متواصل لتوضيح المعالم الفكرية والسياسية لاحزابنا، وليس فقط الشيوعية منها. ان التغير الذي جرى طال الجميع من دون استثناء، واستطيع القول انه ليس اليسار فقط وانما اليمين أيضاً.

■ **ماذا يمثل الاتحاد السوفييتي لكم كحزب شيوعي عراقي بعد التغيرات التي جرت فيه؟**

ـ ان الاتحاد السوفييتي يمثل بلداً بدأ يوماً ما في التاريخ كثورة عظيمة تغير مجرى التاريخ بكامله حمل إلى البشرية منجزات عظيمة لم تكتمل، وبدا لنا اليوم ان هذه المسيرة كانت تنطوي على اخفاقات كبيرة وعلى تجاوزات وعلى انتكاسات وعلى اخطاء ولا أريد ان أقول جرائم فهم الذين يقولون انها جرائم، مع اختلافنا حول حجم هذه الجرائم وتسميتها.

لكن يظل الاتحاد السوفييتي في الاطار العالمي طرفاً لا يمكن ان يكون إلا في الاطار العام لصالح نضال الشعوب لتحقيق القيم الانسانية العامة.

■ **هناك مفردات لا تستطيعون التخلي عنها؟**

ـ مثلاً؟

■ **مثل تعبير دعم نضال الشعوب؟!!**

ـ أنا أقول ان الاتحاد السوفييتى في الاطار العام لا يمكن له إلا ان يقف إلى جانب نضال

الشعوب، مع ان هذه الوقفة دخلت ايضاً في باب التغيير. وصراحة أقول نحن ننظر إلى الاتحاد السوفييتي كدولة تقدمية، تؤكد على تمسكها بالاشتراكية بالمفهوم الجديد. لكن نظرتنا إلى العلاقة مع الاتحاد السوفييتي لابد ان تكون قد تغيرت هي الأخرى، لم نكن تابعين للاتحاد السوفييتي مع ان وسائل الاعلام تلح على ان الاحزاب الشيوعية كانت تابعة للاتحاد السوفييتي.

■ **هو كذلك، وتحديداً الاحزاب الشيوعية العربية التي اتسمت علاقتها بالاتحاد السوفييتي بالتبعية.**

ـ للأسف الشديد، حتى في حالة الجريمة هناك عناصر من الحقيقة، وأنا لا أريد ان أقول انك تتحدثين حديثاً اجرامياً بحق الاحزاب الشيوعية لأن هذا الواقع الذي تشيرين اليه ينطوي على كثير من الحقيقة، وأؤكد لك بأن من يقرر استقلالية حزبه هو الحزب نفسه. وهذا يحتاج إلى مستوى معين من التناول الفكري والسياسي للقضايا الملموسة للاحزاب وبهذا المعنى نحن كحزب شيوعي نناضل في سبيل ان نتلمس قضايانا وفق ارتباطها بخصوصيتنا، ومن دون ان نفقد هويتنا كعراقيين أولاً، وفي محيطنا العربي وكذلك في المحيط الدولي.

■ **ما هو رأيك الشخصي كمناضل بالرئيس ميخائيل غورباتشوف؟**

ـ أنا سوف أدلي برأيي به اذا اصبحت مواطناً سوفييتياً، وأنا لا أريد ان اصبح مواطناً سوفييتياً، أنا مواطن عراقي.

■ **أي عراق سياسي تريدون في علاقاته الاقليمية؟**

ـ للأسف الشديد، ان عراق المستقبل هو عراق منكفيء، وهذا مرتبط بحجم الكارثة التي حلت بالبلاد، ليس على الصعيد الاقتصادي فقط، وانما التخريب الذي حصل على المستويات الاجتماعية والثقافية والنفسية. ان الشعب العراقي يعيش منذ عشرين عاماً تحت تأثير غسل الدماغ الذي تجريه اجهزة ووسائل صدام حسين، ثم ان العراق كان ينام على احتياط ٣٧ مليار دولار نراه اليوم مفلساً لا يستطيع ان يوفر الغذاء لشعبه.

ثم ان عراق المستقبل يحتاج إلى الاستقرار وإلى اقامة علاقات وثيقة مع جميع البلدان العربية والاقليمية باستثناء اسرائيل طبعاً. نحن بحاجة إلى اوثق العلاقات شرقاً وغرباً، وموضوعياً ربما نحتاج إلى علاقات مع دول تستطيع ان تزودنا بالتقنية لاعادة بناء البلاد.

■ **هل سيغير الحزب الشيوعي العراقي اسمه؟**

ـ ليست هذه هي المشكلة.



الديمقراطية هي الحل الوحيد

تواصل (الثقافة الجديدة) هنا لقاءاتها مع قيادات احزاب المعارضة. وفي هذا العدد نلتقي مع الدكتور مجيد الراضي، عضو المكتب السياسي للتجمع الديمقراطي، لسماع رأي التجمع ورأيه الشخصي حول طائفة واسعة من القضايا.

أود قبل الاجابة عن اسئلتكم ان اتقدم بالشكر لهيئة تحرير مجلة «الثقافة الجديدة» الغراء لاتاحتها هذه الفرصة لي لتوضيح بعض وجهات النظر الخاصة بي وبـ«التجمع الديمقراطي العراقي» في شؤون راهنة ومستقبلية.

● كنت على صلة مباشرة بحوار المعارضة وتحضيرات المؤتمر الذي عقد في بيروت. ما تقييم التجمع للمؤتمر، ولاسيما حصيلته الأساسية؟

ـ كان المؤتمر الخطوة الاولى في الاتجاه الصحيح، أي اتجاه تجميع كل قوى المعارضة العراقية. ولو عدنا إلى فترة التحضير لوجدنا ان «لجنة العمل المشترك لقوى المعارضة العراقية»، لم تحرك أو تنشّط القوى والاحزاب السياسية المنضوية اليها حسب، بل وجرّت وسطاً جديداً من خارجها أيضاً. وهذا يعني بلغة السياسة انها تحولت إلى بؤرة جذب وتجميع وليس إلى بؤرة طرد وتفريق. هذا ما كنا نفتقر اليه سابقاً بسبب التعقيدات السائدة

في الوسط العراقي المعارض، والتي تعود، قبل كل شيء، إلى محاولات الحلول المنفردة. كانت بعض القوى والاحزاب السياسية العراقية، تعيش ـ واسمحوا لي أن أقول ذلك صراحة ـ حالة من حالات خداع الذات القائمة على امكان احداث تغيير في نظام الحكم في العراق بمفردها ولمصلحتها بالدرجة الاولى. ولا حاجة إلى القول انه كان لكل قوة من هذه القوى بديلها الخاص بها لا يستند إلى ميزان القوى الداخلي فقط، بل إلى العامل الخارجي ايضاً. ويبدو لي انها كانت تنظر إلى بعضها لا باعتبارها قوى متكاملة، بل متنافسة (بالمعنى السلبي للمنافسة) أو متناحرة، إن لم يكن الآن فمستقبلاً. ولكن وقائع الساحة العراقية القومية والوطنية والدينية، وشراسة الدكتاتورية الدموية ورسوخ مؤسساتها في بلادنا اقنعت الجميع بأن العمل المشترك فرض وليس نافلة. هذا اضافة إلى اقرار جميع القوى والتيارات السياسية بأن هدفها الأول والأخير هو الاصغاء إلى صوت الشعب العراقي وتمكينه من اختيار النظام السياسي الذي يريد بطريقة حرة وديمقراطية.

أبدت «لجنة العمل المشترك...» المرونة المطلوبة للاصغاء لصوت الآخرين بغض النظر عن سعة المنظمات التي يمثلونها، وقررت كبداية للسير في طريق وحدة المعارضة العراقية:

١) ان يعقد المؤتمر في موعده المحدد كتظاهرة سياسية هائلة لدعم انتفاضة شعبنا في الداخل.

٢) ان تشارك الاطراف الاخرى من خارج لجنة العمل في كل أعماله على قدم المساواة، وهذا ما حصل فعلاً.

٣) ان تشكل لجنة للحوار تضم ممثلين عن لجنة العمل المشترك والاطراف الاخرى في المعارضة العراقية لايجاد صيغة تستوعب الجميع وتكون مفتوحة لكل الراغبين في توحيد كل قوى المعارضة من منظمات وشخصيات عراقية معنية بالشؤون العامة. وأرى ان الواجب يقتضينا جميعاً بذل الجهود المثابرة لتحقيق هذا البند الأخير. فثمة خطر ان نكتفي بما تحقق حتى الآن، وان نترك عملية التوحيد تسير في طريق عفوي في أحسن الفروض. فالتطورات داخل الوطن وحوله لا تدع مجالاً للاعمال العفوية وتطالبنا بخطوات مدروسة جيداً تحافظ على استقلالية القرار العراقي وتوفر له الدعم الخارجي المطلوب.

ومن هنا ترون ان نظرتي إلى المؤتمر وأعماله ايجابية تماماً، على الرغم من النواقص والهفوات التي لابد وان ترافق الخطوات الاولى في كل مشروع كبير وجديد. فالتصورات متباينة، كما ان البنى والاساليب القديمة في العمل لا يمكن زوالها دفعة واحدة. والمهم ان المؤتمر كان وينبغي ان يكون أحد الاحداث الهامة في حياة المعارضة العراقية قرّبت بين الاطراف المشاركة فيه ولم تباعد بينها. وهذا مكسب كبير.

● كيف نوصِّف ما يجري في الوطن؟ هل تغامر باستشراف آفاق «الانتفاضة» كما درجنا على تسميتها؟

- توصيف ما يجري هناك بعد «أم المعارك» أو «أم الهزائم» كما أجمعت على وصفها قوى المعارضة العراقية، مسألة في غاية التعقيد اذا كان المقصود بها اعطاء تقدير كامل وشامل لكل جوانب الصورة. ولكننا نستطيع الحديث عن جوانب بارزة في هذه الصورة. فمن جهة أصيبت المؤسسة العسكرية بهزيمة منكرة وضعتها على شفى الانهيار التام، إلّا ان بعض اجنحتها، ولاسيما الحرس الجمهوري، لا يزال يقاتل إلى جانب الدكتاتور وزمرته. وهذه المؤسسة بعد ان خسرت المعركة في مواجهة العدو الخارجي، وفقدت بذلك مبرر وجودها كمؤسسة للدفاع عن الوطن، استدارت في الاتجاه الخاطىء لتوجيه دروعها واسلحتها الثقيلة إلى صدور أبناء الشعب المنتفضين المطالبين بتصفية النظام القمعي الدموي في العراق وبتقديم الطاغية وأعوانه إلى محاكمة قانونية عادلة جراء جرائمهم الكبرى بحق الشعب والوطن.

لقد هزم النظام الصدامي على أكثر من صعيد. وكانت الهزيمة عسكرية وسياسية في آن معاً كشفت للجميع - لحلفاء النظام ومعارضيه على حد سواء - القاعدة الهشة التي كان يستند عليها، وأظهرت لهم الهوة العميقة ما بين الاوهام والواقع؛ ما بين الزيف والحقيقة. أراد صدام حسين ان يتعامل مع المجتمع الدولي بالطريقة التي تعامل بها مع المجتمع العراقي، وبذلك استخدم منطق القوة الغاشمة سبيلاً وحيداً لحل كل القضايا، ورفض بعناد الاستجابة لكل النيات الخيرة العربية والدولية، وعَرَضَ نفسه على انه «كبش النطاح الوحيد!» في المنطقة. واندفعت وراءه قوى متنوعة ذات أهداف مختلفة، واصبحت في فترة لاحقة قوة دفع في الاتجاه الخاطىء، زادت في تصلبه وأوحت له انه يخوض احدى المعارك الفاصلة في التاريخ، وان النصر معقود بلوائه. أجل، كانت احدى المعارك الفاصلة التي ترتبت وسوف تترتب عليها نتائج كثيرة وخطيرة سواء بالنسبة للعراق أم بالنسبة للمنطقة. وأولى هذه النتائج الدمار الشامل للهياكل الارتكازية للاقتصاد العراقي، والعودة بتطور العراق إلى الوراء لفترة ربما تزيد على ثلاثة عقود من الزمن، واحتلال جزء عزيز من الوطن، وتحول العراق من عامل قوة إلى عامل ضعف في المنطقة العربية، أي من قوة تتدخل في شؤون جيرانها الداخلية إلى قوة قابلة للتدخل في شؤونها الداخلية.

من جهة ثانية، هناك تطور ايجابي هو ان الشعب العراقي الذي طال أمد سكونه لاسباب كثيرة ليس البطش الدموي أقلها شأناً، أخذ يستجمع قواه ويزجها في انتفاضة عراقية شاملة لم يعرف تاريخ العراق الحديث مثيلاً لها من حيث سعة الرقعة في الأقل باستثناء ثورة العشرين، مع اختلاف في طبيعة العدو والمعارك في كلتا الانتفاضتين

الشعبيتين، وكذلك الخسائر البشرية والماديه. وحتى ثورة العشرين لم تمتد لتشمل المناطق الكردية على النحو المعروف الآن.

أما المغامرة باستشراف آفاق «الانتفاضة» فهو شيء يتصل بطبيعة عمل المعارضة العراقية واهدافها المعلنة، وهي الاطاحة بالدكتاتورية وتصفية كل مؤسساتها ومخلفاتها وبناء نظام ديمقراطي يستند إلى ارادة الشعب. ومن هنا فان الانتفاضة تضع لها هدفاً جذرياً واضحاً لجميع القوى المشاركة فيها.

أما اذا كنتم تقصدون بالاستشراف التنبؤ بمسار الانتفاضة وامكان تحقيق اهدافها، فانني استطيع القول بعيداً عن التمني ان الاسباب الموضوعية والذاتية للانتصار والوصول إلى الاهداف متوفرة الآن أكثر من أي وقت مضى. فالنظام الدكتاتوري في أضعف حالة من حالاته، وهو معزول عن قوى الشعب واحزابه الاساسية وكذلك عن الجماهير الغفيرة التي أخذت تضيق ذرعاً بأساليبه البوليسية في حشد التأييد الظاهري له. وقد أضافت الهزيمة العسكرية والسياسية بعداً جديداً لهذا الضعف. وفي الطرف الآخر تقف المعارضة العراقية موحدة على الاصعدة السياسية والوطنية والقومية والدينية، وتحاول ان توفر للانتفاضة قيادة مجربة. ولن تنفع النظام واعوانه المحاولات البائسة للتفرقة الطائفية والقومية. ومما يؤسف له ان الاعلام العالمي لا يزال يصف الانتفاضة بكونها كردية ـ شيعية، وهذا ما يصب الماء في طاحونة النظام الحالي في بغداد. وهناك على النطاق العربي قوى سياسية لا تزال تطرح القضية بشكل مقلوب هو ان على الشعب العراقي ان يوجه بنادقه إلى جيوش الاحتلال بدلاً من توجيهها إلى مؤسسة الدكتاتورية، متجاهلة ان من استجلب قوات الاحتلال هو الدكتاتور نفسه، وان لا خلاص من هذا الاحتلال إلا بسقوط الدكتاتورية، وعندها تنتفي الحجة المعلنة لهذه الجيوش. ويمكننا ان نقبل هذا الطرح لو ان صدام حسين، على الرغم من جرائمه المنكرة بحق الشعب والوطن، توجه نحو مقاتلة قوات الاحتلال وليس الاذعان التام لشروطها. ان وضع المسألة على النحو المذكور اعلاه يقدم أفضل مخرج للطاغية من المأزق الذي وضع نفسه فيه بارادته، ويحوّله من متهم في نظر شعبنا إلى بطل. ويتناسى أصحاب هذا الرأي ان صدام حسين كان وراء كارثتين شاملتين هما: الحرب العراقية ـ الايرانية وغزو الكويت، فضلاً عن كونه هو من استسلم بالكامل لجميع شروط قوات التحالف الدولي بحيث أصيب الكثير من المعلقين في الشؤون الدولية بالذهول، وهو مستعد الآن للاذعان إلى المزيد من هذه الشروط لو ان دول التحالف الرئيسة وافقت على بقائه في كرسيه ومدت له يد العون في قمع الانتفاضة.

والخلاصة ان قوى المعارضة العراقية قد عملت طويلاً من أجل رحيل الدكتاتور إلى غير رجعة. وها هو الشعب ينتفض بعد ان ظنَّ الكثيرون انه لن يثور، فهل من المعقول ان

نفتش عن طريق آخر؟ ليس هناك سوى الانتفاضة وعلينا ان نسير فيها حتى النهاية، وهي التي سوف تكون كفيلة بفتح كل الآفاق أمام تطور العراق المستقبلي الذي ينبغي ان يكون ديمقراطياً، لكي لا نعود من حيث ابتدأنا.

● **بيان ٢٧ كانون الاول ١٩٩٠ يتضمن برنامجاً واضح المعالم للديمقراطية السياسية. فما خطة التفعيل والديمومة في الواقع العراقي بعد ما شهد من خراب مادي وروحي يفاقم التناقضات الحادة اصلاً فيه؟ ثم ان البرلمانية الديمقراطية نادرة الديمومة في العالم الثالث.**

ـ نحن في التجمع الديمقراطي العراقي نلتزم بهذا البرنامج وندعو الآخرين إلى الالتزام به لكي لا يكون حبراً على ورق، ولكي يكشف عن تطور حقيقي في وعي مختلف قوى المعارضة العراقية لابعاد المعضلة العراقية. ان وراء العراق عشرات السنين من قمع الديمقراطية، ولكني اعتقد ان الديمقراطية هي الحل الوحيد الذي يمكن ان يضمن الهدوء والاستقرار في المستقبل. ولا يتوجب علينا ان نناضل في سبيل الديمقراطية ضد الدكتاتورية حسب، بل وفيما بيننا وضد انفسنا التي نشأت وترعرعت في مناخات غير ديمقراطية. ولا يمكن لقوى واحزاب لا تمارس الديمقراطية هي ذاتها ان تبني مجتمعاً ديمقراطياً. ومع ان الارث العراقي، إرث ثقيل، فأنا لا أتصور طريقاً آخر يمكن ان يوصل سفينة الشعب والوطن إلى شاطىء الأمان. علينا ان نُخْلصَ النية وان نبدأ السير في الطريق الشاق نحو الديمقراطية. وهكذا فعلت كل الشعوب التي سبقتنا في هذا المضمار. وقد تخلصت تدريجياً من إرث عصور الاستبداد. وكل طرح يؤكد على استحالة الوصول إلى الديمقراطية السياسية أولاً، ومن ثم الاقتصادية والاجتماعية، اعتماداً على التركة الثقيلة غير الديمقراطية انما يراد به تبرير الابقاء «إلى الأبد إنْ أمكن» على الاستبدادية المتنوعة.

أما حظ هذا البرنامج من النجاح والديمومة في الواقع العراقي فانه يتوقف أولاً، على مدى وعي القوى الفاعلة في المجتمع العراقي بضرورة «الحل الديمقراطي» لقضايا المجتمع، وتوطين النفوس على قبول شروط هذا الحل. ثمة قاعدة فقهية تقول: (مستعجل الشيء قبل أوانه يعاقب بحرمانه). وها نحن ندفع ثمن نظرية حرق المراحل. لقد صدق من قال ان الخط المستقيم ليس بالضرورة أقصر مسافة بين نقطتين.

ان تفاقم التناقضات ـ كما يعتقد البعض ـ لا يعطي مبرراً كافياً للعزوف عن الحل الديمقراطي، بل ربما كان الأمر على العكس تماماً. أي ان حدة هذه التناقضات قد تدفع الجميع إلى ادراك ان الاستمرار في طريق الاحتراب لا يؤدي إلا إلى الحرب الاهلية وتفكيك حالة المجتمع الراهنة من دون افراز حالة أفضل. فالبديل الوحيد هو الفوضى والفوضى الدموية في العراق آخذين في الاعتبار التراكمات الانتقامية عبر العقود الثلاثة

الأخيرة بشكل خاص.

اسمحوا لي ان أقول ان معظم هذه التناقضات ذات طابع حزبي ومذهبي، وهي من نوع التناقضات الذاتية. ويمكن للوعي الانساني ان يتوصل إلى حل لها يرضي الجميع، أو يطمن مصالح الجميع، وهذا ما يشير ايضاً إلى ضرورة التناول الديمقراطي في البحث عن جذور هذه التناقضات.

ويأتي القسم الأخير من السؤال ليؤكد حقيقة معروفة حول بلدان «العالم الثالث» الذي لم يعد عالماً ثالثاً بعد زوال مجموعة الدول الاشتراكية. ان هذه البلدان بشكل عام ضعيفة التطور اقتصادياً واجتماعياً، وبالتالي، سياسياً أيضاً. وهذا ما يسهل عملية التدخل في شؤونها الداخلية، وتفجير كل الصراعات اللامبدئية من الصراعات الاثنية والدينية والمذهبية. وقد كانت هذه البلدان حتى فترة قصيرة مستعمرات أو شبه مستعمرات، فانتقلت اليها بعض أمراض البلدان الام، وفجّر الصراع حول مستقبلها الاقتصادي - الاجتماعي صدامات حادة كانت صدى لما يدور من صراع على النطاق الدولي بين عالم منقسم إلى معسكرين. ولم تكن القوى التقدميه، اعني القوى الصاعدة في المجتمع، معنية أساساً بارساء تقاليد ديمقراطية برلمانية، بل ساعدت في القضاء على ما كان موجوداً منها باعتبارها مؤسسات ديمقراطية زائفة كما حدث في العراق بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ مثلاً. إذ لم تكن أية قوة سياسية فاعلة آنذاك تتطلع إلى البرلمان حقيقة، واعتبر البحث عن هذا الطريق الديمقراطي البرلماني مجرد مضيعة للوقت. أو ربما تآمر على الثورة ومسارها التقدمي. فقد اعتبر الشكل البرلماني في الحكم حصيلة تطور البرجوازية والرأسمالية، ولا يمكن لثوري حقيقي ان يفكر فيه.

وهكذا اضطلعت الايديولوجيا «الثورية» على اختلاف تياراتها بدور سلبي في الابطاء بعملية التطور الديمقراطي البرلماني، إن لم يكن بتدميرها بالكامل لعقود قادمة من الزمن. كيف ستكون الحالة في المستقبل المنظور؟ وهل تبدلت قناعات القوى الرئيسة في المجتمع؟

ان الجواب عن مثل هذه الاسئلة أمر يتسم بصعوبة خاصة. ولكن ثمة مؤشرات للسير في هذا الاتجاه ولاسيما بعد ان انتهت صورة العالم القديم، ولم تبرز حتى الآن المعالم الايجابية للعالم الجديد، وان تكن ثمة مظاهر سلبية كثيرة نأمل في ان لا تكون هي العناصر الاساسية في لوحة المستقبل.

● **كيف تقيّم المؤثرات الاقليمية والعربية، والعالمية عموماً، على الخيار أو البديل الديمقراطي المنشود للعراق؟**

- في عالم اليوم الذي يتسم بتداخل شديد بين قواه ومكوناته يصعب نفي العوامل الخارجية

المؤثرة في عملية التطور الداخلي، فكل عامل خارجي يصبح عاملاً داخلياً بهذه الدرجة أو تلك بسبب تفاعله مع الاوضاع الداخلية، والعكس بالعكس. فكيف بحالة العراق المنهزم سياسياً وعسكرياً نتيجة لسياسة الدكتاتورية العدوانية ازاء الجيران والاشقاء. ان العراق حالياً ليس دولة مستقلة بالمعنى الحرفي للكلمة ولاسيما بعد الاستسلام المطلق للطاغية. فالقوات الاجنبية موجودة على أرض العراق، وصدام حسين يوجه كل جهوده المدمرة لقمع انتفاضة الشعب. وهذا يفترض منه تقديم المزيد من التنازلات لقوات الاحتلال لكي تطلق يديه في سحق الثورة الشعبية عليه. ويبدو ان الاطراف الاساسية في التحالف الدولي لا تزال تفضل التعامل مع كيان هزيل وخانع بقيادة صدام حسين على انتصار الانتفاضة، ذلك الانتصار الذي يضعها أمام احتمالات جديدة غير مكتشفة الابعاد، أو يكتنف ابعادها شيء من الغموض.

وتنظر القوى الاقليمية أيضاً إلى الوضع الجديد المتكون على نحو تدريجي، على انه ينبغي ان يطمن مطالبها. ومن بين هذه المطالب ما هو مشروع، أي ان يكون العراق عامل سلم وأمن واستقرار في المنطقة، بعد ان سادت لغة التهديد بالقوة واستخدامها كوسيلة لحل خلافات العراق مع جيرانه واشقائه خلال ما يزيد قليلاً على العقد من الزمن. وأشير هنا إلى الحرب العراقية ـ الايرانية واحتلال الكويت. واعتقد ان البديل الديمقراطي هو البديل القادر على تحقيق هذا المطلب المشروع. ومن مصلحة القوى الاقليمية ان تساعد الشعب العراقي على تقرير مصيره بنفسه لتنبثق عن ذلك حكومة تمثل مزاج الشعب العراقي بكامله، وهذه الحكومة لا يمكن ان تكون إلا حكومة ديمقراطية تضم كل التيارات السياسية الاساسية داخل المجتمع العراقي. أما اذا أرادت هذه القوى ان تتعامل مع عراق ما بعد صدام حسين من منطق المنتصر والمهزوم فانها لن تساعد، بموقفها هذا، على حل المعضلة بل على تفاقمها، وتعميق اوضاع النزاع مستقبلاً. إن عراقاً مستقلاً، ديمقراطياً، مساهماً فعالاً في الحفاظ على الأمن والاستقرار في المنطقة، انما هو الشرط الاول والأخير للسير في طريق حل جميع معضلات الشرق الاوسط.

ومن الجانب الآخر، على القوى السياسية العراقية ان توظف الرغبة العربية والاقليمية والعالمية في وجود عراق مسالم لمصلحة تحقيق البديل الديمقراطي الذي يشكل صمام الأمان في وجه الاندفاعات والتطلعات الامبراطورية لأي خليفة لصدام حسين.

● **كيف يرى التجمع الديمقراطي دوره في البديل الديمقراطي؟ هل يمكن القاء الضوء على محاور وحصيلة النقاش الدائر حالياً في التجمع؟**

ـ منذ بداية عمل «التجمع الديمقراطي العراقي» ركز على الديمقراطية، والديمقراطية السياسية على وجه التحديد، واعتبر البديل الديمقراطي هو البديل الوحيد المقبول لدى

الشعب بعـد كل هذه التقلبـات في السياسة العراقية، وهذا التاريخ الدموي من القمع للحريات العامة والشخصية. وشخّص منذ وقت مبكر نسبياً الملامح الاولية لهذا البديل، واعتبر حق المعارضة للحكم، أي حكم، والاختلاف معه ومع الآخرين في التصورات والحلول المقترحة، حقاً أولياً للجماعات والأفراد لا يخرجها عن دائرة العمل الوطني كما كان الأمر منذ ثورة ١٤ تموز **١٩٥٨** وحتى اللحظة الراهنة، حيث استطاع نظام الحكم وانصـاره أياً كان، وأياً كانـوا، ان يصم ويصموا خصومهم بالخيانة الوطنية لا لشيء إلا لاختلافهم بالقناعات عن القائمين بشؤون الحكم، وما يستتبع ذلك من تبرير لحملات الملاحقة والمطاردة بحقهم واهدار دمهم. لقد كنا من أوائل من طالب بازالة هذه **الخط الأحمر** في العلاقات ما بين الحكم والقوى السياسية المناوئة له، وما بين القوى السياسية ذاتها. ان دور التجمـع باعتباره قوة ديمقراطية معارضة كان المساهمة الجدية في بلورة مفهوم الديمقراطية والتعددية السياسية كنهج عام في الحكم وليس كوسيلة للوصول إلى الحكم فقط. ومن هذا المنظور أعطى التجمع لنفسه حق نقد التجربة السياسية في العراق سابقـاً ولاحقاً بما يعزز السعي إلى التخلص من رواسب الماضي الثقيلة والانطلاق في طريق ديمقراطي جديد حقاً.

من رأينا ان تكون الحكومة معبرة عن مزاج الشعب، وليس العكس، أي ان يكون الشعب معبراً عن مزاج الحكومة أو حتى الحاكم الفرد، وان **الشعب هو المصدر الوحيد للسلطات**، والعـودة إلى رأيه عبـر صنـاديق الاقتراع مسألة لا يمكن التغاضي عنها. ان الشعب يمكن ان يعطي ثقته في لحظة زمنية معينة لحزب أو مجموعة من الاحزاب، ولكن هذا لا يعني تفويضاً أبدياً بالحكم. فقد يعجز الحزب أو التحالف السياسي المعني عن تحقيق الوعود التي قطعها على نفسه لاسباب خارجة عن ارادة القائمين عليه، وقد تعود الاسباب إلى عدم واقعية برنامجه السياسي والاقتصادي والاجتماعي، أو لأن برنامجه كان مجرد محاولة لنيل ثقة الناس ومن ثم العمل وفق برنامج مخفي عن الانظار بعناية. وفي الحالة الأخيرة، ثمة خداع وسوء طوية يكتشفها الناس من خلال ممارستهم اليومية ويعاقبون مرتكبيهما بحجب الثقة عنهم في الدورات اللاحقة.

تصوروا، ولو لحظة واحدة، ان ثمة حكماً ديمقراطياً يسود العراق. هل كان يمكن له ان يزج البلاد في حربين عدوانيتين في عقد واحد من الزمن دون الرجوع إلى المؤسسات الدستورية ودون ان يقدم الحساب عن أفعاله أمام أحد، بل وان يواصل تدمير الشعب المنتفض عليه بجيشه المهزوم أمام القوات الاجنبية؟

ان هذه اللوحة السريالية لا وجود لها إلا في ظل الحكم الدكتاتوري.

أمـا عن محاور النقاش الدائرة الآن في التجمع الديمقراطي، فانها تصب جميعاً

باتجاه الاقرار التام بالديمقراطية السياسية دون حدود أو قيود، أي بقبول مفهوم الديمقراطية الليبرالية، والتخلي عن «المفاهيم الديمقراطية» السابقة التي سادت التجربة في ما كان يسمى «العالم الثالث» من قبيل «الديمقراطية الموجهة» و «الديمقراطية الثورية»، وغير ذلك من مفاهيم معادية للديمقراطية بثوب ديمقراطي لفظي.

● مؤخراً انبثق في لندن تجمع يبدو مماثلاً لتجمعكم في التكوين والاهداف والاسلوب هو «اتحاد الديمقراطيين العراقيين». أيمكن اعتبار هذه الظاهرة من قبيل التشرذم للتيار الديمقراطي بين الاوساط المثقفة؟ هل من نية لتوحيد الطرفين؟

- باديء ذي بدء نقول اننا في التجمع أقررنا منذ البداية بالقبول بالتعددية ضمن التيار الديمقراطي، واتسم هذا الاقرار بقراءة واقعية للوضع العراقي داخل الوطن وخارجه. ذلك ان الظروف السياسية التي اعقبت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وهي معروفة لنا جميعاً، تسببت في استقطاب سياسي حاد جداً بين اليسار واليمين، وراح التيار الديمقراطي «الكلاسيكي» ضحية هذا الاستقطاب، وضَمُرَ دوره في الحياة السياسية لأسباب منها ما يعود اليه ذاتياً، أي لعدم قدرته على التلاؤم آنذاك مع الاوضاع الجديدة التي سادت البلاد في تلك الحقبة، وأخرى موضوعية هي عزوف الحكم العسكري الفردي وكذلك الاطراف السياسية أيضاً عن الاستماع لصوت الشعب عبر صناديق الاقتراع. ولعبت دوراً سلبياً ايضاً محاولات التدخل الخارجي المتكررة في شؤون العراق الداخلية. وقد فضّل اليسار واليمين اللجوء إلى أساليب القسر والادعاء بتمثيل الشعب كاملاً. والفاجعة التي نعيشها اليوم هي امتداد مُغالى فيه لتلك الظاهرة.

ولذا فان أية محاولة لاحياء هذا التيار وتمكينه من القيام بدور فعال في المسرح السياسي لابد ان تمر عبر محاولات متكررة لاعادة تنظيمه مع الأخذ بالحسبان الظروف الجديدة. وليس لأية جهة أو تنظيم سياسي ادعاء التمثيل الوحيد لهذا التيار. ومن هنا نرى ان نشوء هذه التنظيمات الديمقراطية مسألة صحية إلى حد كبير ولا سيما اذا كانت تستند حقاً إلى السعي لبلورة هذا التيار في شكل تنظيمي موحد مادامت المنطلقات واحدة. ولكن اذا كان المقصود بنشوء هذه التنظيمات التعبير عن حالة التشرذم وتكريسها، فان الأمر يكون مخالفاً لذلك. والملاحظ ان هذه التنظيمات نشأت وتنشأ داخل صفوف المثقفين الذين كانوا حتى الأمس القريب ينتمون لاحزاب ومنظمات تجاهلت في نشاطها العملي الأساليب الديمقراطية في التعامل الداخلي بين المنتمين اليها وبينها وبين القوى الاخرى.

ونشوء هذه التجمعات والتنظيمات تعبير واضح عن ضرورة الديمقراطية والتعددية السياسية.

ومن هذا المنطلق استغل التجمع الديمقراطي فرصة انعقاد المؤتمر العام لقوى المعارضة العراقية في بيروت، فاجرى اتصالات مع ممثلي «اتحاد الديمقراطيين العراقيين» في لندن وتنظيمات ديمقراطية أخرى بغية التوصل إلى فهم مشترك واقرار التعاون والتنسيق بين هذه التنظيمات كمرحلة أولى في المسعى المخلص نحو التوحيد الذي من شأنه ان يعطي هذا التيار وزنه الحقيقي في العملية السياسية الجارية الآن ومستقبلاً. وسوف نواصل الحوار في هذا المجال، وقد لمسنا لدى الاطراف الأخرى الرغبة ذاتها.

● **عشت طويلاً في جيكوسلوفاكيا وشهدت جانباً من سير «الاشتراكية القائمة» وانهيارها هناك. هل تود الحديث عن عواقب هذا التحول في وعي ومزاج الناس هناك؟**

ـ عشت حقاً فترة طويلة في جيكوسلوفاكيا نافت على العشرين عاماً، وهي صفوة العمر وزهوه. حللت في براغ في أواخر عام ١٩٧٠ وكانت البلاد لا تزال تشهد عملية التغلب على الأزمة العميقة لعام ١٩٦٨، والتي سميت آنذاك بربيع براغ. واقتنعت بالتدريج ان الحل العسكري غير كافٍ، وما هو أهم من ذلك انه غير شرعي، وان على قيادة البلاد ان تستخلص النتائج الضرورية من الأزمة، وان تسير في طريق الحل الديمقراطي لها. وكان هذا الحل يقتضي دراسة الوضع داخل الحزب الحاكم والمجتمع أيضاً. وقد اطلعت آنذاك على وثيقة سميت «من دروس الأزمة داخل الحزب والمجتمع» حاولت ان تقدم تبريراً لما حدث أكثر من تقديمها حلاً مستقبلياً. وجرت تطهيرات واسعة في صفوف الحزب والمجتمع، ولكنها لم تبلغ حد التصفيات الجسدية ولم توغل في أساليب القمع الشرس، بل اكتفت بما سمي في العالم العربي (التجربة الناصرية) بالعزل السياسي، أي ابعاد المناوئين لفكرة التسلط وحكم الحزب الواحد عن مركز صناعة القرار السياسي وفرض الاقامة الجبرية على بعضهم أو سجن البعض الآخر لفترات زمنية معينة.

لقد كان هذا الحل مرفوضاً لدى قوى المعارضة فواصلت نشاطها في الداخل والخارج بدعم مادي وأدبي واسع من قوى خارجية منادية باسم حقوق الانسان مثل الولايات المتحدة الاميركية. وتمثل هذا النشاط في اعلان رأيها بين فترة وأخرى في نشرات سرية أو في اذاعة صوت اوربا الحرة، وكان ينصب أساساً حول انتهاك «حقوق الانسان» بالمفهوم الاوربي وليس بمفهومنا نحن، ذلك المفهوم الذي يمتد ليشمل ابادة الجنس. وتصدرت هذا النضال منظمة تتكون بالدرجة الرئيسة من عدد من المثقفين سميت بـ «ميثاق ٧٧» اشارة إلى صدورها في عام ١٩٧٧.

واذا كانت التجربة الاشتراكية آنذاك قد تميزت بمظاهر مختلفة من كبت الحريات العامة والشخصية، وبفرض نوع من الوصاية الأبوية على الشعب، فانها حققت في

المجالين الاقتصادي والاجتماعي منجزات لا يمكن التقليل من شأنها في توفير العيش الكريم لفئات واسعة جداً من المجتمع أصبح مصيرها الآن، بعد تطورات عام ١٩٨٩، ملتبساً. فبعد الفرحة العامة والغامرة التي حملتها معها أمواج انهيار النظام السياسي القديم، وانطلاق الحريات الديمقراطية وفي مقدمتها حرية التنظيم السياسي والتظاهر والاجتماع والصحافة والمعتقد... الخ عاد الناس يتساءلون عن مصيرهم والضمانات الاجتماعية التي كانت متوفرة سابقاً: الحق في العمل، الضمان الصحي المجاني، التعليم المجاني، المسكن باجور واطئة، اسعار البضائع الثابتة والواطئة بشكل عام. وهكذا واجهت الجمهور الذي انغمر في النشاط في أجواء الحرية السياسية: البطالة وانفلات الاسعار الذي فاق كل التقديرات، والتساؤل حول المستقبل في ميادين الصحة والتعليم والاسكان التي يجري الآن إعادة النظر فيها. وافرز التحول الديمقراطي على النحو المعروف ظواهر أخرى منها احتدام الصراع القومي ما بين التشيك والمورافيين والسلوفاك. وهددت الظاهرة القومية المجتمع التشيكوسلوفاكي والدولة التشيكوسلوفاكية بالتفكك، وحتى الآن لم تجد لها حلاً شافياً. وبرزت إلى السطح ظاهرة الجريمة المنظمة وتفشي المخدرات والمتاجرة بالجنس.

ولابد لمثل هذا التحول غير المحسوب ان يترك أثره العميق في مزاج الناس وسعيهم لضمان مستقبلهم، والقلق واضح لدى الجميع، أما اثره في وعيهم فاعتقد انه يحتاج إلى وقت أطول لكي يبرز للعيان ويتحدد في شكل معين.

ان الظاهرة الأولى لتصفية القطاع العام، مثلاً، هي ظهور جيش من ا لمتاجرين الوهميين ان صح التعبير، ونشوء مؤسسات خاصة لا تتمتع بأية مقومات للبقاء والاستمرار في العمل. والتقدير الاقتصادي لدى خبراء السير في الطريق الرأسمالي، أو الاصلاح الاقتصادي، ان العامين المقبلين سوف يشهدان افلاساً واسع النطاق لامثال هذه المؤسسات. فالمعضلة الاساسية هي محاولة إعادة بناء الرأسمالية في بلد ليس فيه رأسماليون. والطريق الوحيد هو استيراد هؤلاء من الخارج، أي فتح الابواب على مصاريعها لرأس المال الاجنبي وبيع البلاد بالمفرد والجملة بما يترتب على ذلك من استغلال لقوى العمل الداخلية الرخيصة نسبياً. وحتى هذا المشروع لم يتحقق فان رأس المال الاجنبي يريد ضمانات قانونية وسياسية أكثر وأوسع مما أعطى.

● وماذا عن عبرة ذلك كله بالنسبة لانصار الحل الاشتراكي كأفق مستقبلي في العراق؟

ـ اذا أردنا ان نستشف العبرة من كل هذا بالنسبة لانصار الحل الاشتراكي في بلادنا، فانني اغامر بالقول ان «الأفق الاشتراكي!» قد ابتعد كثيراً بحيث أصبحت رؤيته شبه متعذرة.

وجاءت التغييرات في العالم وفي التجربة الاشتراكية بالذات لتجعل هذا الأفق يبدو وكأن حلم معتوه في بلد مثل بلدنا بعد هذا الخراب الواسع. إلا انني أعرف جيداً ان الانسان، بما هو انسان، لا يستطيع ان يتخلى عن الحلم، اذ ان الحياة عند ذاك تتحول إلى لعبة لا تثير سوى الضجر. لقد وضع الانسان لنفسه، منذ فجر التاريخ، اهدافاً أدرك بعضها واخطأ في ادراك البعض الآخر، ولا بأس من ان يضع الاشتراكية هدفاً له، وان يسعى بجد لتحقيق هذا الهدف النبيل باسلوب تدريجي وديمقراطي وباكتساب قناعة الناس بكونها الحل الأفضل لهم جميعاً. ومن الواضح ان الناس في عالم اليوم قد ابتعدوا عن مثل هذه القناعة لاسباب كثيرة من بينها الاخطاء المأساوية في التجربة الاشتراكية.

ان ما تحتاجه بلادنا الآن وفي المستقبل المنظور فهو الديمقراطية السياسية دون قيود أو شروط، ونوع من نظام العدالة الاجتماعية الذي يعوّض الفئات المحرومة، ولا يسد الابواب في وجه المطامح الفردية والفئوية المشروعة في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي. وعلى دعاة «الحل الاشتراكي» ان يضعوا هذا في الاعتبار، وان يبدأوا رحلة الألف ميل بخطوة واحدة هي العمل من أجل النظام الديمقراطي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وتمكين الشعب من ان يقول رأيه في هذا النظام.

● في ضوء أزمة الخليج عالجتَ جوانب هامة من علل الوسط الثقافي العربي. ما الذي تتوقع ان يشهد هذا الوسط بعد حصول الكارثة

- يبدو لي ان الوسط الفكري العربي المعني بتغيير الواقع لا يزال يواصل السير في الاتجاه نفسه، وهو كالسائر في نومه، مفتوح العيون ولكنه لا يرى، يتحكم العقل الباطن، بما يزخر فيه من رغبات وآمال مكبوتة، في مسيرته، وانه لم يصح حتى الآن على الرغم من عمق الكارثة وسعتها، ولا يزال يعمل وفق المعادلات والصيغ الوهمية المحشوة بالمغالطات. ومن المبكر توقع تغييرات في اطروحاته الاساسية، وكل ما يمكن التنبؤ به هو ان اطروحاته السابقة سوف يخفت ضجيجها بالتدريج، وليس دفعة واحدة. ومن الانصاف ان نذكر ان تعديلاً أساسياً في الاطروحات أو صياغة اطروحات جديدة مسألة معقدة لا يمكن ان تحدث بسهولة، على فرض ان المفكرين يريدون ويسعون لاحداث مثل هذا التجديد في فكرهم. اننا أبناء هذا المجتمع المتعنت والمتخلف، ولا يمكن لافكارنا ان تنجو من هذين الدائين وان إدعت محاربتهما. والمستغرب هو انهما يبدوان في أحيان كثيرة على درجة عالية من الفجاجة بحيث يقف الانسان في لحظات صحوه مذهولاً أمامهما.

وما دمنا نؤمن بأن الواقع هو جذر كل شيء فان هذا التغيير لابد حاصل يوماً ما. وعندما يصحو البعض سوف نشهد الكثير من التبرير واللف والدوران بدلاً من الاعتراف

بقصور مناهجنا السابقة في التحليل أو مساعدتها لنا على القفز على الواقع . وما لم نتخل كلياً عن خداع الذات ، وما لم نصر على التحديق بشجاعة إلى الهوة الفاغرة فاها أمامنا ، فاننا سوف نعود لنكرر اخطاء الماضي بأشكال جديدة دون ان نكتشف ذلك في الوقت المناسب .

والخلاصة ، اننا بحاجة إلى الاستيقاظ من النوم أولاً ، ومن ثم نبذ كل الأدوات القديمة في التحليل والتركيب ، ومواجهة الواقع بعيون غريبة عنه (أي غير مصابة بداء الالفة) تحاول ان تلتقط كل افرازاته وتعيد ترتيبها حسب أهميتها الفعلية وليس الافتراضية . وهذا يتطلب ان نكف عن التفكير بلغة الشعارات الحماسية وان نحطم البلاغة الساحرة والفارغة في آن معاً . وإلى ان يحدث مثل هذا التطور ، الذي طال انتظاره ، لا أتوقع أية مفاجآت في هذا الصدد . فقد خدشت المآسي السابقة بنية الفكر العربي ولكنها لم تغيرها على نحو جذري .

● بودنا سماع ملاحظاتك عن مجلتنا في الفترة الأخيرة ، ولنقل منذ توقف «قضايا السلم والاشتراكية» بحكم اهتماماتك الفكرية والثقافية والسياسية والصحفية ، ماذا نحتاج لتطوير المجلة ، في حدود الممكن؟

ـ حدث ولا شك تغير في مجلة «الثقافة الجديدة» فقد تخلصت ، في الأقل ، من مواد «قضايا السلم والاشتراكية» التي كانت في الأغلب معالجات اركيولوجية (آثارية) ان صح التعبير ، تهتم بتزيين صرح لا وجود له في الواقع . وكانت موادها تعاني فقراً نظرياً واعلامياً ملحوظاً . فالعاملون فيها (المحررون المسؤولون) كانوا من الموظفين السوفييت . ولم يكن مسموحاً لأية مادة على العموم ، ان ترى النور قبل ان تمر في مطبخ هؤلاء الموظفين . وقد أدت هذه الحالة المزرية إلى انسحاب عدد من المشاركين في اصدار المجلة في اعوام سابقة . وفي الوقت الذي أخذت المجلة تسير في طريق التغيير ، المفروض عليها ، اختفت من الوجود . وهذا أفضل شيء عملته .

ويمكن للثقافة الجديدة لكي تكون جديدة حقاً ان تفسح في المجال دون خوف من الشطط للتعبير عن التيارات الجديدة في الفكر العراقي والعربي والعالمي ، وان تكون ميداناً لاستشراف الجديد ، وهذه مهمة عسيرة يقتضيها توافر جهود وطاقات متنوعة تحول دونها حالة الشتات والغربة . ومع هذا فانني ألاحظ بوادر التجديد وأدعو إلى المزيد منه .

وأكرر شكري لهيئة تحرير «الثقافة الجديدة» .

دمشق ٢٨ آذار ١٩٩١

التحولات الجارية في عالمنا وضرورات التجديد

نواصل في هذا العدد نشر اجابات الرفيق د. كاظم حبيب حول الاسئلة التي كنا وجهناها اليه في إطار الحوار الجاري في حزبنا حول التجديد. ويتناول أدناه اوضاع الرأسمالية ومسار البريسترويكا وانعكاسات كل ذلك على البلدان النامية وعلى الاحزاب الشيوعية في البلدان العربية.

● كيف نقيّم الرأسمالية المعاصرة؟ الامبريالية، هل هي عشية الثورة البروليتارية؟

- تحليلاتنا السابقة للرأسمالية تميزت بتفاؤل شديد. فتوقعنا انهيارها سريعاً. اعتمدنا في التحليل على كتاب لينين «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» الذي استنتج «ان الامبريالية هي عشية الثورة الاجتماعية البروليتارية. وقد ثبت ذلك منذ سنة ١٩١٧ في النطاق العالمي». (انظر مقدمته للطبعتين الفرنسية والالمانية في ٦ تموز سنة ١٩٢٠).

لقد استند لينين في استنتاجه هذا إلى تشخيص ثلاثة ملامح ميزت اتجاهات تطور الامبريالية حينذاك، وأعني بها كونها:

رأسمالية احتكارية، ورأسمالية طفيلية ورأسمالية محتضرة. وفي ضوء هذه الملامح الاساسية استنتج لينين ان الامبريالية، باعتبارها أعلى مراحل الرأسمالية، ستكون عاجزة بعد الآن عن تطوير القوى المنتجة، وسيتفاقم التناقض بين الطابع الاجتماعي للقوى المنتجة وطابع الملكية الخاص لعلاقات الانتاج، وان التحول إلى رأسمالية الدولة

الاحتكارية وزيادة تدخل الدولة في تنظيم الاقتصاد لا يحل هذا التناقض بل سيعمقه بالاقتران مع تشديدها للاستغلال وعسكرة الاقتصاد وزيادة انتاج الاسلحة واثارتها للحروب لاعادة تقسيم مناطق النفوذ فيما بينها، وسيدفعها إلى مصيرها المحتوم، إلى مزبلة التاريخ. وهذه الوجهة في التطور هي التي ستوفر مستلزمات انتصار الثورة الاشتراكية في هذه البلدان وبالارتباط مع النضال الذي تخوضه البروليتارية العالمية. إلاّ ان هذا الانتصار لم يكن يتطابق عند لينين مع بناء الاشتراكية، بل بداية لمرحلة انتقالية طويلة. وقد اعتبر لينين في كتابه «خطتا الاشتراكية ـ الديمقراطية للثورة الديمقراطية» الصادر في عام ١٩٠٥ مثلاً، ان انتصار الثورة الروسية سيفتح الطريق على مصراعيه لانتصار البروليتارية العالمية على الامبريالية. اذ كتب يقول: «فما من شيء يرفع العزيمة الثورية لدى البروليتاريا العالمية ويختصر طريقها نحو الانتصار التام مثل هذا الانتصار الحاسم للثورة التي بدأت في روسيا».

وفيما بعد اعطيت تقديرات مماثلة من جانب العلماء والمنظرين السياسيين السوفييت ومن آخرين في بلدان أخرى عن المصير الحتمي غير البعيد لانهيار الامبريالية.

ورغم التغيرات الكبيرة التي طرأت على الاوضاع الدولية أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، أي على امتداد الفترة التي بدأت وتطورت فيها الثورة العلمية ـ التكنولوجية التي احدثتها الرأسمالية المعاصرة ذاتها، استمر الجمود الفكري والأيمانية الساذجة في حركتنا والاصرار على ترديد الاستنتاجات القديمة واعتماد الكليشهات والمسلمات في مناقشة الافكار الجديدة المعاصرة للبرجوازية.

ويفترض في هذا الصدد الاشارة إلى ان عدداً من الاحزاب الشيوعية والعمالية والقوى الديمقراطية الثورية قد انتبه إلى الاوضاع الجديدة في الرأسمالية المعاصرة، وأشار اليها في مناسبات كثيرة وسعى إلى الترويج لها والدفاع عنها في فترات متباينة. إلاّ ان مثل هذه الافكار الجريئة والصائبة لم تلق حينذاك آذاناً صاغية من جانب الغالبية العظمى من الاحزاب الشيوعية والعمالية وجوبهت بمقاومة شديدة اذ ان بعضها لم يطرح الاساليب والصياغات المناسبة ولاقت صدوداً عاماً. كما يمكن الاشارة إلى ان عدداً من المنظرين البارزين قد خالفوا لينين أثناء حياته في طروحاته وتصوراته عن اتجاهات تطور الامبريالية. ويبدو لنا اليوم ان تلك المساهمات الفكرية والسياسية لم تكن كلها خاطئة. كما ان قمعها في الفترة الستالينية قد الحق اضراراً فادحة بحرية الفكر وبصراع الآراء وتطور النظرية وغنى التجربة. وفي هذا الصدد يمكن العودة إلى موضوعات وافكار جنينية مهمة وردت في كتابات بوخارين وروزا لكسمبورغ وكاوتسكي على سبيل المثال لا الحصر.

والآن كيف نقيم الرأسمالية المعاصرة في المرحلة الراهنة؟

يفترض ان نشير ابتداءاً إلى حقيقة ملموسة هي ان العالم الرأسمالي المعاصر متناقض جداً ويتسم بالتباين في مستويات تطور مناطقه وبلدانه المختلفة بحكم فعل قانون التطور المتفاوت. ففي الوقت الذي تواجهنا دول امبريالية متطورة مثل امريكا الشمالية واوربا الغربية واليابان، وهي المراكز الاساسية الثلاثة في العالم الرأسمالي المعاصر، تقف أمامنا دول أخرى ذات مستويات متوسطة في تطورها الرأسمالي. كما نصطدم بعشرات الدول ذات التطور الرأسمالي الضعيف والمتخلفة حتى في مستوى انتشار العلاقات الانتاجية الرأسمالية فيها. والمجموعة الاخيرة تتوزع على مدارات عديدة وتنتشر على مسافات متباينة في بعدها عن المراكز الامبريالية. وهذا هو حال الدول ذات المستوى المتوسط في تطورها الرأسمالي حيث نجد نفسها تتحرك في مدارات تقع بين المجموعتين الاساسيتين.

وفي الوقت الذي يسجل العالم الرأسمالي المتطور مزيداً من النمو الاقتصادي والتقدم الاجتماعي وارتفاع كبير ومتسارع في معدلات انتاجية العمل والدخل القومي وتحسين متزايد في مستويات معيشة السكان فيه، تسجل بلدان العالم الثالث تطوراً بطيئاً جداً في معدلات التنمية والنمو الاقتصادي وانتاجية العمل والدخل القومي فيها واستمرار مستويات المعيشة الواطئة عموماً واتساع الفجوة بينهما في مؤشرات أساسية كثيرة، اضافة إلى الفجوة في معدلات الدخول السنوية للأفراد.

وتكشف الرأسمالية المعاصرة عن مرونة وحيوية كبيرتين في مواجهة التحديات والتغلب عليها. وتستخدم آليات نقدية ومالية عديدة لمكافحة الازمات التي تواجهها. وهي تلقي باعباء تلك الازمات على عاتق الجزء المتخلف من العالم الرأسمالي، على كاهل بلدان العالم الثالث بشكل خاص. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية · توجه الرأسمالية أفضل امكانياتها لتحقيق الثورة العلمية ـ التكنولوجية وتتحمل القسط الأكبر في تطوير منجزاتها واستخدامها في العمليات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية. ويتيح لها ذلك قدرات كبيرة على تنمية التراكمات وتحسين مستوى توزيعها واستخدامها لخدمة مصالح الرأسمالية العالمية، وإلى تغيير بنية الانتاج والتجارة الخارجية، وإلى رفع معدلات انتاجية العمل وتقليص الحاجة للأيدي العاملة، أي اجراء تغيير كبير في بنية الرأسمال العضوي لصالح زيادة نسبة رأس المال الثابت وتقليص نسبة رأس المال المتغير (الاجور)، الذي يساعد بدوره على اجراء تغيير جوهري في توزيع الدخل القومي بين الاجور والارباح لصالح الأخيرة، وفي اعادة توزيعه لصالح الاحتكارات والفئات الاجتماعية المالكة لوسائل الانتاج والفئات المرفهة الأخرى.

وتلعب الشركات الرأسمالية الاحتكارية المتعددة الجنسية (في إطار نظام احتكار

القلة) دوراً استثنائياً في تنمية وتعزيز الطابع الدولي للاقتصاد (الانتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك) لزيادة مستوى التركز والتمركز في الانتاج ورأس المال وفي تسريع وتعظيم منجزات الثورة العلمية ـ التكنولوجية وتطوير الاساليب والصيغ العلمية الحديثة لادارة وتنظيم النشاط الاقتصادي على النطاقين الدولي والمحلي، وتؤمن قدراً كبيراً من التراكمات الرأسمالية النقدية لتحسين مستويات انسيابية رؤوس الاموال ومنجزات الثورة العلمية ـ التكنولوجية والخبرات الفنية والايدي العاملة بين الدول، وهي تحت رقابتها وتوجيهها. وتشكل الاتمتة المتطورة والالكترونيات والثورة المعلوماتية ووسائل الاتصال الحديثة مضمون الثورة العلمية ـ التكنولوجية وتميز اتجاهات تطورها وتحقق عبرها التغييرات المنشودة في بنية قوة العمل. فهي تساهم في اجراء تقليص كبير في استخدام قوة العمل العضلية وتكثيف العمل العقلي وتحسين نوعيته والتوفير فيه في آن. ويطرح هذا الأمر مطلباً جديداً أمام العمال والنقابات، أي النضال لتقليص ساعات العمل اليومية وأيام العمل الاسبوعية.

لقد غدا الاقتصاد الدولي متشابكاً تتداخل فيه عمليات اعادة الانتاج لتشكل، رغم التناقضات فيها، وحدة عضوية قائمة على أساس تقسيم جديد متطور للعمل على النطاق الدولي، ومستندة إلى العلم كقوة انتاجية متقدمة ذات تأثيرات متعاظمة على الاقتصادات الوطنية وعلى دور الاحتكارات المتعددة الجنسية بحيث تسهم في توفير افضليات مثلى لانتاج هذه السلعة أو تلك عبر تظافر استخدام عوامل الافضلية الدولية من حيث المستوى المتقدم للتكنولوجيا ورخص الايدي العاملة والمواد الاولية، وتوفير الادارة الاقتصادية والفنية والتنظيم الانتاجي المتطور (التكاليف والمنافع النسبية). وبهذا تحقق قفزات استثنائية في انتاجية العمل وتقليص التكاليف وتحسين النوعية والتناغم مع الذوق، بل أقول، والتدخل في صنعه.

وتسلك الرأسمالية المعاصرة سبيلاً جديداً في معالجة الصراعات الطبقية في بلدانها، وهو يتخذ المسارات التالية:

* وضع التشريعات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تضمن من حيث المبدأ الحفاظ على النظام الرأسمالي وتوطيده وتبعد التهديدات عنه، وتجيز استخدام قوانين الطوارىء بل حتى ممارسة العنف ضد العمال عندما تتهدد تلك التشريعات مخاطر معينة، أي عندما يتعرض النظام الرأسمالي إلى مخاطر جدية.

* تأمين الحريات الديمقراطية البرجوازية واقامة دولة القانون بالمضمون البرجوازي وضمان حرية النشاط السياسي والمهني والنقابي وحرية الصحافة والنشر والتعبير، واحترام حرية العقيدة والدين، والحق في التظاهر والاضراب وغيرها من حقوق الانسان.

* وضع نظم متقدمة نسبياً للضمانات الاجتماعية في مجالات الصحة والتقاعد والعجز والبطالة . . . الخ .

ولم تتحقق مثل هذه المكاسب الاجتماعية إلّا عبر نضالات طويلة خاضتها الطبقة العاملة وبقية القوى والفئات الاجتماعية الكادحة في هذه البلدان . وغالباً ما يحصل تجاوز على هذه الديمقراطية وعلى حقوق الانسان في هذه البلدان من جانب الفئات المالكة لوسائل الانتاج واجهزة الدولة التي تجسد مصالحها ، بما فيها اجهزة الامن والاستخبارات والشرطة ، اضافة إلى صياغة قوانين تحرم العمل على قوى معينة ، وبخاصة على الشيوعيين ، كما هو الحال في جمهورية المانيا الاتحادية .

هكذا اذن تبدو الرأسمالية المعاصرة في جانب واحد منها . أما الجانب الثاني الذي يفترض ان لا نغفله ، في خضم الانهيارات والتبدلات الجذرية الجارية في بلدان اوربا الاشتراكية ، وتفاقم المشكلات في الاتحاد السوفييتي ، هو ان الرأسمالية لم تتغير في مضامينها الاساسية ، كما لم تنتف عنها القوانين الموضوعية الفاعلة فيها ، وبخاصة قانونها الاساسي ، قانون فائض القيمة ، وعلاقته المباشرة بقانون التطور المتفاوت ، حتى وان يتباين بهذا القدر أو ذاك ، شكل بروز وحركة وتأثير هذه القوانين .

ان هذه الحقائق تفترض علينا دراسة الرأسمالية المعاصرة من جديد في ضوء التراث الكلاسيكي النظري والتعمق فيه وفي ضوء الخبرة التاريخية المتراكمة والتطورات الجديدة الجارية على الرأسمالية في الواقع الموضوعي . ومنها يمكن ان نتبين مدى صواب الموضوعة القائلة بأن الامبريالية هي عشية الثورة الاشتراكية .

ان المنهج الماركسي الذي نعتمده يؤكد من الناحية النظرية ان النظام الاشتراكي يلي النظام الرأسمالي ومتقدم عليه من حيث مستوى تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . وهو يحل محله عندما يفقد الأخير مبررات وجوده ومقومات استمراره . ومثل هذه العملية المعقدة والطويلة لا تتم بشكل عفوي بل تستوجب نضالاً مثابراً وصبوراً . وتبقى المسألة الأكثر أهمية والحاحاً التي تحتاج إلى اجابة ملموسة تتلخص في السبل التي ستسلكها البشرية في مختلف ارجاء المعمورة في انجاز هذه العملية . اذ ان علينا ان نأخذ بالاعتبار التغيرات الجارية في العالم ابتداءاً من الثورة العلمية ـ التكنولوجية وتعاظم وجود السلاح النووي واسلحة الدمار الجماعي والتغيرات في بنية الطبقة العاملة ، وانتهاءاً بما يجري اليوم في اوربا الشرقية وفي الاتحاد السوفييتي . وهذه الاوضاع تضعنا وجهاً لوجه أمام حقيقة وامكانية اختيار شعوب مختلف البلدان طريق التطور الديمقراطي لتحقيق التحولات الاجتماعية المنشودة . وهذا يعني ، وبسبب تعاظم المشكلات التي تواجه شعوب هذا البلد أو ذاك ، حصول تحولات عميقة في موقف الرأي العام ، ازاء الرأسمالية والانحياز لصالح

الحلول الأكثر جذرية من حيث العمق والشمولية، لصالح الاشتراكية.

ومنذ الآن يستطيع المرء ان يتصور بأن مثل هذه العملية ستكون جد معقدة وطويلة نسبياً، كما تشترط خوض نضالات اقتصادية واجتماعية وسياسية لتأمين التحولات الضرورية في موازين القوى الطبقية والسياسية لصالح الاشتراكية.

والسؤال الذي يحتاج إلى اجابة معمقة ومتأنية يدور حول الاستنتاج النظري الذي صاغه لينين قبل ثورة اكتوبر في روسيا القيصرية، والقائل بامكانية انتصار الثورة الاشتراكية وبنائها في بلد واحد، بالارتباط مع التطورات الجارية منذ سنوات والمتفاقمة حالياً في الاتحاد السوفييتي وبلدان اوربا الشرقية. اذ ان عدداً متزايداً من الكتاب بدأ يشكك بصواب هذه الموضوعة ويقدم جملة من الافكار والحجج لدحض هذه الموضوعة. وأنا الآن لست بصدد الاجابة العاجلة عليها. فهذه الموضوعة والموضوعة المضادة لها تحتاج إلى جهد نظري وعملي كبيرين للوصول إلى صياغة جادة في إطار التطور الراهن وآفاقه اللاحقة. ولم يكن ستالين من صاغ هذه الموضوعة، بل أخذها، كما أخذتها جميع الاحزاب الشيوعية والعمالية، من لينين.

● **يشار إلى ان الظروف الموضوعية كانت غير ناضجة للبناء الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي بسبب تخلف القاعدة الاقتصادية الاجتماعية في روسيا، وحتى هناك تخطئة لثورة اكتوبر، اذاكان هذا الأمر صحيحاً فكيف يمكن تفسير التعثر في جيكوسلوفاكيا والمانيا الديمقراطية المتطورتين صناعياً؟**

- ان الاحداث الراهنة التي يعيشها الاتحاد السوفييتي، وكذلك التطورات السريعة والانعطافات الحادة الجارية في أوضاع بلدان اوربا الشرقية تفتح الابواب على مصراعيها أمام اعادة تقويم احداث الماضي لا على أساس الاوضاع الراهنة، بل في ضوء الظروف والاوضاع التاريخية التي سرت بها تلك الاحداث، وفي ضوء ما ينشر اليوم من حقائق لم تكن معروفة لدى الغالبية العظمى من الناس ومن الشيوعيين. على ان اعادة النظر هذه تفترض الاستناد إلى متابعات وابحاث علمية معمقة وبعيدة عن التبسيط ومحاولات التنظير المتسرعة والاحكام القاطعة التي عانينا منها الأمرين. علينا ان نصغي بانتباه شديد إلى مناقشات الآخرين، ان نفكر بها، وان ندلي بارائنا حول القضايا المعروضة للمناقشة بروح التلمذة والتواضع والتحري عن الحقيقة.

ومن يتتبع المناقشات الجارية في الاتحاد السوفييتي وبلدان اوربا الشرقية وخارجها يتعرف على وجهات نظر متباينة تستحق التأمل والتدقيق بصدد ثورة اكتوبر والبناء الاشتراكي اللاحق في الاتحاد السوفييتي.

وكما يشير السؤال ذاته فهناك من يعتقد بأن التحضير لثورة اكتوبر من قبل

البولشفيك» واسقاط حكومة كيرنسكي المؤقتة وتسلم السلطة من قبل الحزب البولشفي لم يكن عملاً صحيحاً ومنسجما مع مسار التطور التاريخي . وهناك من يعتقد بأن ظروف الثورة كانت ناضجة ، إلاّ ان اوضاع روسيا لم تكن ناضجة فيما بعد لبناء الاشتراكية بتلك العجالة وهناك من يعتقد بأن الظروف كانت ناضجة للمسألتين

يبدو لي ان من يطرح موضوعة خطأ قيام ثورة اكتوبر في تناقض مع الوقائع ، ويغفل تماماً طبيعة وشروط الانتفاضات والثورات الاجتماعية . ويعتقد بأنها من صنع حفنة من الأفراد أو الجماعات أو حتى الاحزاب السياسية بناء على قرارات يتخذونها وفق ارادتهم الذاتية . وبالتالي ينسى طابعها الموضوعي ، بمعزل عن نجاحها أو فشلها بعد وقوعها ، اذ ان عوامل كثيرة أخرى طارئة غير محسوبة يمكن ان تلعب دورها في تحديد النتيجة . فالثورات تجسيد لواقع موضوعي وتأكيد لتفاعل بين الظروف الموضوعية والذاتية . انها تأكيد لنضوج شروط معينة . ان نجاحها أو فشلها رهن بعدد كبير من العوامل والمستجدات في الوضع الثوري الملموس وفي قدرة الثوريين على أو عجزهم عن كسب أوسع الناس إلى جانبهم ، وعلى ادارة دفة العملية وصياغة الشعارات الملموسة والعملية لحسم الصراع إلى جانبهم ، أو بتبني شعارات واتباع أساليب لا تسمح بتعبئة الناس ودفع العملية بالاتجاه السليم . أي ان العملية ترتبط هنا بمدى قدرة العامل الذاتي على الاستفادة الواعية من نضوج العامل الموضوعي ، من نضوج الرضع الثوري لتحقيق الانتصار ومواصلته . ولم تشذ ثورة ١٩٠٥ ، التي انتكست ، ولا ثورتا شباط واكتوبر عام ١٩١٧ ، اللتان حققتا الانتصار عن هذه القاعدة . وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى كل الثورات في العالم ، سواء المنتصرة منها أم المندحرة . وهكذا سيكون الأمر في المستقبل رغم كل التغيرات الجارية على حياة شعوبنا ، ورغم ما سيطرأ على اساليب تناول وتداول السلطة في المجتمع .

كان لينين يدرك تماماً ان المهام المطروحة أمام الثورة هي مهمات ديمقراطية في طبيعتها؛أي ذات المهمات التي عجزت ثورة شباط عن تحقيقها ، رغم انها ذات مضامين أعمق وأشمل بحكم طبيعة قيادتها . والواضح هنا ان طبيعة القوى لا يمكنها ان تغير من طبيعة المهمات ، بل يمكن ان تضفي عليها عمقاً وشمولية وحسماً أكبر . وقدر لينين منذ البدء الآثار البالغة للثورة الروسية على اوضاع روسيا والعالم ورأى فيها افقاً اشتراكياً . وبهذا المعنى لم تكن المهمة المباشرة أو على المدى القريب التي تواجه الثورة ، هو البناء الاشتراكي . وتجلت هذه الحقيقة في كتابات لينين وفي صياغته للسياسة الاقتصادية ـ النيب ـ التي كانت في جوهرها السعي لانجاز ما عجزت عن تحقيقه البرجوازية الحاكمة من مهمات . وكان وجود حزب الطبقة العاملة على رأس السلطة يسمح بتحقيق تلك المهمات بعمق وشمولية يستجيبان لتطلعات الشعب للخلاص من الكوارث التي يعاني

منها. وكان لينين، الذي طرح لأول مرة امكانية انتصار الثورة الاشتراكية في بلد واحد، وكـان ذلك قبل انتصار ثورة اكتوبر، يدرك تماماً المصاعب الجمة التي تواجه مثل هذه العملية. ولهذا كان يحذر باستمرار من أي استعجال في المسيرة أو قفز على المراحل. **وعند قراءة نصوص عديدة حول تلك المرحلة وموضوع البناء الاشتراكي في كتابات لينين يصعب على المـرء ان يجـزم اليوم بأن لينين كان يعتقد بأن بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي يفترض ان يتأخر لعشرات السنين، خاصة وان لينين كان من المؤمنين بقرب افول الرأسمالية**. وهذا التفاؤل كان قد انتقل إلى قيادة وكرادر الحزب ولجماهير واسعة بكثير من التبسيط المشحون بالحماس الثوري والرغبات الذاتية والارادة الطيبة!، والذي انتقل فيما بعد إلى عقول وقلوب كل المناضلين في أرجاء العالم. ولعب دوره في صياغة الشعارات والمهمات. ومع ذلك فان لينين كان يعتقد من الناحيتين النظرية والعملية بحتمية وجـود مرحلة انتقـالية طويلة ستحتـاجهـا الثـورة لانجاز تلك المهمات قبل انتقالها إلى

الاشتراكية. ويبدو انه اعتبر جمهورية السوفييت الاشتراكية تمر منذ عام ١٩١٨ بمرحلة انتقالية.

وعندما تسلّم ستالين زمام قيادة الحزب والدولة كانت الصراعات الفكرية والسياسية على أشدها. ويبدو ان الاوضاع الثورية عموماً والتعقيدات والمصاعب التي كانت تواجه البـلاد حينذاك دفعت التنظيرات، كما أشرت في اجابتي عن السؤال الأول، باتجاهات

يسارية متطرفة تستعجل الأمور وترغب في انجاز المهمات بفترة زمنية قصيرة، بغض النظر عن مدى نضوج شروط ومستلزمات نجاحها وكيفية انجازها ومدى استعداد الناس للتجاوب معها وتأثيراتها المستقبلية على تطور الثورة.

والاتحـاد السـوفييتي، كمـا هو معـروف، حتى في ذلك الحين، كان بلداً واسع الارجاء، متعدد القوميات ومتبايناً جداً في مستويات تطور اجزائه وفي امكانياتها وعندما عمد قادة الحزب والدولة إلى وضع الخطط الاقتصادية والاجتماعية كان في وهمهم انهم بذلـك بدأوا ببنـاء الاشتراكية. وبالتالي فان الخطط كانت تحاول تجسيد هذه القضية، التعامل مع واقع غير قائم، مع قوانين اشتراكية موجودة في التصور والرغبة فقط.

لنعـد إلى الموضوعة التي وردت في مقدمة كتاب لينين «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» والقائلة بأن «الامبريالية هي عشية الثورة الاجتماعية البروليتارية»... والتي وردت في نص السؤال الخامس. (نلاحظ انّ لينين لا يتحدث عن عشية الثورة الاشتراكية،

بل عن عشية الثورة البروليتارية، وبين الاثنين فارق كبير ومهم جداً). ومع ذلك كان لينين يريد ان يجلب الانتباه إلى الحقائق التالية:

* ان بناء الاشتراكية، وهو يلي بطبيعة الحال الثورة الاجتماعية البروليتارية وتفصل بينهما فترة انتقالية طويلة من حيث الزمن وذات مهمات أخرى، يتطلب مستوى رفيعاً في تطور القوى المنتجة المادية والبشرية أعلى وأكثر تقدماً من مستوى تطورها في مرحلة الامبريالية حيث تهيمن رأسمالية الدولة الاحتكارية. أي ان المرحلة الاولى من البناء الاشتراكي تعتبر أعلى من أعلى مرحلة في الرأسمالية؛ أي ان بدء البناء الاشتراكي ينطلق من ويستند إلى أرفع مستوى بلغته الرأسمالية المتطورة، الامبريالية من حيث تطور القوى المنتجة والبنى الفوقية... الخ. وأؤكد هنا مرة أخرى على الفارق الكبير بين نجاح الثورة وبين البدء بالبناء الاشتراكي، حيث تفصل بينهما فترة زمنية طويلة ذات مهام كثيرة وتتم على مرحلتين، تتضمن الاولى انجاز مهمات الثورة الديمقراطية والثانية تتضمن مهمات مرحلة انتقالية تهدف إلى تهيئة الارضية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وعلى أسس انسانية وديمقراطية، لبناء الاشتراكية. وهي فترة يصعب تقدير مداها الزمني والاشكاليات التي تنشأ فيها بسبب التباين في مستويات تطور مختلف البلدان والظروف التي تعمل فيها والقوى التي تناضل من أجل انجاز تلك المهمات... الخ.

* وان هذا المستوى من التطور في القوى المنتجة يتطلب مستوى مناسباً له من علاقات الانتاج، أي الطابع الاجتماعي لهذه العلاقات؛

* وكلاهما يعني ويستوجب مستوى متطوراً في البناء الفوقي وبما ينسجم مع القاعدة الاقتصادية الجديدة، أي مستوى متطوراً وحديثاً في نظم التخطيط والادارة الاقتصادية والتنظيم الاجتماعي وتقسيم العمل الاجتماعي وفي الوعي الاجتماعي متقدماً على مثيله وبنيته في الامبريالية؛

* وكل ذلك يتطلب دوراً واعياً ومنظماً وديمقراطياً للجماهير الشعبية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، في النشاط الفكري والممارسة، ومستوى متقدماً للمعيشة وظروف العمل والانتاج وفي الحرية الشخصية وحقوق الانسان على مثيله في الدول الرأسمالية المتطورة.

ان ذكر هذه الحقائق لا يعني تعطيل القدرة الاجتماعية في هذا البلد أو ذاك إلى حين بلوغ هذه البلدان مرحلة الامبريالية ونضوج ظروف الثورة الاشتراكية وبالتالي البدء بالبناء الاشتراكي بعد تحقيق الانقلاب على الرأسمالية في أعلى مراحلها. لا اعتقد بأن مثل هذه الصورة كانت تدور في ذهن لينين كما انها لا تدور في اذهاننا اليوم. وكان المقصود في ذلك، كما أرى، ان على قيادة الثورة ان تعي طبيعة المرحلة ومهمات الثورة وتسعى إلى

الاستجابة لها وانجازها، وان تلعب دورها بالتعاون الحقيقي مع الجماهير الواسعة لتوفير مستلزمات البدء بالبناء الاشتراكي، بغض النظر عن السنوات التي تستغرقها تهيئة تلك المستلزمات.

ولكن ما حصل كان غير ذلك. فقد عمدت القيادة السوفييتية، وتحت وطأة عوامل عديدة ولكنها غير مبررة، إلى تسريع عمليات البناء وتحميل الشعوب السوفييتية اعباءاً ثقيلة تفوق طاقاتها الفعلية وتفت في عضدها. خاصة وان هذه البلاد قد تحملت مصاعب جمة وكوارث كثيرة في فترة زمنية قصيرة.

لقد كانت العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية غير مؤهلة للبناء الاشتراكي. ويجد هذا تفسيره في جملة من المؤشرات الاساسية التي أشرت اليها سابقاً.

هكذا أرى الأمور بالنسبة للاتحاد السوفييتي. أما بشأن جيكوسلوفاكياوالمانيا الديمقراطية فأرى القضية على نحو آخر. فهي ترتبط بالاوضاع التي سادت في اوربا في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبالخصائص الوطنية وغيرها التي تميز هذين البلدين.

ففي جيكوسلوفاكيا ومنطقة الاحتلال السوفييتي من المانيا ـ شرق المانيا ـ لعب الجيش السوفييتي دوره الرئيسي في إقامة النموذج السوفييتي للاشتراكية فيهما، لأن الحزبين الشيوعيين لم يصلا إلى السلطة بفعل ثورات أو انتفاضات شعبية محلية، ولا عبر انتخابات عامة وديمقراطية، بل مساعدة مباشرة من الجيش الأحمر وادارة الاحتلال في البلدين المحررين من الفاشية.

وكانت كل من جيكوسلوفاكيا والمانيا الديمقراطية، والأخيرة تأسست في ٧/ اكتوبر/ تشرين الثاني عام ١٩٤٩ وبعد ان كانت المانيا الاتحادية قد تأسست في سبتمبر/ ايلول من نفس العام. تتمتعان بمستوى اقتصادي ـ اجتماعي متقدم نسبياً قياساً لدول اوربا الشرقية الأخرى. إلاّ ان اقتصاد المانيا الديمقراطية كان قد دمرته المعارك الطاحنة ضد الجيوش الهتلرية من جهة، وبسبب الاعباء المادية الثقيلة التي التزمت هذه الدولة الفتية بدفعها إلى الاتحاد السوفييتي كتعويضات للخسائر التي الحقتها الحرب به بالنيابة عن المانيا كلها والتي بلغت عشرات المليارات من الماركات وعلى مدى سنوات طويلة.

وعمل الحزبان الحاكمان على نقل هذه التجربة إلى بلديهما دون الأخذ بنظر الاعتبار التمايز الكبير بين الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في بلديهما وفي الاتحاد السوفييتي. وقد جرى ذلك تحت تأثير الاعتقاد بالنموذج القدوة الذي تقدمه التجربة السوفييتية، والايمان بان الحزب الشيوعي السوفييتي يشكل مركز الحركة الشيوعية العالمية وهو الذي يتحمل قبل غيره مسؤولية استثنائية في تطوير النظرية واغناء الممارسة، والثقة المطلقة بأن الدولة الاولى التي انتصرت فيها الثورة الاشتراكية لا يمكن ان تخطيء!

وكم تبدو هذه اللوحه ساذجة وسطحية الآن، فقد كانت تسيطر على عقولنا وافئدتنا جميعاً.

ولا يجوز ترحيل القضية إلى العامل الخارجي، أي إلى النشاط الامبريالي. ولكن يجب ان لا ننسى ايضاً بأن الامبريالية لعبت دوراً خبيثاً، وهي ما تزال تلعب هذا الدور، في التامر على هذه البلدان والسعي للاطاحة بالنظم القائمة فيها، اضافة إلى استثمار جيد للاخطاء المرتكبة فيها. وخلاصة القول ان انهيار هذه النظم قد تم من الداخل وبدعم وأسع ومبادرة فعالة من جانب الجماهير الواسعة وبمشاركة فعلية ومباشرة من جانب كوادر واعضاء الاحزاب الحاكمة نفسها. ويبدو للمتتبع بوضوح ان الجماهير لم تكن تتطلع إلى الاطاحة التامة بهذه النظم، بل كانت تريد الخلاص من الاستبداد والدكتاتورية، تريد التمتع بالحريات الديمقراطية وبعض أهم حقوق الانسان، تريد تحسين اوضاعها المعاشية. إلّا ان وجهة تطور الاحداث وتقدير النتائج لم تكن عملية سهلة وغير ممكنة ايضاً، خاصة وان قيادات الاحزاب الحاكمة والحكومات فيها ابدت عدم استعدادها على فهم الجديد في الاوضاع الدولية والداخلية ورفضت تأمين مستلزمات التغيير المنشود، وأصرت على اساليبها في الحكم واحتكار السلطة.

● كيف تنعكس على البلدان النامية التحولات العاصفة في الاتحاد السوفييتي واوربا الشرقية وكذلك تطور الرأسمالية؟

ـ من المفيد العودة إلى الوراء قليلاً، إلى سياسات ومواقف الاحزاب الشيوعية والعمالية والعديد من القوى الديمقراطية الثورية في الدفاع المخلص عن الاتحاد السوفييتي وبلدان اوربا الشرقية والدعاية لتجربة ومنجزات «البناء الاشتراكي» فيها. وتركز الاعلام الشيوعي بوجه خاص على ابراز النجاحات التي تحققت في هذه البلدان. وهي والحق يقال لم تكن قليلة في فترات معينة وبدأت تنتكس وتتراجع فيما بعد، وعلى دور الاشتراكية في الغاء استغلال الانسان للانسان ومكافحة الأمية والبطالة وتطوير دور المرأة في المجتمع ومساواتها بالرجل، وفي حل المشكلات القومية على أساس مبادىء الاخوة والتعاون والمساواة والتضامن الاممي. كما اهتم هذا الاعلام بأبراز مواقف تلك البلدان في التضامن مع نضال شعوب بلدان العالم الثالث في سبيل الحرية والاستقلال والسيادة الوطنية، ومن أجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي. ولا شك في ان هذا الاعلام كان يتضمن في جوهره دفاعاً عن المثل الاشتراكية وعن احلام شعوب هذه البلدان بالعدالة الاجتماعية، وترويجاً لتلك المثل ودفاعاً عن النفس في مواجهة الاضطهاد والاستغلال الامبريالي والهيمنة الاستعمارية والحرب الباردة، وضد سياسات النظم الرجعية في بلدانها من جهة أخرى. وقد تجنب القسم الأعظم من تلك الاحزاب الاشارة إلى الاخطاء والنواقص والاخفاقات في نمط «الاشتراكية» السائد فيها. وقد جاء هذا السكوت نتيجة عوامل عدة من بينها الجهل

النسبي بالحقائق، رغم ان الجهل ليس حجة، أو عن وعي نسبي بها، ومن منطلق براغماتي خشية الاساءة لهذه التجربة الجديدة في العالم، أو ايذاء الطرف المناهض للامبريالية على النطاق الدولي.

لقد دأبت تلك الاحزاب على ادانة شديدة للامبريالية العالمية، وهي على كل الحق، وبتبشيع الرأسمالية وابراز تناقضاتها وطابعها الاستغلالي والعدواني من خلال الاشارة إلى الاوضاع التي تعيشها شعوب بلدان العالم الثالث التي تعرضت وما تزال لصيغ قاسية من الهيمنة والاستغلال. وأكدت على زيف الديمقراطية البرجوازية والاستغلال الذي تتعرض له الطبقة العاملة في الدول الرأسمالية المتطورة. وكانت في كل ذلك على حق تام. إلّا ان هذه الاحزاب، ومع الاسف الشديد، كانت في كتاباتها عموماً وحيدة الجانب، اذ تجنبت الاشارة إلى الظواهر الجديدة في تطور النظام الرأسمالي العالمي وفي تحقيق الثورة العلمية - التكنولوجية، وفي قدرة هذا النظام على استخدام منجزات هذه الثورة العظيمة لتطوير الاقتصادات الوطنية والحياة الاجتماعية في بلدانها. كما لم تتعرض بالشكل المناسب إلى قدرة الرأسمالية على التكيف والتجديد والتطور في مواجهة المصاعب والازمات التي تمر بها، وأكدت بشكل خاص على ازماتها المستعصية وعن قرب انهيارها وعلى الانتصار القريب للاشتراكية. وهكذا كان اتجاه النشر والاعلام. وكان في ذلك زيف كثير.

وهذا الخطأ أشاع روح التفاؤل غير المبرر بقدرات «الاشتراكية» القائمة وبعجز الرأسمالية. مما أدى إلى حصول احباط شديد واهتزاز لا مثيل له في الافكار والآراء والقناعات وفي المواقف بعد وقوع الاحداث الماثلة أمامنا والتي لم تنته بعد. خاصة وان الاعلام البرجوازي يبرهن هو الآخر عن فعالية كبيرة في الانتفاع من الاوضاع الجديدة لتكريس الاحباط وتعميق الشك بالجوهر الانساني والديمقراطي الرفيعين للاشتراكية. وهو درس ثمين يجب ان نستفيد منه في الحاضر والمستقبل. اذ تقع على عاتق القوى الاشتراكية مهمة التمييز الدقيق في اعلامها بين مبادىء ومثل الاشتراكية والديمقراطية ذات المضامين الانسانية العميقة، وبين تطبيقاتها المتباينة في هذا البلد أو ذاك.

ومع ان شعوب العالم الثالث قد اصطدمت بجملة من السياسات والمواقف التي أثارت القلق والشك ازاء بلدان اوربا الشرقية والاتحاد السوفييتي، وبخاصةً سكوتها عن جرائم الحكومات الدكتاتورية والرجعية ضد شعوبها وتجاوزاتها على حقوق الانسان والحريات الديمقراطية، فهي لم تصل إلى حد فقدان الثقة بمبادىء الاشتراكية ومثلها الرفيعة وطموحها في الخلاص من اوضاعها الراهنة. فشعوب هذه البلدان ما تزال تعيش اوضاعاً مزرية جداً. فالاستغلال الامبريالي والهيمنة المتعددة الجوانب والاضطهاد والقهر

الاجتماعي والسياسي وتخلف مستوى معيشة الغالبية العظمى من سكانها واتساع فجوة التخلف سنة بعد أخرى بالقياس إلى مستوى تطور الدول الرأسمالية المتطورة. هذه المظاهر وغيرها ما تزال تميز اوضاع هذه البلدان وبالتالي تسهم في فضح جوهر الرأسمالية وتحفز للنضال من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية. ويعتمد الأمر الآن على مدى قدرة هذه الاحزاب على انتهاج سياسة صائبة تساعد على استعادة ثقة الجماهير والمساهمة مع بقية القوى الوطنية والديمقراطية في النضال من أجل تلك الاهداف النبيلة

كيف نقيم مجرى عملية البريسترويكا في الاتحاد السوفييتي، وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على الاحزاب الشيوعية والعمالية في الاقطار العربية؟

ـ البريسترويكا جاءت متأخرة جداً. وهذا أحد العوامل الاساسية في ما تعانيه اليوم من تعقيدات ومصاعب جمة، فلو بدأت في الخمسينات أو الستينات مع النقد الصريح للستالينيه، وتواصلت لكان الوضع غير ما هو الآن. وكما يقول الجواهري الكبير ما اقبحها «لو»!، ويبدو ان العوامل التي حالت دون ذلك دات طبيعة موضوعية وذاتية متشابكة.

اجتماع نيسان عام ١٩٨٥ للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي يعتبر البداية الجدية لهذه العملية. لكن ارتكبت اخطاء كثيرة في توفير مستلزمات التغيير الثوري لأسباب منها عدم تخلص القيادة الملتزمة بمبادىء البريسترويكا من أساليب الماضي في التعامل مع الاحداث، أو في علاقتها بالقاعدة الحزبية وبالجماهير الشعبية وفي ممارستها للديمقراطية في الحياة الحزبية والسياسية وعلى مستوى الدولة ايضاً. ومثل هذه الاخطاء ترتكب حتى اليوم، سواء على صعيد العلاقات الاقتصادية الداخلية والدولية، أم على صعيد العلاقات بين القوميات والجمهوريات أم على صعيد العلاقات مع بلدان اوربا الشرقية أوحتى في إطار سبل معالجة مشكلات الامبريالية وبلدان العالم الثالث... الخ.

والهدف من وراء هذه الملاحظة هو التنبيه إلى ضرورة بذل أقصى الجهود لتأمين دراسات معمقة وواقعية للاوضاع التي يعيش فيها عالمنا المعاصر بكل تعقيداته وتناقضاته والتغيرات الطارئة عليه ووفق مضمون التفكير السياسي الجديد، بحيث نتجنب المطبات السياسية المؤذية في عمليات التغيير المنشود.

لقد عانت الاحزاب الشيوعية والعمالية في الاقطار العربية بنسب متفاوتة، وما يزال بعضها يعاني، من جمود عقائدي وتقلبات حادة في المواقف وعجز جدي عن المشاركة بالتطوير النظري وفي صياغة الاستنتاجات المناسبة لتشخيص اتجاهات التطور الموضوعية في ضوء المنهج العملي الذي التزمت به. لقد كانت قراءتنا للنظرية ذات طابع تعسفي اتسمت باحكام مسبقة وقوالب سعينا إلى حشو الواقع فيها، رغم الخصوصيات الثقافية

والروحية والحضارية والتاريخية المتباينة، ورغم التكوينات المتباينة لهذه المجتمعات. لقد كنا متلقين للافكار وجامدين في تفسيرها وممارستها. كما اننا لم نستخدم المنهج العلمي لوضع التجريدات أو التنظيرات التي تنسجم مع واقعنا العربي وآفاق تطوره.

وما تزال تواجهنا اشكاليات كبيرة وكثيرة تتطلب مواصلة الدراسة والاستقصاء، ثم وضع المعالجات المناسبة لها لا على أساس مواقف أو قضايا منفردة، بل وفق منظور عميق وشمولي لسياساتنا ونشاطاتنا الراهنة والمستقبلية، والتي ستتضمن بالضرورة تصحيح المواقف أو المسارات والسياسات الخاطئة أو غير المدققة وتنشيط المشاركة الجماعية للوصول إلى ذلك.

ويمكننا في هذا الصدد ايراد جملة من المسائل التي تستوجب الدراسة والتدقيق والمواقف الجديدة. وهي غير غائبة عن بال المشتغلين بالقضايا الفكرية والسياسية في الاقطار العربية مثلاً. ونشير هنا إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر: دور الشعب عموماً ودور كل طبقة وفئة اجتماعية بشكل خاص في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في هذه المرحلة من النضال الديمقراطي؛ طبيعة واتجاهات ومضامين التحالفات الوطنية في ضوء المهمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المنبثقة من واقع العلاقات القائمة حالياً و بالارتباط مع الاوضاع في المنطقة والعالم؛ العلاقة بين الاحزاب السياسية التي تسعى للتعبير عن مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية، وفي ضوء البرامج التي تتبناها والنشاط العملي لها؛ الموقف من القضايا الوطنية والقومية والدولية. وتطرح على هذه الاحزاب مهمات أخرى تستوجب بذل أقصى الجهود لدراستها مثل: الموقف من موضوعة الدور القيادي والطليعي للطبقة العاملة أو الاحزاب السياسية التي تسعى للتعبير عن مصالحها في هذه المرحلة والموقف من مفهوم دكتاتورية البروليتاريا، والموقف من مفهوم الطليعة ـ النخبوية ـ في بناء الاحزاب الشيوعية والعمالية في ضوء النتائج التي ترتبت على ممارستها لهذا المفهوم في العقود المنصرمة؛ الموقف من بناء احزاب جديدة متفتحة وديمقراطية وتستوعب اوساطاً واسعة، رغم سعيها إلى التعبير عن مصالح العمال والفلاحين... الخ؛ الموقف من المركزية الديمقراطية من الناحيتين النظرية والعملية في ضوء التجارب المنصرمة وواقع كونه حمّال أوجه عديدة في الممارسة العملية؛ الموقف من نشوء منابر عدة في هذا الحزب أو ذاك من الاحزاب الشيوعية بالارتباط مع تنوع الاجتهادات رغم الانطلاق من مواقع فكرية واحدة، وكيفية تحقيق الوحدة في إطار التنوع، الموقف من أساليب التنظيم الهرمية الراهنة وصيغ الهيئات القيادية وآليات دراسة وصياغة واصدار القرارات.

لقد نشر العديد من الاحزاب الشيوعية والعمالية ـ الماركسية ـ اللينينية ـ في الاقطار

العربية، بعد بروز ظاهرة البريسترويكا في الاتحاد السوفييتي، أو حتى قبلها، دراسات مهمة تؤكد ضرورة اجراء تغييرات نوعية في اتجاهات تفكير ونشاط هذه الاحزاب، منها على سبيل المثال لا الحصر الحزبان الشيوعيان في لبنان وفلسطين. والاحداث الراهنة تؤكد من جديد على الحاجة الملحة لاجراء مراجعة موضوعية لنظمها الداخلية وبرامجها الوطنية والسياسية وممارساتها التكتيكية وعلاقاتها الداخلية، ودورها وعلاقاتها مع الجماهير والاحزاب السياسية الاخرى، عدا الحاجة إلى مزيد من الحيوية والانفتاح الديمقراطي وممارسة ثقافة الحوار الديمقراطي، والاتسام بالتواضع والفهم الواقعي لاتجاهات تطور الاحداث. انها بحاجة إلى ذلك لأسباب عملية و ليس من منطلق التماثل مع ما يجري في الاتحاد السوفييتي. فتاريخ هذه الاحزاب مليء بالامجاد الثورية والمواقف البطولية والسياسات السليمة والنجاحات الموصوفة بالنضال ضد الهيمنة الاستعمارية وضد السياسات الرجعية ومصادرة حقوق الانسان، فيه الكثير مما يحق للشيوعيين ان يفخروا به ويعتزوا بنضالهم. وفي هذا التاريخ أيضاً جملة من السلبيات والاخطاء والنواقص، سواء أكان ذلك بصدد المنهج أو النشاط النظري أو الممارسة العملية، التي تستوجب التشخيص الدقيق والاعتراف الجريء بها، لا من منطلق الاساءة لهذه الاحزاب أو تسويد صفحاتها البيضاء أو جلد النفس، بل بهدف الافادة منها لقادم الايام.

هناك عدد من المسائل الملموسة في النظرية والممارسة التي اعتقد بانها تستوجب كل العناية في هذه الفترة والتي تستحق التغيير السريع والجريء. فحتى يومنا هذا تتضمن برامج احزابنا انها تمثل الطبقة العاملة وتعبر عن مصالحها الحيوية وتجسد ارادتها وطموحاتها، وانها تشكل طليعة الطبقة العاملة وقائد مسيرتها... الخ. وأرى في هذا الطرح تعسفاً شديداً. اذ تعتبر مثل هذه الصياغات وكأن الأمر مسلم به ولا غبار عليه، أمر بدهي لا يرتقي اليه الشك من قريب أو بعيد. إلّا ان تطور الاحداث في الاتحاد السوفييتي وفي بلدان اوربا الشرقية أو في غيرها يستوقف المرء بحزم عند هذه الموضوعة ويطرح عليه تساؤلات عادلة وكثيرة، لسنا في معرض مناقشتها. ولكن ما هو ثابت لي الآن هو ان أي حزب لا يمتلك حق الادعاء بتمثيله، دون غيره، لهذه الطبقة الاجتماعية أو تلك، أو الادعاء بتجسيد مصالحها واهدافها القريبة وذات المدى البعيد، وفرض الوصاية عليها، فمثل هذا الاطلاق ليس خاطئاً أساساً فحسب، بل وضاراً جداً. اذ ان من حق كل حزب ان يناضل من أجل احراز ثقة الطبقة العاملة به ولبرنامجه ونضاله، أو السعي للتعبير عن مصالح وطموحات هذه الطبقة في شعارات تجسد مهمات المرحلة الراهنة وفي نضالات تسمح بالالتفاف حوله. وبين الادعاء بالتمثيل والسعي من أجله فارق نوعي كبير من حيث الفكر والممارسة. وفي هذا المجرى لا تصبح مسألة التمثيل وكأنها تحصيل حاصل أو أمر

مثبوت فيه ، بل تعتبر عملية معقدة يناضل في سبيلها جميع الاحزاب القائمة في البلاد . وينطبق هذا الأمر على تبني الماركسية أيضاً. اذ لا يجوز لأي حزب ادعاء احتكار أو تبني الماركسية دون غيره أو فرض الوصاية عليها . وينطبق هذا الأمر على أي اتجاه فكري أو نظري . فالنظريات والافكار تعتبر تراث البشرية المشترك ومن حق كل حزب الأخذ بها وتبنيها . وتتركز عند ذاك المحاججة على قدرة هذا الحزب أو ذاك على افادته من هذه النظرية أو تلك ، أو قدرته على تطويرها واغنائها وممارستها بشكل خلاق . والنتائج هي المحك العملي للحكم على الأمور .

لنأخذ مسألة أخرى . . كالعلاقة بين الوطني أو القومي والاممي . لقد كنا نؤكد باستمرار بأن الاحزاب الشيوعية والعمالية تسعى باستمرار للتوفيق بين ما هو وطني أو قومي واممي . وفي حالة تعذر التوفيق فالمفاضلة تكون للجانب الاممي . ولم نكن نبحث في الاضرار التي تنجم عن مثل هذا الموقف بالنسبة للمصالح الوطنية والقومية . وفي هذا الواقع للمسألة يبرز الخلل المبدأي . فالاحزاب الشيوعية تعتبر احزاباً سياسية وطنية وقومية غير متعصبة ، ولكنها في الوقت نفسه ذات مفاهيم وأبعاد ومضامين أممية . وبهذا المعنى فهي ليست احزاباً كوسموبوليتية تتنكر للطابع الوطني أو القومي أو تلغي من اهتماماتها الخصائص والمهمات الوطنية بحجة الاممية . فالتناقض الذي يحصل بين الوطني أو القومي والاممي يجب ان يحل لصالح الوطني ، في حالة العجز عن توفير التوافق بينهما ، اذ عبر انجاز المهمات الوطنية تخدم تحقيق المهمات ذات الطابع الاممي أو الدولي ، تخدم القضايا الاممية التي تمس مصالح البروليتاريا على النطاق الدولي ، أو مصالح البشرية بأسرها .

ان هذا القول لا يتعارض مع اعترافنا بوجود قضايا أو قيم انسانية عامة ، مثل قضايا الامن والسلام في العالم أو قضايا البيئة وحمايتها ، أو قضايا الديمقراطية وحقوق الانسان ، أو الموقف من النزاعات الاقليمية والقومية التي يجب حلها بالطرق السلمية ، التي يجب ان لا توضع في تعارض مع القيم الانسانية الوطنية أو القومية . وفي هذه الحالة لا يحصل أي تقاطع أو تعارض بل سنجد باستمرار المعادلة السليمة التي تجمع بين المعيارين . وينطبق هذا الأمر على العلاقة بين المصالح الوطنية والطبقية . اذ ان المهمة تتلخص في تحقيق التوافق بين المصالح الوطنية والطبقية . وهي نسبية في كل مرحلة من مراحل تطور العملية الثورية . وعند التعارض وفي كل المراحل ، فلابد للمرء ان يأخذ بالاعتبار ما هو شمولي وعام ، أي ان يقدم الوطني الذي يمس الشعب كله على ما هو طبقي .

ان اعادة النظر في مثل هذه القضايا ودراستها على أرض الواقع ووفق المنهج العلمي والتراث والتقاليد والخصائص الوطنية والثقافية والنفسية والخبرة التاريخية ، والأخذ بالاعتبار

امكانيات وطاقات الجماهير النضالية ومزاجها، ستساعد على وضع برامج جديدة وممارسة أساليب أكثر فاعلية في النضال. ويمس هذا الأمر بالدرجة الاولى مهمات المرحلة الراهنة، مرحلة الديمقراطية والتقدم الاجتماعي. تلك المهمات التي تتركز حول اشاعة الديمقراطية وحقوق الانسان واقامة دولة القانون وسيادة الدستور وممارسة حياة برلمانية حرة وارساء أسس العدالة الاجتماعية. وضمان حقوق القوميات والاقليات القومية، وتكريس أسس علاقات ديمقراطية وانسانية بين الشعوب والدول، والنضال في سبيل سيادة الامن والاستقرار والسلام في المنطقة والعالم. كما يمس هذا الأمر التحري عن حلول عملية للمشكلات والنزاعات التي تعصف اليوم في المنطقة، وبخاصة قضية الشعب الفلسطيني العادلة، وحالة اللاحرب واللاسلم بين العراق وايران، والواقع المأساوي للصراعات الدموية في لبنان. . . الخ، وكذلك ايجاد الصيغة العملية لوضع حد لسباق التسلح المتعاظم والمتنوع في منطقة الشرق الاوسط. فالمنطقة تملك اليوم السلاح النووي والاسلحة الكيمياوية والجرثومية، اضافة إلى ترسانات رهيبة من الاسلحة التقليدية الحديثة واعداد هائلة من المجندين. وتصرف سنوياً المليارات من الدولارات على التسلح. وتلعب النزعة التوسعية والعدوانية لدى الفئات الحاكمة في اسرائيل، ورفضها ايجاد حل سلمي وعادل لقضية الشعب الفلسطيني في العودة وتقرير المصير واقامة دولته الوطنية المستقلة على ارضه، واصرارها على استمرار احتلالها للاراضي العربية في سوريا ولبنان، اضافة إلى اراضي الضفة الغربية وغزة، وأخيراً اسكانها المهاجرين الجدد من يهود الاتحاد السوفييتي في الاراضي الفلسطينية المحتلة، دوراً أساسياً في استمرار عدم الاستقرار وسباق التسلح المتفاقم.

وتواجه الاحزاب والقوى الوطنية والقومية في الاقطار العربية، بما فيها الاحزاب الشيوعية والعمالية، قضايا أخرى مهمة، بل تزداد أهميتها اليوم بالارتباط مع التغيرات والتطورات الجديدة الجارية على الساحة السياسية الدولية، وفي منجزات الثورة العلمية ـ التكنولوجية على النطاق الدولي. فالتنسيق والتكامل الاقتصادي العربي، أي تعريب الانتاج ورؤوس الاموال والاسواق وانتقال الايدي العاملة، وبتعبير آخر، كافة مراحل عملية اعادة البناء، يصبح اليوم حاجة ملحة ويحتاج إلى موقف فكري ـ نظري وممارسة عملية. وهكذا الأمر بالنسبة للقضايا الأخرى التي تمس اقطارنا العربية والعالم الذي من حولنا.

برلين ٢٤/٤/١٩٩٠



النظام الداخلي لحزب الطليعة الاشتراكية

التعديلات التي ادخلها المؤتمر على قوانين الحزب

حتى تسهل قراءة التغييرات المصادق عليها من طرف المؤتمر، اعيدت كتابة الفقرات المعنية بهذه التعديلات. التعديلات نفسها: مسطّر عليها (تحتها خط - ث ج) في النص.

(مدخل)

يعد حزب الطليعة الاشتراكية جمعية ذات طابع سياسي لنساء ورجال متساوين في الحقوق ويناضلون من أجل مصالح شعبنا على أساس مباديء الاشتراكية العلمية **والماركسية - الليتينية واثرائها** (. . .).

يحدد اهدافه من أجل تحقيق **مجتمع عصري، ديمقراطي، تعددي، انساني،** ينبذ **استغلال الانسان للانسان: المجتمع الاشتراكي.**

يعمل حزب الطليعة من أجل تحقيق التحالف الاستراتيجي بين الطبقة العاملة والفلاحين الكادحين **والانتليجانسيا الديمقراطية** ويدافع باستمرار في بلادنا وفي وسط جاليتنا المغتربة عن المصالح الآنية والاساسية لكل العمال، يدويين كانوا أم ذهنيين، ويأخذ بعين الاعتبار كما هو محدد في المقررة السياسية **الايديولوجية**، مصالح الطبقات والفئات التقدمية من وجهة نظر تاريخية (. . .). . .

المساواة الحقيقية في الحقوق بين المرأة والرجل التي تعد شرطاً أساسياً لتشييد مجتمع عصري وانساني.

يدافع عن كرامة وأمن جاليتنا المغتربة وحقها في العودة.

(. . .)

الاعتراف باللغة الامازيغية كلغة وطنية مع تطويرها وعصرنتها **وتدريسها.**

- المساواة الحقيقية في الحقوق لكل الاقليات، خاصة في المناطق الجنوبية للبلاد.

المشاركة النشيطة في النضال ضد الامبريالية، في الدفاع عن السلم في المنطقة وفي العالم العربي وفي افريقيا وفي العالم كله. وفي نسج علاقات ديمقراطية دولية من أجل بناء عالم يسوده السلام والتضامن. والهدف الاساسي من هذه العملية يكمن في التدخل من أجل حلول سلمية للنزاعات الجهوية وحلول المشاكل الشاملة (المجاعة، الامراض، الامية، تضرر البيئة، المديونية الخارجية. . .) يندرج هذا العمل كليةً في المتطلبات التي تعبر عنها الشعوب في الاستقلال وفي التطور الاجتماعي والاقتصادي وفي الديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

المادة ١ :

يمكن ان ينخرط في حزب الطليعة الاشتراكية كل جزائرية أوجزائري بلغ سن الرشد ويقبل برنامجه وقوانينه، ووافق على أهدافه الاساسية. وانضم لاحدى تنظيماته القاعدية، أي يلتزم بالنضال مع دفع اشتراكاته المالية بطريقة منتظمة. المناضل في حزب الطليعة الاشتراكية لا يمكن له الانتماء إلى أي حزب سياسي آخر.

يمكن لمناضل حزب الطليعة الاشتراكية في المهجر ان يقدم مساهمته النضالية لنشاطات الجمعيات والتنظيمات التقدمية.

وكل من تعاون مع العدو أثناء حرب التحرير الوطنية لا يمكن له الانخراط في صفوف حزب الطليعة الاشتراكية.

يتم قبول المنخرطين الجدد في إطار الخلية، وتتم الموافقة على الانخراط من طرف جمعية (الاجتماع الكامل لـ) الخلية كما يتم اعلام الفرع بالانخراطات الجديدة.

المادة ٢ :

يعتبر عضواً في الحزب، كل منخرط يُزكى من طرف هيكل قاعدي (هيئة قاعدية - ث جـ) بعد مدة لا تتجاوز ستة أشهر.

المادة ٣ : حقوق كل عضو في الحزب.

- التعبير بكل حرية عن رأيه في إطار هياكل الحزب حول كل القضايا المتعلقة به (بالحزب) والمساهمة في انجاز سياسته وحسن نشاطه وحتى بالتوجه للهياكل القيادية المفروض عليها اتخاذ القرار.
- ان يُعلم بانتظام بنشاطات الحزب، خاصة المتعلقة بالمنظمة التي ينتمي اليها.
- ان يعرّف برأيه ووجهة نظره خاصة في النقاشات المفتوحة داخل الحزب.
- ان يكون ناخباً ومنتخباً في هياكل الحزب طبقاً للمواد والكيفيات التي تنص عليها القوانين.
- معرفة كل الانتقادات والملاحظات التي تهمه.

ـ ممارسة حق الطعن لدى الهيئات المختصة.

ـ يستفيد من الحق في التكوين (الاعداد الحزبي ـ ث جـ ـ).

المادة ٤ : واجبات كل عضو تجاه الحزب

ـ ان يشارك بانتظام في اجتماعات خليته والمساهمة في وضع سياسة الحزب وتطبيق القرارات المتخذة وتدعيم صفوف الحزب بصفة دائمة.

ـ ان يكون نشيطاً في الدفاع عن مصالح العمال وكل الجماهير الشعبية والتعريف بالبرنامج والسياسة والحلول المقترحة من طرف الحزب التي يجب الدفاع عليها في كل الحالات . . .

ـ ان يكون منخرطاً في منظمة جماهيرية أو جمعية إلا في حالات استثنائية بموافقة الخلية. ويناضل في إطار احترام القانون والطابع الخاص للمنظمة أو الجمعية المعنية.

ـ ان يجتهد للرفع من معارفه العامة ومستواه النظري.

ـ ان يحترم بوفاء قواعد الديمقراطية والانضباط المفروض على كل الاعضاء.

المادة ٦ :

تعد المركزية الديمقراطية نمطاً لتسيير الحزب ووسيلة لخدمة المصالح الراهنة والمستقبلية للطبقة العاملة العصرية وحلفائها.

شهدت المركزية الديمقراطية تأثير الظروف التاريخية الملموسة التي طبقت فيها.

ان محتوى المركزية الديمقراطية غير جامد.

ـ التسليم بالمركزية الديمقراطية يعني العمل على الوحدة الديمقراطية للحزب، واعطاءه طابعاً عصرياً، ثورياً، ديمقراطياً وانسانياً، هذا يستلزم بذل جهود مستمرة في اتجاهين :

تدعيم حقوق المناضلين بتعميق التسيير الديمقراطي وضرورة تأمين توجيه استراتيجي واحد، وقيادة مركزية واحدة للحزب.

ان مبادىء المركزية الديمقراطية هي :

ـ حق كل أعضاء الحزب في الاعلام بواسطة التطوير المتعدد الاشكال للاتصال داخل الحزب.

ـ مناقشة كل المشاكل بصفة حرة على كل المستويات بالارتكاز على المبادىء المتفق عليها من طرف أعضاء الحزب أثناء الانخراط.

ـ كل عضو في الحزب، مع تطبيقه لقرارات الاغلبية، له الحق بالاحتفاظ والدفاع عن وجهة نظره في إطار الهياكل النظامية ومنابر النقاش المفتوحة من طرف الحزب.

ـ ان التنظيم والعمل الانقسامي لجماعة منظمة لها برنامجها ونشاطها وقيادتها

الخاصة تعد ممنوعة لكونها تخرب وحدة الحزب وتضر بفعالية عمله.

- تُنتخب كل الهيئات القيادية على مختلف المستويات ديمقراطياً من طرف جمعيات الخلايا وندوات الفروع والفيدراليات والمؤتمرات. **فكل منتخب أو هيكل للحزب يمكن تنحيته من طرف الجمعية العامة التي انتخبته طبقاً للنظام الداخلي.**

ان نشاط الهيئات القيادية مؤسسة على قواعد القيادة الجماعية التي يجب ان تكون فعالة بواسطة اتخاذ القرارات الضرورية بالاغلبية والاجراءات لتطبيقها بصفة سليمة. فالقيادة الجماعية لا تنفي بل تستلزم المسؤولية الفردية لكل مسؤول، **كما يجب ان تُشجع من طرف كل عضو قيادي الذي عليه ان يكون مثالاً لذلك.**

- ان القيادات المنتخبة مسؤولة أمام منتخبيها فعليها ان تقدم تقارير عن نشاطها بصفة منتظمة وعلى أساس الانتداب التي انتخبت من أجله.

- ان الهيئات القاعدية، على المستويات الوسيطية ملتزمة بتطبيق قرارات الهيئات القيادية المركزية مع الاستفادة من حقها في الحفاظ والدفاع عن آرائها.

- يمارس مبدأ النقد والنقد الذاتي بحرية وبدون اعتبارات شخصية للافراد والسلم التصاعدي.

المادة ٨:

أي خرق عمدي لمبادىء وسياسة وقواعد تسيير ذلك الحزب أو سلوكات خطيرة يمكن ان تنجر عنها انعكاسات سلبية تعرض صاحبها لعقوبات.

ان الطرد من صلاحيات اللجنة المركزية وحدها.

المادة ١٣:

الهيئة العليا للخلية هي الجمعية العامة للخلية الذي تنتخب مكتبها في كل عام، ويحدد المكتب مهمة اعضائه، ويحضر اجتماعات الخلية ويساهم في العمل الجماعي لكل اعضائها، **فالمكتب مسؤول أمام جمعية الخلية.**

المادة ١٤.

من واجب عضو الحزب العامل في مؤسسة - إلا في حالة استثنائية - النشاط في خلية مؤسسته، ويساهم في خلق خلية المؤسسة في حالة انعدامها، وعليه في حدود امكانيته الاهتمام بنشاط الخلية المحلية أو الريفية أو خلية مكان اقامته مع تقديم مساعدته. **في هذه الحالة تكون مساهمته استشارية ولا يتمتع فيها بحث التصويت..**

المادة ٢٧:

ينتخب المجلس الفيدرالي من بين اعضائه **المكتب الفيدرالي ومنسقاً** لا تقل مدة عضويته في الحزب عن **٥ سنوات**، ويمكن قبول الاستثناءات من طرف اللجنة المركزية.

- يحدد المكتب الفيدرالي تقسيم المهام بين اعضائه.

المادة ٣٣ :

تنتخب اللجنة المركزية مكتباً سياسياً. **يمكن للجنة المركزية ايضاً ان تنتخب من بين اعضائها عضواً شرفياً أو أكثر في المكتب السياسي تكون لهم صفة استشارية.**

يطبق المكتب السياسي قرارات اللجنة المركزية ويسيّر الحزب بين دورتي اللجنة المركزية.

- على المكتب السياسي ان يقدم عرضاً عن نشاطاته للجنة المركزية، وعليه ايضاً ان ينتظم ليضمن مواصلة تنسيق العمل اليومي.

- يحدد المكتب السياسي توزيع المهام بين أعضائه وينتخب منسقاً.

- تدرس اللجنة المركزية مرة خلال كل سنة على الأقل، النشاط الجماعي والفردي لاعضاء المكتب السياسي، وتتخذ الاجراءات اللازمة.

- تنتخب اللجنة المركزية من بين اعضائها لجنة مركزية للمراقبة السياسية ومكلفة بتشجيع بروز إطارات الحزب وتكوينهم ومتابعتهم، والنظر في الشكاوى المقدمة من طرف أعضاء الحزب والمرتبطة باسباب مختلفة.

- تقرر اللجنة المركزية تنظيم عملها ودورية جمعياتها، وعددها، ومهام مجموعات العمل. هذه القرارات تكون موضوع نظام داخلي للجنة المركزية.

- يمكن للمكتب السياسي المطالبة باجتماع طارىء للجنة المركزية مع تقديم جدول الأعمال المقترح للاعضاء

المادة ٣٥ :

توصيات واقتراحات الندوة الوطنية، تصبح قرارات سارية المفعول بعد المصادقة عليها من طرف اللجنة المركزية. **وفي حالة عدم المصادقة، تقدم اللجنة المركزية للحزب الاستفسارات الضرورية.**

المادة ٣٨ :

ينتخب المؤتمر لجنة تكلف بجمع الترشيحات ودراستها، كذلك الشأن بالنسبة للجمعية الانتخابية الفيدرالية (المنطقية - ث جـ) **هذا مع مراجعة التحقق من مطابقتها للاجراءات القانونية.**

المادة ٣٩ :

يقوم الحزب بعمله في صفوف الجماهير وبصفة مباشرة لتمرير (لنشر ث - جـ) أفكاره وانتقاء عناصر جديدة والتنظيم والتجنيد في ومن أجل العمل الجماهيري في سياق التقدم التاريخي.



تجديد الايديولوجيا وايديولوجيا التجديد*

جورجي شاخنازاروف**   ترجمة: فاضل جتكر

في زحمة النقاشات الدائرة في الاتحاد السوفييتي حول البريسترويكا يبرز سؤال أيهما يتقدم على الآخر: الاقتصاد أم السياسة؟ الايديولوجيا أم المشكلات التي تعاني منها العلاقات القومية؟ قضايا الراهن الملحة أم مسائل المستقبل؟

أعتقد ان مسار البريسترويكا وحصيلتها يتوقفان على مدى نجاحنا الآن، ونحن نقوم بتنفيذ هذه الثورة، على صياغة ايديولوجيتها. فمع الاعتراف الكامل بالدور الأساسي للاقتصاد والسياسة في الأمور الانسانية، علينا ان نعترف ان الايديولوجيا تحتل اليوم مركز الصدارة في سلم اولويات الحياة الاجتماعية. وهذه مسألة أكبر من احداث تغيير ما في النظام السياسي القائم في الاتحاد السوفييتي. فالشعب السوفييتي يعيش ا لآن منعطفاً تاريخيا اذ ينتقل من منظومة للقيم الاجتماعية إلى أخرى.

إن السلطة والادارة المنظمتين تنظيماً عقلانياً ضروريتان على الدوام. ولكن أية منهما لن تكون ناجحة أو فعالة اذا فقد المجتمع الايمان، أو حتى بدأ يثير التساؤلات حول قيمة مثله العليا، ويبحث عنها في الماضي أو في المستقبل.

ويدور النقاش أيضاً، وإن لم يكن بصورة واضحة في كل الأحيان، حول قضية «تجديد الايديولوجيا أو ايديولوجية التجديد». هل ينبغي لنا ان نكتفي باجراء تجديد عميق للايديولوجيا القائمة، بما يجعلها منسجمة مع وقائع الزمن الحالي ومتطلباته، أم ان علينا ان نبدع ايديولوجيا جديدة ترقى إلى المستوى الراهن للوعي العلمي والاجتماعي، وتتفق

مع روح العصر؟ إنه لسؤال حاسم وتستحيل الاجابة عنه ـ مارلم نحض في المدرسة الميتة ـ دون تحليل نقدي للوضع في الميدان الايديولوجي، دون سبر جوهر التحولات الجارية وآفاقها.

تعريف الايديولوجيا

يقول التعريف الدارج في الأدبيات العلمية السوفييتية للايديولوجيا بأنها منظومة آراء وأفكار حول مواقف الناس من الواقع ومن بعضهم البعض، من المشكلات والصراعات الاجتماعية، وحول اهداف (برامج) النشاط الاجتماعي الذي يرمي إلى تعزيز أو ترسيخ علاقات اجتماعية معينة أو إلى تغيير هذه العلاقات (تطويرها). والايديولوجيا في أي مجتمع هي دوما ايديولوجيا ذات قاعدة طبقية.

دعونا نحدد ان طبيعة الايديولوجيا ورسالتها تقرران سلفاً «التزامها الاجتماعي» غير أن الايديولوجيا لا تعكس بالضرورة مصالح خاصة بطبقات معينة. فهناك ايديولوجيات قومية وأخرى دينية... والخ. وبالتالي يكون من الأنسب ان نتحدث عن الطابع الاجتماعي للايديولوجيا. إن مصلحة الشريحة التي تخدمها الايديولوجيا تغدو نقطة انطلاقها، وتصبح معيار تقويم الظواهر كلها. فكل فكرة تخدم مصلحة محددة تفترض مسبقاً ان عليها ان تتبنى وجهة نظر منحازة فيما يخص العالم المحيط. انها تتخذ موقف التسامح وسعة الصدر بل والقبول من جميع ما من شأنه تسويغ هذه المصلحة وتدعيمها، وتنبذ بل وتدين كل ما من شأنه ان يتعارض معها.

ولعل أصدق وأشمل تعبير عن هذا التأكيد الذاتي لنمصلحتها نجده في ادعائها صفة الشمول والكلية. كثيراً ما تم اقتباس العبارة التالية من مؤلف ماركس وانجلز «العائلة المقدسة» في الأدبيات السوفييتية: «لقد مسخت (الفكرة) نفسها بمقدار ما اختلفت عن (الواقع)». غير ان أحدا لم ينتبه، أكثر الاحيان، إلى الفكر الغني بالمعاني الكامن في العبارة التي تلي ذلك المقتبس مباشرة، وهي العبارة التي تقول: «ومن جهة أخرى، من السهل ان نفهم أن أية (مصلحة) ذات نمط جماهيري تؤكد ذاتها تاريخيا تتجاوز كثيرا حدودها الفعلية في (الفكرة أو (الخيال) حين تبرز للمرة الأولى على الساحة وتختلط بالمصلحة الانسانية العامة» [1].

لابد لنا من رؤية هذه الصفة التي تتصف بها أية ايديولوجيا حتى ننأى بانفسنا عن الوقوع في خطأ الخلط بينها وبين العلم. فالايديولوجيا هي دوما منحازة في حين ان العلم محايد وبعيد عن الانحياز. أو يجب ان يكون كذلك على أية حال. إن رسالة العلم هي

البحث عن الحقيقة بصرف النظر عمن سيستفيد من هذه الحقيقة، ليس مضطرا لأن يتلاءم مع أهواء كائن من كان وأمزجته. وانتهاك هذا القانون الذي يقوم عليه العلم يعني انحطاط المعرفة العلمية وابتذالها. يشهد التاريخ بأن محاولات غير قليلة بُذلت لافساد العمل العلمي، لجعله خادماً لمصلحة خاصة أنانية معينة. غير ان النتيجة التي اقترنت بها تلك المحاولات كلها كانت محزنة وكارثية. فعملية الاخضاع لأية سلطة أو قوة دنيوية علمانية أو روحية تكون مدمّرة للعلم. يجب على العلم أن يبقى مستقلاً، أو يظل معبراً فقط عن المتطلبات الانسانية العامة.

قد يُطرح سؤال: وماذا عن مبدأ حزبية العلم؟ هل ينطوي على الأدلجة الحتمية للمعرفة العلمية؟ لا مجال للنقاش حول هذا الأمر. إن قدرا معيناً من الانحياز الايديولوجي أمر محتوم. من المستحيل وجود «علوم نقية صافية» بعيدة عن كل ما هو انساني. غير أن هذا لا يشكل عائقا يستحيل التغلب عليه أمام البحث عن الحقيقة.

خلّف القرن التاسع عشر للقرن العشرين عدداً من الايديولوجيات التي زعمت لنفسها صفات التماسك والكمال وامتلاك الحقيقة غير القابلة للنقاش. وبما أن جميع الايديولوجيات تبقى لا شيء ما لم يتم تطبيقها عملياً، فان هاجسها الأول هو النفاذ إلى المجتمع والاندماج به. والايديولوجيا التي تنجح في هذا الأمر تكسب قوة وهذا يحسم سلفاً أمر انحطاطها اللاحق. فكلما كان عدد الناس المأخوذين بايديولوجيا معينة أكبر كلما اصبحت هذه الايديولوجيا أقل قدرة على التطور، لأنها تتبنى العقلية المتوسطة للجماهير وتفقد تدريجياً زخمها العلمي الأولي. يمكن القول ان الاتجاه العام للايديولوجيات هو السير من كونها على مستوى عال من العلمية، إلى صيرورتها على درجة عالية من النزعة «الدينية» بسبب الانحدار إلى المعدل المتوسط وتحت تأثير الذهنية المبتذلة للجماهير. ربما كانت الايديولوجيات كلها محكومة بالانتقال من العلم إلى الايمان؛ وبكلمات أخرى، تتميز الاديولوجيات بسمة القيمة الضائعة أو المتناقصة. وهذه السيرورة يمكن وصفها بالعبارة التالية: «أدلجة الايديولوجيا» بصورة مضطردة.

ثمة قاعدة أخرى: كلما فقدت الايديولوجيا زخمها العلمي، صارت أكثر نزوعاً نحو عدم التسامح مع أي نمط آخر من التفكير، متخذة طابعا منغلقا، تخدمها جماعة من الناس الذين يحولونها إلى تجارة رابحة. إن كل ايديولوجية تفرّخ بيروقراطيتها الخاصة التي تعتاش منها، وبالتالي تحاول ادامة بقائها مهما كان الثمن من خلال تغطية عيوبها وكيل المديح لانجازاتها. أما ساحة المصالح الاجتماعية التي تخدمها فتكون، كقاعدة، واسعة تماماً في البداية، غير أنها تضيق بصورة مضطردة. أما مدى انحيازها المتأصل فيزاد بصورة متوازية. وبقدر أكبر أو أقل تغدو النواقص الجزئية الناجمة عن الانحياز في تصور العالم

المحيط تشويهاً كاملاً لهذا العالم. إن صورة وهمية يتم رسمها وفرضها على الواقع الفعلي، بل والأسوأ من ذلك، يتم زرعها في عقول الناس.

ما الذي أوصل المجتمع السوفييتي إلى أزمة عميقة وأدى إلى ضرورة اعادة بنائه بصورة ثورية؟ لدى الاجابة عن هذا السؤال يشير البعض إلى جملة من الظروف الداخلية والخارجية المعقدة التي تطور النظام الجديد محاطا بها، إلى الصراع على السلطة بعد موت لينين، إلى الاخطاء المرتكبة في مراحل مختلفة من بناء الاشتراكية، إلى الشويهات المرتبطة باالنظام التسلطي ـ البيروقراطي. إلى عبادة شخصية ستالين، والخ... نادرا ما يرد أي ذكر لما أراه المصدر الرئيس للتطورات السلبية ـ أعني النزعة الطوباوية التي كانت مسيطرة على عقول الناس الذين كانوا يشكلون حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي (الحزب الشيوعي السوفييتي فيما بعد) ويتولون قيادته بعد ثورة اكتوبر. ان نشاط هؤلاء النظري والعملي كان مرتكزا على الاقناع بامكانية بناء مجتمع جديد استنادا إلى الخطط والمشاريع المرسومة على الورق. غير أن ما من شيء، كما هو معروف، أخطر من الثقة المتعصبة والمتزمتة بصواب عقيدة أو مذهب معين، بصرف النظر عن مدى توفر الأدلة التي تثبت النقيض في الحياة الواقعية.

لا يمكن لوم النظرية الماركسية على مثل هذا التعصب أو التزمت. فمؤسسوها لم يؤمنوا بأن الفكرة نفسها قادرة على خلق عالم جديد. لقد كان أساس نظريتهم قائماً على الفكرة القائلة بالنضج الموضوعي لظروف انتصار الاشتراكية ـ مما وفر امكانية الحديث عنها بوصفها علماً بدلاً من ان تكون أحلاماً طوباوية. وعلى المستوى العملي كان الاتجاه الاشتراكي الديمقراطي في حركة الطبقة العاملة يتميز بنظرة متعقّلة عميقة وبالقدرة على رسم استراتيجيته وتكتيكه على أساس تحليل واقع اجتماعي متغير دائماً، لا على قاعدة مخططات نظرية مجردة ما. فالأممية الأولى التي أسسها ماركس وانجلز فعلت ذلك، بالتحديد، حين بادرت إلى نبذ محاولات الفوضويين الرامية إلى اغراء الطبقة العاملة بالطريق المغامر المفضي إلى استلام السلطة قبل أن تنضج الظروف. وإلى توجيه النقد إلى الثوريين المتطرفين الذين كانوا يعدون بنقل البشرية من الجحيم الرأسمالي إلى الفردوس الشيوعي بضربة واحدة.

إلا أن علينا إن نعترف بأن الماركسية كانت تحتوي على بذور تكلسها اللاحق. فلدى الماركسيين الجدد والداعين إلى ما بعد الماركسية أسباب وجيهة لتلمس جملة من المفارقات والتناقضات في آراء ماركس الشاب وماركس الناضج. غير أن أحكام هؤلاء تعرضت للشجب في الاتحاد السوفييتي. ففي «الايديولوجيا الالمانية» وغيرها من المؤلفات المبكرة انتقد ماركس المزاعم القائلة بأن جملة الافكار التي تعكس مصالح فئة اجتماعية

محددة من شأنها ان تعبر عن المصالح القومية العامة بل والانسانية الشاملة. ولكن هذه الشكوك تلاشت فيما بعد. فبعد قيام مؤسسي الماركسية بانجاز مهمة خلق منظومة الافكار الخاصة بهما والتي تعبر عن مصالح البروليتاريا الصناعية، بادرا إلى اسباغ صفة المصداقية الشاملة عليها بحجة ان مهمة هذه الطبقة تكمن في تحرر المجتمع كله من قيود رأس المال. ورأيا البرهان الأول على صحة هذا الكلام في كومونة باريس عام ١٨٧١. وبالتالي فان ثورة اكتوبر ١٩١٧ اعتبرت البرهان القاطع والحاسم على ان النظرية الماركسية معصومة عن الخطأ.

صحيح أن مجريات الاحداث سرعان ما أظهرت الطبيعة الطوباوية للمخططات القائمة على التطبيق الفوري لاسلوب التبادل المباشر للمنتجات وعلى التخلي عن الجيش المحترف. فحين واجه الواقع بادر لينين إلى الاجهاز على مثل هذه الاوهام بحزم وصرامة. واستطاع، استنادا إلى نفوذه الكامل ومرجعيته غير المنقوصة، ان يجبر زملاءه على اعادة النظر في آرائهم حول الاشتراكية.

ولكن هذا لم يكفِ للأسف. فجاذبية النزعة الطوباوية كانت على درجة من القوة جعلت الحزب الشيوعي السوفييتي وقيادته عاجزين عن مقاومة اغراء الطريق المهلك القائم على وضع العديد من الافكار والآراء الزائفة والمضلِّلة موضع التطبيق. بالفعل لا نستطيع ان نأخذ مأخذ الجد تلك المحاولات التي يبذلها بعض الكتّاب السياسيين والفنانين السوفييت لاعتبار ان جميع المآسي التي حصلت في هذه البلاد يكمن سببها فقط في جلافة ستالين المؤكدة. لا شك ان شخصية أي حاكم تلعب دوراً كبيراً في التاريخ العالمي. غير أن ما هو أهم من ذلك بكثير هو حقيقة أن ستالين كان مدمناً ادماناً متزمتاً ومتعصباً على فكرة اشتراكية مشوهة وزائفة. ألم يحصل الشيء نفسه لماوتسي تونغ حين اختار ان يمنّ على المجتمع الصيني بثورته الثقافية؟

إن التزمت أو التعصب الذي رافق ترجمة الأفكار الطوباوية إلى لغة الحياة أدى إلى تخدير الرأي العام. وكانت عملية الأدلجة الكاملة والشاملة لسائر جوانب الحياة الاجتماعية هي النتيجة. فأية كلمة وأي عمل لم يكونا يقاسان بمدى فائدتهما العملية بل بمدى «نقاوتهما الايديولوجية»، مع تحويل النظرية إلى نص مقدس.

صارت الايديولوجيا تشمل ليس العلوم فقط بل والفنون التي اصبحت وظيفتها الرئيسة خدمة افكار مجردة لا عكس الواقع بطريقة فنية. أما الاخلاق فقد نبذتها الايديولوجيا نبذاً كاملاً بوصفها أساساً لتنظيم الحياة الاجتماعية. فمنظومة القيم الاخلاقية التي احترمتها البشرية كلها قيل انها منافقة وكاذبة. وبدلاً من ذلك تمّ طرح الشعار التالي: «إن كل ما من شأنه ان يخدم انتصار الشيوعية فهو أخلاقي!». إن الدافع وراء مثل هذا

الشعار مفهوم نظرا لأن الشيوعية تعني تنظيما اجتماعيا يتصف بالكمال من جميع النواحي. وفي الحياة الواقعية باتت الحياة الاخلاقية في المجتمع السوفييتي قائمة على المبدأ القائل: الغاية تبرر الوسيلة.

لم تكن الايديولوجيا أقل قسوة فيما يخص السياسة. صحيح، يمكن القول إن السياسة هي التي اخضعت الايديولوجيا لخدمة أغراضها، لأن الصراع على السلطة بالذات والشعور بضرورة الاحتفاظ بها مهما كان الثمن أدى إلى تشويه النظرية الماركسية وإلى تضخيم دور الايديولوجيا في المجتمع. ومن الجهة الأخرى فإن العنصر الايديولوجي وبالذات، عنصر الايمان الأعمى بفكرة معينة والتصميم على تنفيذها مهما كان الثمن، هو الذي يغذي شهوة المرء للسلطة.

على أية حال كثيراً ما كانت الأهداف الايديولوجية طاغية في المجتمع السوفييتي على الاعتبارات السياسية.

كذلك أيضاً تمت أدلجة المجال الاقتصادي. مازلنا حتى الآن عاجزين عن التخلي عن الصيغة النمطية القائلة بأن أي شيء جديد في الاقتصاد يجب تقويمه أولا عبر ما اذا كان اشتراكياً أم غير اشتراكي. وبعد ذلك فقط يتم النظر في الفائدة الفعلية التي يمكن أن نتوقعها من هذا الشيء الجديد بالنسبة للاقتصاد الوطني أو القومي.

باختصار صارت الايديولوجيا في الاتحاد السوفييتي صاحبة اليد العليا والقول الفصل بالمعنى الحرفي للعبارة، في سائر ميادين الحياة الاجتماعية. صار مجتمعنا مجتمعا متطرفا في خضوعه للايديولوجيا عاجزاً عن الشعور بهذا المرض الذي يعاني منه. ثم جاءت البريسترويكا واشاعة الديمقراطية والعلنية لتخرجه من هذه الحالة. وكما هي الحال في مثل هذه الظروف تركزت ردود الفعل الاولى على طرح الايديولوجيا جانباً وبعيداً. فالدعوة إلى التخلي الكامل عن الايديولوجيا تلقى اليوم تأييدا كبيرا لدى أوساط واسعة من عامة الناس.

غير أن مثل هذا النمط في المحاكمة ينطوي على خطأ جدي. فما من دولة تستطيع أن تقوم دون ايديولوجيا ما. إن المزاج أو الحماس الايديولوجي يكون قويا قوة استثنائية في بلدان مثل ايران، وقوياً إلى حد ما في الولايات المتحدة، وضعيفاً بعض الشيء في اوربا الغربية. ولكنه موجود هنا أيضا، فهو يُشكل القاعدة الاخلاقية والمعنوية للوعي القومي أو الوطني. ومن نافل القول إن ثمة ايديولوجيات شمولية تمارس تأثيرها على العالم كله مثل المسيحية والاسلام، مثل النزعة المحافظة والديمقراطية الليبرالية، ومثل الاشتراكية والشيوعية. ولكل من الأمم ايديولوجيتها، فهناك الايديولوجيات الالمانية والفرنسية والانجليزية والخ. . . ويعرف الجميع الدور الذي لعبته الايديولوجيا المعروفة باسم «النزعة الأبوية» في تحقيق «المعجزة الاقتصادية» في اليابان.

أضف إلى ذلك أن ما من تغيّرات في النظام الاجتماعي أو العالم بما فيها تطوير الاسلحة النووية وظهور أخطار أخرى تهدد الجنس البشري، قادرة على التأثير فيما هو فطري متأصل في الانسان في حاجة الانسان إلى الايديولوجيا. فلا العلوم ولا الفنون بقادرة على اشباع هذا التوق الابدي إلى الأفكار بوصفها مثلاً عليا.

الفكرة الاشتراكية

واليوم، إذ يمر الاتحاد السوفييتي بمرحلة حاسمة من مراحل البريسترويكا، ثمة ضرورة ملحة لايديولوجيا تعكس الواقع بشكل سليم. ما الذي ينبغي له ان يشكل جوهر هذه الايديولوجيا وفكرتها المركزية؟

ما إن شرع المجتمع بالبحث عن الجواب حتى جاءت سلسلة كاملة من الردود المستقاة من سائر النظم الايديولوجية المعروفة في العالم والمتدرجة بين الفوضوية حتى المَلَكية. ظهرت مئات المجموعات التي راحت تبشر بكل الآراء الممكنة بما فيها حتى الافكار العنصرية والفاشية ـ الجديدة (ذلك هو الثمن الذي لابد من دفعه الآن مقابل وحدتنا الايديولوجية!» المزعومة). غبر أن المفاهيم الرئيسة المؤهلة لملء الفراغ الايديولوجي هي مفاهيم معتدلة نسبيا وصحيحة. وجذور هذه المفاهيم تمتد إلى الانقسام التقليدي للفكر الاجتماعي الروسي بين النزعتين السلافية والغربية (الاوربية). وهذا الانقسام يجري الان، بطبيعة الحال، على أرضية ايديولوجية مختلفة جذريا، إذ ان البلاد نفسها قد تغيرت، مثلها مثل العالم. كما ان شعوب عدد من الجمهوريات السوفييتية باتت هي الأخرى تبحث عن ايديولوجيا جديدة.

هل يمكن انتشال البلاد من أزمتها عن طريق ايديولوجيا غوغائية مؤلفة من خليط متنافر من الأفكار؟ لقد أثبتت النزعة الانتقائية أنها لا تناسب أية تربة وطنية أو قومية محددة. فالاقتباس لا يمكن ان يؤدي إلى الاغناء إلا اذا احتفظ البلد المقتبِس بجذوره الايديولوجية الخاصة، هذه الجذور التي لا يمكنها ان تكون إلا الاشتراكية بالنسبة للاتحاد السوفييتي.

ليس سهلاً تأمل هذه الأطروحة اليوم حيث العالم الاشتراكي في حالة من التقلّب والميوعة، لأن من غير الصعب الوقوع في خطأ اعتبار هذا التحول العرضي للأحداث أو ذاك محوراً للنقاش، والنظر إلى بعض السمات العابرة على أنها قواعد ثابتة وطويلة الأمد. ولكن الغريب في الأمر هو أن أعداداً كبيرة من العلماء والسياسيين وأوساطاً واسعة من الرأي العام في مختلف أرجاء العالم تبحث اليوم، حيث الاشتراكية تعاني من أزمة عميقة، عن أجوبة لأسئلة تدور حول هذا المجتمع (الاشتراكي)، حول مبادئه وحول مستقبله.

سنحاول وضع النقاط على الحروف من خلال رد على منظّر غير متزمت مثل زبيغنيو بريجنسكي (من الولايات المتحدة). يعتبر كتابه الأخير «**الاخفاق الكبير ـ ميلاد الشيوعية وموتها في القرن العشرين**» نقيضاً لعمل ماركس وانجلز الذي يحمل عنوان «البيان الشيوعي».

يحاول بريجنسكي ان يبرهن على ان الاشتراكية السوفييتية كانت منذ البداية مشروعاً فاشلاً، خدعة كبرى، وتضليلاً للذات. يقول بريجنسكي حرفيا إن العديد من رجال الفكر استسلموا لاغراء الفكرة الاشتراكية التي بدت مثمرة في الاتحاد السوفييتي، غافلين عن المناحي الخبيثة والشريرة التي انطوى عليها حكم ستالين الاستبدادي. بادر كل من ليون فويخت فانغر وبرناردشو ورومان رولان وطاغور إلى كيل المديح للنظام السوفييتي بوصفه قمة الحضارة وذروتها.

ثمة قدر كبير من الحقيقة في هذا الكلام. فالناس ميالون إلى تأييد الاتجاهات السائدة في أي عصر ولا يشكل العباقرة أي استثناء لهذه القاعدة. على الرغم من قبولي بصحة قائمة بريجنسكي التي تتضمن أسماء اولئك الذين انخدعوا وراحوا ضحية التضليل فانني أجد نفسي مقتنعا بحقيقة إنه كانت هناك أدلة ملموسة جعلت الناس يؤمنون بالفكرة الاشتراكية.

وهكذا فان القصة ليست قصة اسطورية بل قصة وضع اجتماعي بالغ التعقيد والتناقض. إنها تتشعب وتستمر في الوجود على شكلين يتنامى الاختلاف بينهما مع مرور الزمن.

يتركز اهتمام بريجنسكي على أمر واحد هو اثبات الانهيار الكلي للتجربة الشيوعية. ذلك هو السبب الذي يجعله يتغافل عن قصة الحياة الواقعية والصحيحة للفكرة الاشتراكية مركزاً اهتمامه كله على الشكل الآخر المشوّه، وإن كان أقل إتصافاً بالمنطق، لهذه الفكرة. وهذا يمنعه من التقويم الصحيح للماضي، وبشكل خاص من فهم السبب الكامن وراء وجود مؤيدين لهذا النظام، وبأعداد لم تكن قليلة على الاطلاق. وما هو أسوأ من ذلك أن مثل هذا الموقف لا يساعد على رؤية الأفاق بصورة صحيحة. إن بريجنسكي يقوم بدفن الفكرة الاشتراكية جنباً إلى جنب مع الشيوعية التقليدية الدوغمائية، وبالتالي فان البريسترويكا التي هي عملية تجديد للاشتراكية تكون محكومة، حسب ما يرى، بالاخفاق.

من السهل أن نرى أن بريجنسكي يمجد ستالين كما قام فكتور هوغو، دونما قصد، بتمجيد لويس بونابرت في تلك الايام. وبالفعل كم من الخبث والدهاء يحتاج اليهما الانسان ليكون قادراً على تضليل وخداع زبدة الطبقة المثقفة في عصره؟! غير ان اولئك

المفكرين لم يكونوا على مستوى من الغباء يجعلهم مستعدين لابتلاع طعم ذلك الحاكم الاوتوقراطي الشيوعي. لقد كانوا قادرين على رؤية الصعوبات ونقاط الضعف التي كان النظام السوفييتي يعاني منها.

إذن، ورغم كل شيء، لماذا لم يكتفوا باطراء السوفييت على انجازاتهم وحدها بل راحوا يعبرون عن أعمالهم بكل ما كانوا يرونه؟ إن السبب هو أنهم كانوا يرون بدايات حضارة اشتراكية جديدة في المجتمع السوفييتي في ذلك الوقت.

علينا ان نتذكر أن النظام الرأسمالي، في ذلك الحين، كان في أزمة عميقة. ثمة مثقفون ومفكرون بارزون أتوا إلى الاتحاد السوفييتي من المانيا، حيث كانت الفاشية صاعدة، ومن الهند، التي كانت ما تزال رازحة تحت نير الحكم الكولونيالي وتحلم بتحطيم قيودها مثلما فعلت الشعوب من أطراف الامبراطورية الروسية بعد ثورة اكتوبر، ومن الولايات المتحدة، التي كانت لتوها قد خرجت من أزمة لم يسبق لها مثيل وحيث لم يكن واضحا بعدُ المصير الذي ستؤول اليه «صفقة» روزفلت «الجديدة». الخ . . . كانت أوربا مسكونة بالرعب الذي يسبق العاصفة الوشيكة، عاصفة الحرب العالمية الثانية ـ لقد كان صدى هدير رعودها يتردد في سائر أنحاء العالم. وقد رأى عدد كبير من المفكرين والمثقفين في الجيش الأحمر قوة قادرة على الدفاع عن الحضارة في مواجهة الفاشية ـ وقد ثبت أنهم كانوا على صواب في النهاية.

لم يكن الاهتمام بالسلم والأمن وحده هو الذي دفع أمثال هؤلاء الناس إلى القبول بالتجربة السوفييتية. فبالنسبة لاتباع التيارات الاشتراكية (مثل برناردشو وهيربرت ويلز) كان الاتحاد السوفييتي نوعاً من المخبر، حيث رياض الاطفال وبيوت الراحة للعمال، والضمان الاجتماعي الشامل للمستخدمين كلهم . . . من المفهوم ان أصدقاء الاتحاد السوفييتي غضوا أطرافهم، وهم يلاحظون براعم الاشتراكية هذه، عما لم يكن يحلو لهم. والاحتمال الأقوى هو أنهم نظروا إلى النواحي السلبية في الحياة السوفييتية بوصفها أمورا حتمية ملازمة لتجربة اجتماعية عظيمة في بلد متخلف نسبياً. وبالطبع لم يكونوا ثاقبي النظر ليتلمسوا في محاكمات الثلاثينات، ناهيك عن الاشكال السابقة لعمليات انتهاك النظام والقانون، نذر شؤم تشير إلى انحطاط المثل الأعلى الاشتراكي المتجذر في النظام السوفييتي. فبعض الممارسات الاشتراكية التي برهنت على أفضلية النظام الاشتراكي تلقفتها البلدان الرأسمالية الغربية تحت ضغط الحركا ت العمالية والاصلاحية الليبرالية النشطة، وعالجت بها كثيرا من مشكلاتها. وقد ساهمت عملية الاقتباس الانتقائي هذه مساهمة كبرى في بناء نموذج رأسمالي أكثر قدرة على التعامل مع الحياة، هو النموذج الذي يتباهى به اليوم بريجنسكي وأمثاله كل هذا التباهي.

باختصار لا يستطيع الشعب السوفييتي أن يوافق على الرأي الذي يقول بعدم وجود أي شيء ايجابي في التطورات الحاصلة بعد ثورة اكتوبر. فمساهمة بلدنا، الذي انطلق على طريق بناء النظام الاشتراكي في الحضارة العالمية، مساهمة هائلة حقاً.

ومن هنا نتوصل إلى استنتاج بعيد المدى، إلى استنتاج يقول: إن الزعم الذي يقول بأن الاشتراكية قد انهارت هو زعم لا أساس له. من الضلالات الشائعة الاعتقاد بأن وضعاً عارضاً ما، هو وضع أبدي دائم. فالأزمة متأصلة في الظواهر كلها؛ إن الجثث الميتة هي وحدها الخالية من الأزمات. وأي كائن حي يتعرض للوعكات بين الحين والآخر. وهذه هي حال النظام الاشتراكي الذي يمر الآن، لابد لنا من ان نعترف، بظروف صعبة.

لنتوقف الآن عند السفسطة التي تنطوي عليها محاكمات بريجنسكي. انه يعلن ان القرن العشرين سوف يشهد سقوط الشيوعية كما كان شاهدا على صعودها. غير أن الواقع هو أنه لم تكن هناك أية شيوعية على الاطلاق. صحيح ان بناء المجتمع الشيوعي تم وضعه كهدف نهائي، غير أن أحدا، بما في ذلك حتى أضيق الدوغمائيين أفقا، لم يجرؤ على اعلان أن مجتمعاً كهذا قد تمّ خلقه في الاتحاد السوفييتي. فقد اكتفى هؤلاء بالحديث عن بعض براعم النظام الشيوعي.

كان بريجنسكي سيبقى قريباً جداً من الحقيقة لو حصر نفسه بالقول أن تجربة القرن العشرين لم توفر قدرا كافيا من البرهان على ان الشيوعية قابلة للتطبيق، أو قال إن هذه التجربة بينت أن مهمة بناء مثل هذا المجتمع على أرض الواقع هي مهمة أكثر تعقيداً مما كان متوقعا، أو حتى قام بتعرية الطرح الطوباوي للمذهب الشيوعي. وبعبارة أخرى، ثمة أسس للقول بأن الشيوعية، بوصفها أعلى مراحل العدالة الاجتماعية، مازالت فرضية لم تتم البرهنة على صحتها بعد. عير أن هذا لا يعني وضع الاشتراكية معها في سلة واحدة، واعتبارهما كلتيهما مغامرة سياسية كبرى. على أية حال لا يتعين علينا لوم المفكر السياسي الاميركي على ما يقوله؛ فالماركسيون انفسهم وفروا الاسس التي يقوم عليها مثل هذا التفسير حين ربطوا الاشتراكية بالشيوعية وأعلنوا ان المجتمع الاشتراكي هو الحقبة الاولى من النظام الشيوعي.

ليس ثمة ما يبرهن حتى الآن على ان مبدأ الانتاج والاستهلاك الشيوعي متجذر في ظروف تطور المجتمع الحديث. وفي الوقت نفسه هناك أكثر من برهان على ان الفكرة الاشتراكية متجذرة في هذه الظروف. فالاحداث العاصفة خلال عقد الثمانينات في كل من الاتحاد السوفييتي وبلدان اوربا الشرقية لا تشهد على انهيار الفكرة، بل على اخفاق المحاولات المبذولة لـ «بناء» الاشتراكية بدون ديمقراطية، بدون السوق، بدون... الخ.

لنعد إلى موضوعنا الرئيس. لدى قيامنا بتجديد الايديولوجيا علينا نحن في الاتحاد

السوفييتي ان نركز على الفكرة الاشتراكية. فهي على قدر كاف من الصلاحية وسعة الأفق لاحتضان جملة متطلبات وتطلعات العصر الحديث المعقدة كلها ـ جملة حاجات وتطلعات الأفراد والفئات الاجتماعية على حد سواء. والفكرة الاشتراكية هذه أقدر من أية أفكار أخرى على مواجهة التحدي الرئيسي الذي يواجهه عصرنا، تحدي تدويل الحياة الاجتماعية أو اكتسابها للصفة العالمية الشاملة.

تبقى الاشتراكية الفكرة الرائدة والملهمة في نظر حركة الطبقة العاملة. فالكادحون لن يتخلوا عن المطالبة بضمان المجتمع للعمل، بالتعليم، بقدر كاف من الاطمئنان المادي بالضمان الاجتماعي، بالمشاركة في اتخاذ القرارات، والخ . . . ومن المهم ايضا، على المستوى العملي، ان جميع الطبقات والفئات الاجتماعية من السكان قادرة على ان تجد لها امكنة مناسبة في إطار النظام الاشتراكي القائم على الديمقراطية والمبادىء الانسانية. فهذا النظام يبيح سائر الفعاليات على اختلاف انماطها عدا استغلال جهد الآخرين.

المثل والواقع

وهكذا فان الفكرة الاشتراكية يمكنها ان تشكل أساسا مقبولاً للتقدم الاجتماعي في عصرنا شريطة اخضاع تصوراتنا عن المجتمع لتحول ثوري. وبادىء ذي بدء علينا ان نعيد وضع النظرية الماركسية في مكانها «الشرعي» بين مجموع المذاهب والعقائد الاشتراكية.

ان الاشتراكية «شجرة معرفة» هائلة وعملاقة، ومن الانانية قطع سائر اغصانها، عدا الغصن الماركسي، بوصفها غير علمية. وبالتالي علينا ألا نضع اشارة المساواة بين «الاشتراكية العلمية» والماركسية. فالماركسية ليست إلا واحدة من العقائد الاشتراكية ولابد من التعامل معها على هذا الاساس. ومثل هذا الموقف ليس صحيحاً فقط من وجهة النظر العلمية بل وسيؤدي إلى تحطيم النظرة التي اعتدناها إلى الكلاسيكيين، كما لو كانوا ايقونات مقدسة[٦].

أريد هنا أن اؤكد أن هذا لا يقلل، بأي شكل من الأشكال، من دور الماركسية واللينينية. فهما تمثلان انجازا كبيرا من انجازات الفكر الانساني، ووسيلة للتعرف على السيرورات الاجتماعية وتلمس الطرق المفضية إلى المستقبل. فمساهمة المنهج الماركسي في اكتشاف قوانين التطور الاجتماعية معترف بها ليس فقط في الاتحاد السوفييتي بل وفي أرجاء العالم كله. إن العديد من التيارات الفلسفية والفكرية السياسية المعاصرة (مثل الماركسية الجديدة وما بعد الماركسية) تحس بانتمائها إلى هذا المنهج. ومما لا جدال حوله أن لينين يبقى أبرز المفكرين السياسيين في القرن العشرين وأوسعهم

نفوذا.

مهما كانت الأهمية التي ينطوي عليها فهم بذور الفكر الاشتراكي، واستمرارية مبادئه الأساسية والمدى الذي يجب بلوغه في تحديث هذه المبادىء وجعلها مواكبة للعصر، فإن هذا الأمر، إلى حد كبير هو الجانب الميثودولوجي (المنهجي) للمسألة. إن تحديد معنى النظام الاشتراكي، وتعريف الاشتراكية يكتسبان اليوم أهمية حاسمة. واذا ما توغلنا إلى لبّ النقاش الدائر اليوم في الصحافة والدوائر العلمية السوفييتية، وفي بلدان اوربا الشرقية وبين القوى اليسارية، فاننا سنجد أن جوهر الأمر هو هذا. فالمسألة البسيطة ظاهرياً المطروحة الآن هي: ما هي مواصفات النظام الاشتراكي؟

إن أكثرية الكُتّاب الذين شنوا هجوما نقديا حادا ومبررا على النموذج الستاليني لا يتعاملون مع هذا النموذج على انه نموذج اشتراكي على الاطلاق. فاننا لا نستطيع ان نسبغ صفة الاشتراكية على تنظيم للمجتمع والدولة يقوم، كما يقولون، على أنظمة تسلطية شمولية تدوس الحقوق المدنية وتغرّب العامل عن وسائل الانتاج، ولا تعطي هذا العامل من نتاج عمله إلا جزءاً أقل مما يحصل عليه العامل في البلدان الرأسمالية، والخ...

فمفاد هذا الحكم هو ان ذلك النظام لم يكن اشتراكياً لأن النظام الاشتراكي «الأصيل» «الحقيقي» هو شيء مختلف.

هذه طريقة رومانسية في المحاكمة حيث لا يتم اعتبار المجتمع الاشتراكي واقعاً يخرج من رحم الظروف الموضوعية للحياة الاجتماعية، بل مثلاً أعلى نريد تحقيقه أو نرغب في فرضه على الواقع.

كان ماركس وانجلز يريان الاشتراكية نتيجة للتطور الطبيعي لكل من القوى الانتاجية وعلاقات الانتاج، ومرحلة أعلى في تطور الحضارة. غير ان مؤسسي الماركسية، وخصوصاً اتباعهما، لم ينأوا بأنفسهم عن التصوّر المثالي الذي تعزّز اضعافا مضاعفة تحت تأثير الأدلجة.

لذا فان علينا ان ننظف مفهوم الاشتراكية من جميع التشويهات اللاحقة، وان نقدم اعتماداً على تجربة الاتحاد السوفييتي، هذا المفهوم لا كما نريده ان يكون بل كما هو في الواقع. إلى هذا الحد أو ذاك نستطيع الحديث بالتحديد عن نموذجين اثنين من التنظيم الاشتراكي (تاركين جانباً حقيقة أن للمجتمعات في كل من البلدان الخاضعة للنمط نفسه، عدداً كبيراً من السمات المميزة). وهذان النموذجان تطورا تحت تأثير ظروف ملموسة.

اليكم محاكمتنا للمسألة: عشية ثورة اكتوبر تصور لينين تطبيقاً سريعاً نسبياً (خلال عشر سنوات) لما عرف باسم المبادىء الشيوعية: التأميم الكامل لوسائل الانتاج جميعها، ادخال طريقة التبادل المباشر للمنتوجات، تصفية الجيش والشرطة، أي الزوال التدريجي

للدولة. غير أنه ما لبث أن رأى الطبيعة الطوباوية لهذه الأفكار وأعاد النظر في رأيه حول الاشتراكية. أصرّ، كاسراً مقاومة رفاقه، على تطبيق نموذج مختلف من الاشتراكية. وكان العنصر الرئيس في هذا النموذج متمثلا في السياسة الاقتصاديه الجديدة والاندماج بالاقتصاد العالمي بدلاً عن الانغلاق القومي، في التعايش السلمي بدلاً من تصدير الثورة، وفي نوع من الاتحاد الفيدرالي بدلا من «الحكم الذاتي».

تطلب الوضع، أولاً، اشاعة الديمقراطية في النظام السياسي ونبذ احتكار الحزب الشيوعي للسلطة مع التخلي عن سلطته المطلقة التي كان لابد من ان تنقلب إلى سلطة شمولية كلية، وثانياً، تحويل الايديولوجيا «من جديد» عن الشيوعية لتركيزها على الاشتراكية.

بالطبع ليس هناك أي دليل مباشر على أن لينين أراد ان يتعامل مع هذه المهمات. يمكن فقط ان نفترض انه كان قد لمس الحاجة إلى مثل هذا التعامل لأن منطق «الثورة في الثورة» قاد عنده إلى ذلك. لم يكن بوسع لينين إلا ان يدرك ان النيب (السياسة الاقتصادية الجديدة) والتعايش السلمي وسائر العناصر الأخرى لصفقته الجديدة كانت ستتعرض بالضرورة للخطر ما لم تتوفر ضمانات معينة على شكل نظام سياسي ديمقراطي وايديولوجيا عقلانية رشيدة تستجيب لمتطلبات حقائق العصر.

لن آخذ وقت القارىء بالغوص في وصف نموذج ستالين، ولاسيما لأنه قد سبق وان تعرض لانتقادات حادة في الصحافة السوفييتية. فالأمر المهم هو ما اذا كان ذلك النموذج اشتراكياً أم لا. انني مع اولئك الذين يردون بكلمة «نعم» على هذا السؤال. قد نختلف حول التعريف الخاص المناسب - هل كان ذلك النموذج تعبيراً عن اشتراكية الدولة، أم عن اشتراكية الثكنات، أم أنها كانت اشتراكية شمولية (توتاليتارية)، معادية للديمقراطية، أو حتى اشتراكية اقطاعية؟ - عير أنها بدون شك، كانت اشتراكية في عدد من السمات الجوهرية.

وتتأكد صحة هذا الكلام ليس فقط عبر وجود الملكية العامة. لقد بتنا الآن نعرف ان ليس هناك أي نمط من أنماط الملكية، بما في ذلك الملكية الخاصة، يتنافى مع المجتمع الاشتراكي شريطة عدم استعمالها، بطبيعة الحال، في سبيل استغلال جهود الآخرين. كما لا يمكن اثبات الطبيعة الاشتراكية للمجتمع عن طريق التذكير بالتنمية الاقتصادية القائمة على التخطيط (نظرا لأن الحاجة إلى الجمع بين الخطة والسوق صارت من الامور المعترف بها)، أو من خلال دكتاتورية البروليتاريا لأن الاشتراكية لم تعد مفهومة بدون ديمقراطية، وصار واضحاً ان المجتمع الاشتراكي مثله مثل غيره من المجتمعات يستدعي وجود منافسة حرة بين قوى سياسية، وتوفير رقابة الحكومة واشرافها والخ...

وفيما أرى فان معايير اشتراكية هي: تفوق التنظيم على العفوية، المساواة على الحرية، الادارة على الادارة الذاتية، والجماعة على الفرد. والنظام القائم في الاتحاد السوفييتي يلبي هذه المعايير كلها، ولكن الخلل الأساسي يكمن بالتحديد في الطغيان الهائل والشاذ لما هو عام على ما هو خاص ومحدد. ربما كان أبلغ وأهم الدروس المستخلصة من التجربة الاشتراكية هو ضرورة الحفاظ على **قدر محدد بدقة لعملية «التشريك»**. بات واضحاً الآن ان المبالغة في التشريك أدت إلى الغاء العناصر السلبية النابعة من طبيعة النظام الرأسمالي، ولكنها في الوقت نفسه اجهزت على أسس حياة المجتمع الانساني بالذات. وقد أدى ذلك إلى اخفاق هذا النموذج.

غير أن علينا في الوقت نفسه ألا نضع اشارة المساواة بين اخفاق النموذج، من جهة وبين عدم صلاحية الفكرة الاشتراكية بالذات من الجهة الأخرى. فالعديد من عناصر الصرح الاجتماعي الذي ظهر بعد ثورة اكتوبر أغنت الحضارة العالمية. وبدون هذه العناصر ما كان ازدهار الدول الغربية الديمقراطية، القائم على قيم ليبرالية وأخرى اشتراكية، أمراً وارداً.

أضف إلى ذلك، يجدر بنا ان نتساءل مرة أخرى حول السبب الذي يجعل علماء الاجتماع المعاصرين، من اليسار ومن اليمين على حد سواء، دائبين على اكتشاف الاشتراكية ومعرفة نقاط القوة ونقاط الضعف التي تنطوي عليها. يكمن السبب، حسب ما أرى، في ان هؤلاء العلماء وعامة الناس يدركون بوعي أو بدونه، **مدى أهمية الاشتراكية فيما يخص مصير الحضارة**. فكلما أصبحت جماهير الناس المشاركة بفعالية ونشاط في الحياة السياسية صار التنظيم الاجتماعي في القرن الحادي والعشرين أكثر خضوعاً للتحديد من جانب الاكثرية، أي ان ما هو عام سوف يطغى على ما هو خاص ومحدد.

قناعتي راسخة بأن البشرية سائرة نحو مستقبل اشتراكي ولا شيء غير ذلك. والسؤال الوحيد المطروح هو ما الذي يجب عمله من أجل ان تشكل الحقبة الاشتراكية تقدماً للحضارة لا اعادة عجلتها إلى الوراء. وبعبارة أخرى علينا ان نتخلى عن الفكرة الدوغمائية والمثالية عن الاشتراكية بوصفها «العصر الذهبي للرخاء العام»، وان نتعامل معها بوصفها مرحلة محددة تاريخياً من مراحل التطور الاجتماعي، فنحاول ان ندعم نقاط قوتها وان نخفف من نقاطها السلبية.

قد يظل الجدل حول ماهية الاشتراكية، وما هو اشتراكي وما هو غير اشتراكي، مستمراً إلى ما لا نهاية. غير ان مجتمعاً اشتراكياً سوف يخرج من بوتقة تاريخ العالم، من الأعمال الهادفة والعفوية للناس. لذا فان علينا ان نتوقف عن قياس كل خطوة من خطواتنا بمقدار ما تنطوي عليه من الاشتراكية. ففي لب الايديولوجيا التي ستشكل أساس برنامج

سياسي ، وستلقى استجابة وترحيبا لدى الجماهير لا يجب أن تكون هناك أية فكرة مجردة عن الاشتراكية باعتبارها نوعاً من الجنة على الأرض ، بل فوائد ملموسة تماماً وقيم واضحة عن الحياة .

* * *

من استعراض التحولات التي يجب ان تمر بها الايديولوجيا في الاتحاد السوفييتي حتى تستعيد جاذبيتها توصلتُ إلى الاستنتاج التالي : ثمة ضرورة لوجود موقفين . فمن جهة علينا ان نقوم بتجديد ترسانتنا الايديولوجية تجديداً جذرياً ، نابذين كل ما لم تتأكد صحته بالتجربة ، وكل ما تم البرهان على أنه غير جدير، مع المحافظة على نواتها الايجابية . ومن جهة ثانية لابد لنا من بناء ايديولوجيا جديرة عبر الجمع بين القيم الوطنية والأممية للفكر الاشتراكي وبين القيم الليبرالية والديمقراطية .

١٩٩١/٢/٢١

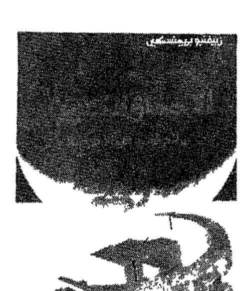
الهوامش

* عن مجلة (كومنست)، العدد الرابع، موسكو ١٩٩٠

** عضو مراسل في اكاديمية العلوم السوفييتية .

(١) ماركس، انجلز: المؤلفات الكاملة، المجلد: ٤، ص ٨١ .

(٢) انصافاً للحقيقة يجب ان نعترف ان تحويل نظرية ماركس ولينين إلى نوع من الكتاب المقدس لم يكن خطأ مؤسسي هذه النظرية . فقد كانا يحترمان ويجلان اسلافهما العظام ولم يدعيا امتلاك الحقيقة النهائية .



خلفيات ايديولوجية للازمة

ك. ش

ما ان انتهت حرب الخليج الثانية حتى تكشف للعيان درس عسكري بليغ هو ان الحرب التقليدية حرب الجبهات الواسعة، هي الاكثر انفتاحاً على احتمالي التدمير الشامل والحسم السريع في عصرنا الحالي منه في أي عصر سابق. ولا يتضمن هذا الحكم بالطبع الاشارة الى الحرب النووية ولكنه يساعدنا، كما اظن، على التفكير بما ينبغي ان لا يكون ممكناً: العالم بعد نشوء حرب نووية شاملة. ومن هذه الزاوية ـ زاوية التدمير والحسم ـ فقد اظهرت لنا حرب الخليج الثانية، التي هي اكبر حرب تكنولوجية حتى الآن، كم كانت حرب الخليج الاولى (الحرب العراقية ـ الايرانية) بدائية ومتاهية (من متاهة) ولا عقلانية. ولكن هذا الجانب التكنيكي (العسكري) من الموضوع لا يهمنا إلا بصورة غير مباشرة، أي بمقدار اظهاره ان أي فعل انساني، حتى لو كان فعلاً تدميرياً كالحرب، لا يتحقق كما هو مرسوم له بدون تكامل عنصري الغاية والوسيلة فيه. ان اهمال الترابط الواقعي بين هذين العنصرين على مستوى الفعل أو على مستوى الرؤية الفكرية، الذي هو موضوع نقدنا في هذا المقال، قد سبب خسائر عسكرية مدمرة وتراجعات تاريخية كبيرة. وينبغي النظر الى هذا الاهمال ليس باعتباره نتاجاً عارضاً لسياسات محددة أو لوضعيات مستعصية مفروضة من الخارج، بل باعتباره حاصلاً طبيعياً لهيمنة جملة من المحدِّدات الايديولوجية والثقافية التي ترسم حدود الرؤية وممكنات الفعل. فليست هذه هي المرة الاولى التي نشهد فيها نظاماً عربياً ينتدب نفسه لاداء «رسالة» تاريخية لا علاقة لها بالتاريخ أو بالعقل، أو ان نشهد

ظهور سياسة، هي خلاف مفهوم السياسة المعروف، لا تدفع الى نحو انفصال الغايات المفترضة عن الحقائق القائمة والافعال المتحققة عن المعاني المطلوبة. هل يلزمنا هنا جرداً لتخبطات الانظمة العربية، التي ارادت ان تلعب ادواراً تاريخية فريدة فأنتجت صحوات زائفة وانكسارات لا احد يجرؤ على الاعتراف بها كاملة؟.

وربما بسبب ترسّخ علاقة الانفصال والاعاقة المتبادلة هذه اصبح التضليل الايديولوجي مطلباً «ثورياً» لا غنى عنه. لقد شهدنا خلال ازمة الخليج الثانية تمادياً للبلاغة «الثورية» المعادية للامبريالية والغرب، وتطوعاً غير مشروط لقلب الاسباب الى نتائج، والاخطاء السياسية الى خطوات تاريخية، والعدوان الى دفاع عن النفس.. الخ. واذا لم يكن للنظام العراقي سوى ان يدعي ان احتلاله للكويت جاء لاجل ايجاد حل ناجز للقضية الفلسطينية ودحر اسرائيل والامبريالية والرجعية الى الابد [...]، فلماذا اقتنعت بظاهر هذه الحجة قوى سياسية عربية عديدة، سواء من اليسار الماركسي أو من اليمين الديني السلفي؟. هناك كما نعتقد، بجانب دوافع المصالح الآنية التي هيأت لهذا الاستقطاب السياسي الهجين ووحّدته ضمن فضاء سوريالي من التفكير والاجتهاد، عدة محدِّدات أو ضرورات داخلية حتّمت مثل هذا الالتقاء الايديولوجي.

أول هذه المحددات هو غلبة التفكير الرغائبي بحيث تعطى اولوية للتجليات على الاسباب، وللاسماء على المسميات وللعبارات على المضامين. وتفكير مَن هذا النوع لا يبدو، على الاقل من الناحية العملية، معنياً بالضرورات الملموسة قدر عنايته بالانجذاب الى عالم خيالي متكامل سيخلف هذا العالم. وكلما تترسخ صورة هذا العالم المنشود، كبديل نهائي عن العالم الواقعي، كلما تصبح مهمة كيفية بلوغه ثانوية بالقياس الى رؤيته. فالتغيير باتجاه العالم المنشود لا يتضمن عملية متشابكة من الانجازات (الجزئية) والتراجعات والتأجيلات والتعديلات، بل هو انقلاب سحري يستحيل فيه النقيض الى نقيضه بسرعة خاطفة. وهذا ربما يفسر الطبيعة القدرية لهذا التفكير التي لا تكترث بالخسائر الفعلية وتنزع الى التقليل من الاسباب والعواقب المرتبطة بالفعل الانساني، لصالح حتمية لا مرد لقضائها. فعلى سبيل المثال، لم يكفّ هذا الفكر عن الترديد بان الحرب هي اشبه بقدر مفروض على العراق من قبل الولايات المتحدة. ولكنه لم يتدارك احاديثه هذه بالاشارة الى ان سياسة الحكم الدكتاتوري في العراق، القائمة على «الاستمتاع» بلعب دور القوة العظمى، قد ساعدت على نقل امكانية الحرب الى واقع. لقد اصبحت الحرب خياراً حتمياً لان كلا الطرفين قد تمسكا حتى النهاية بمنطق المجابهة العسكرية لتسوية النزاع (أو النزاعات) المعلنة أو غير المعلنة.

ان الادعاء بالاستجابة «لضرورات» القدر، وليس لاي ضرورة ادنى منها، يجلب

معه ليس تمويه مسؤولية نظام حكم اراد ان يستبق الاقدار بل وايضاً، وهذا هو الاكثر ايلاماً، تناسي عدة ملايين من الضحايا الابرياء لمثل هذه التحديات العبثية. ولكن التفكير الرغائبي لا يبدو معنياً بهذا ولا بغيره، حيث اصبح واضحاً ان السياسات القَدَرية أو التي تدعي مواجهة الاقدار (لا فرق)، قد اضرت أيّما اضرار بمصالح شعبها العراقي اكثر مما اضرت بمصالح العرب واضرت بمصالح هؤلاء اكثر مما اضرت بمصالح اعدائهم. بل بالعكس، انه ـ أي التفكير الرغائبي ـ مازال يعيش بشعور اللحظة الفاصلة في الصراع، باحتمالات انبعاث سريع من الخراب السريع، وباغراءات ظهور البطل المنتظر وكأنه «روح العالم على صهوة جواد» كما وصف هيغل نابوليون مرة.

أما المحّدد الثاني، والذي يتجسد هو الآخر في ايديولوجيات مختلفة بل ومتناقضة احياناً، فيتمثل في نوع من النرجسية الثقافية التي تجعل التطابق مع الذات، من حيث هي معطى تاريخي لتصور تراثي أو ايديولوجي محدد، هو الغاية الاخيرة لكل علاقة مع العالم الخارجي. وتتناسب هنا الحاجة الى صيانة التماثل مع صورة الذات مع تفاقم العجز عن التأثير الايجابي في الواقع. فالتثبيت (أو الصنمية) المتحقق للذات نتيجة التكرار واعادة الانتاج يوفر شرط الامكانية لتصور فكري محافظ يقود بالتدريج الى مضائلة وانضابْ خزين المعنى الايديولوجي والثقافي المفترض. ذلك لان المعنى، كما هو معروف ينتج عن الممارسة العملية والفهم لا عن التجريد والاسقاط. ولهذا فانه بدل ان يكتشف رتابة مقولاته ومحدودية نظرته استناداً الى العلاقة مع الواقع باكراهاته وانفراجاته فان الموقف المحافظ يصرّ على الامساك بمسلماته المتوارثة وبتصوراته المسبقة التي تمنعه من قبول امكانية حد ثالث بين الـ (أما) والـ (أو). وهكذا ينبغي ان يكون الموقف إما مع النظام العراقي، لانه نظام عربي مستهدف من قبل الاعداء، أو مع الولايات المتحدة لانها قوة امبريالية طامعة، اما مع الجهة التي تدعي الحق وأو مع الجهة التي نعرف بشكل مسبق انها على باطل. وارتباطاً بهذا فان الموقف الفكري المحافظ يمهِّد الطريق للاخذ بنزعة اخلاقية تطهيرية لا تكتفي بوصف كل ما هو غربي ورأسمالي بالشر، بل وتستغرق ذاتها في البحث عن طرق لسياسة متصوفة وعن اديان جديدة بارباب أو بدون ارباب!.

ولسنا نطالب هنا باحياء نزعة شكية مبالغ فيها ازاء كل ما هو ثابت نسبياً في هويتنا، ولا الى مطالبة اللغة بالاقتصار على وظيفة الوصف دون التعبير، والنقل دون الاضافة. كما اننا لا ندّعي عدم جدوى التمسك بالحقيقة الانسانية. حقيقة العقل والحرية والضمير، حينما تصبح مهددة بتأجيل تاريخي قسري بسبب الارهاب أو الحرب. ولكن، كما يبدو لنا، فانه لا التمسك المشروع بالهوية الوطنية الثقافية ولا المعاداة الجوهرية لحضارة الغرب الامبريالي، يبرران لاحد الصمت عن واقعنا العربي في لحظة ازمته الاكثر تفجراً وعمقاً.

ولكن للاسف هذا بالضبط ما فعلته جوقة المعادين الاصوليين للامبريالية. لقد رحّلوا مشاكل واقعنا البنيوية الى العدو الخارجي، وسكتوا عن انتهاك حق الانسان العربي بأيد عربية (مأساة شعبي العراق والكويت)، وباركوا «اصالة» التفكير الذي شرّع للانتهاك تحت ذريعة القضايا العادلة للامة.

ثالثاً؛ ان تفاقم تمركز هذا التفكير حول نفسه قد مكنه من امتلاك مخارج ملكية لتجاوز ازمة افتراقه المتكرر عن الواقع. فهو قادر على ان يحيل هزيمته إلى انتصار، مبرزاً سلامة ارادته المجردة في ذات اللحظة التي تتكسر ارادته الملموسة المسندة بقوة السلاح. ان التصور الذي يرتضي الاعتراف للعامل الخارجي بقدرته على الحاق الهزيمة به (وهل هناك دليل أقوى من الانتصار العسكري في هذا العالم المادي الذي نعيش؟)، لا يترك للمرء سوى الاقتصاد بأن ذاتاً وأهمية إلى هذا الحد هي الوحيدة القادرة في نهاية المطاف على الحاق الهزيمة بنفسها. ولهذا فليس من المبالغة الاستنتاج، بعد قراءة تاريخ حركتنا السياسية، كدول وكاحزاب في العقود الاخيرة، باننا من نوع الأمم التي اعتادت الانجذاب إلى اخطائها التاريخية في نفس اللحظة التي استبشرت فيها بـ «الموقف القومي الصحيح» وبالابطال المخلصين. واستناداً على ما ذكرناه تواً عن قدرة هذا التفكير على ايجاد قصٍّ كفيلٍ باحالة النتائج المتحققة إلى نقيضها، وغير المرغوب فيه إلى مرغوب فيه، معمقاً بذلك كلًا من التمركز الوهمي حول الذات والعلاقة الدورانية المغلقة مع نظام الاشياء، فأن هذا التفكير يتطلب جمهوراً مهيئاً لقبول المعجزات. ان توقع حدوث المعجزات هو المحدِّد الثالث للتفكير المحافظ، وهو محدد لا يقتضي من الحكام والقادة الروحيين والايديولوجيين إطلاق الوعود النهائية المنذِرة وحسب، بل وفي الجمهور اعتياد حالة التأجيل والاحباط المقترن بحساسية غير عادية للانغمار في اللحظة التي تحين فيها المعجزة. وبالاحرى، فان لحظة المعجزة، لحظة الاستثناء التاريخي، لا تكون كذلك بدون ترقب ومشاركة عفوية منفلتة من كل قيد، لأنها لحظة فيض وانكسار الحدود وسطو على الفرص والغنائم والافكار والبشر. ان الامثلة التي هيأتها أزمة الكويت كانت كافية لاظهار تمكن العقلية الانتهازية عند الجمهور المقموع وعند المؤسسات القامعة.

من خلال تعرضنا إلى المحددات الثلاثة: اليوتوبية، النرجسية والخرافية للفكر السياسي الذي مثله النظام العراقي ومن وقف إلى جانبه من قوى عربية، حاولنا إظهار ما تنطوي عليه هذه المحددات من بعد لا تاريخي في فهم الذات والآخر والسياق الذي يجمعهما. فطوال أشهر الأزمة اعتدنا ان نسمع من هذا الفكر ما يدل على يوتوبيته من خلال التساؤل: لماذا لا يحق للعراق ان يبرز كقوة عظمى؟، وما يدل على نرجسيته بالتساؤل: لماذا يتآمر علينا الآخرون عندما نحاول كعرب، من خلال النظام العراقي، احياء امجاد

التليدة؟، وأخيراً ما يدل على خرافيته بالقول: ان معركة حاكم العراق التي اسماها بـ «أم المعارك» ستشكل بداية نهاية الامبريالية الامريكية كقوة عظمى في العالم! . . ان ذكر هذا النوع من التساؤلات والافتراضات هو لغرض التدليل على ان انعدام البعد التاريخي لهذا التفكير قد أدى به إلى ان يعيش تجربة تناقضه الفعلي مع الامبريالية وكأنها تجربة حوار مع النفس وتداعٍ لمحتويات مخيّلة مأخوذة بالمقاومة وبرفض الحلول العقلية الواقعية. وتحت ظلال هذه الصّلة المقطوعة عن العالم، تحت ظلال خطاب التحدي والاقتدار والصمود حرّكت الغايات المبيّتة (للامبريالية) قوتها العارية لتؤكد تفوقها وخراب وطننا وكل الاسماء الزائفة التي اسبغت عليه. لقد حلّت أكبر وأقسى كارثة في تاريخ المنطقة. ولكن من سيخشع لها؟ ومن سيسأل في صمته: هل كان من الضروري ان يكلفنا البرهان على عدوانية الامبريالية كل هذا الثمن؟ اننا جميعاً أمام درس تاريخي آخر يعيد إلى الاذهان لا إمكانية التحول المفاجىء لطاغية دموي إلى بطل قومي محرر، لا امكانية التفريط طويلاً بمطلب الديمقراطية في سبيل غاية قومية مطاطية يحددها من يشاء وفق ما يشاء، ولا امكانية نشدان التحرر بدون التفكير بكيفية بلوغه وبمصيره. اننا أمام درس في كيفية نقد وسائلنا وغاياتنا، واقعنا والطريقة الاستثنائية التي نفهمه فيها، أخطائنا وقدرتنا المتجددة على انتاج اخطاء، دولنا الوطنية واستراتيجياتها. لقد كانت اللعبة حتى الآن هي مجابهة العدو الخارجي فظهرت انظمة قوية تعلّم الناس فضائل الصمت وفوائد امتلاك جيوش جرارة ولغة رادعة! . وكان خلف هذه اللعبة شعور معلن أو دفين بأننا ضحايا لماضٍ مشبوه أو لاوهام جميلة في عالم خطى بعيداً خارج حواجز الوهم. وحيث ان هذه اللعبةً قد قادتنا إلى ان نكون، أو على الأقل قسم مهم منا، ضحايا حقيقيين، فهل حانت اللحظة لنستدرك بأن لا سياسة حقة ولا دولة وطيدة يمكنها ان تتأسس على تلبس دور الضحية الدائمة.

الفرات قضية قائمة

د. حسن الجنابي

اشارة لابد منها

كانت الحرب العراقية أكبر كارثة يتعرض لها العراق في تاريخه الحديث من حيث النزيف البشري والتدمير العمراني ومخاطر الاحتلال وما رافق ذلك من سياسات ارهاب وقتل لابناء الشعب اثناءها، وتشويه الطبيعة لأجل تهيئة الارض على طول خط المواجهة مع ايران وفي أماكن عديدة من العمق العراقي للاغراض الحربية وما يعنيه ذلك من تغيير للظروف البيئية الطبيعية واحداث خلل في التوازن الطبيعي للبيئة في العراق ناهيك عن المناطق التي استعمل فيها السلاح الكيمياوي وما رافقه من تلويث المياه والنبات والتربة، هذا اذا لم نتحدث عن عسكرة الاقتصاد والخسائر المادية، إلا ان ما يتعرض له العراق بعد غزو الكويت يعد أكبر بما لا يقاس من حيث حجم التدمير المحتمل، تجويع الشعب، ومضاعفات استعمال الاسلحة النووية أو الكيميوية التي يجري التهديد بها من قبل جميع الاطراف، وكون هذه القضية قد أخذت أبعاداً دولية كبرى فانها قد غطت (اعلامياً على الأقل) على قضية لا تقل خطورة وتتعلق بحياة الملايين من أبناء شعبنا وهي مشكلة مياه نهر الفرات. ففي ظل الحصار الاقتصادي والعسكري المفروض على العراق، يمكن ان تلجأ تركيا بارادتها (احتمال اشتراكها بالحرب أمر وارد) أو بطلب من أطراف أخرى إلى

فرض حصار (مائي) يؤدي إلى موت نصف العراق اقتصادياً وبيولوجياً. هذا المقال المختصر يدور حول هذه المشكلة والهدف منه هو تحفيز الوعي الوطني العام وجعله مدركاً لخطورتها ومتابعاً لتطوراتها ومقيّماً للسياسات التي تتحكم بها سواء كانت عراقية أو تركية أو غيرها وهي تستند في ذلك إلى بعض الحقائق العلمية بعيداً عن البيانات والشعارات السياسية التي تتداولها بعض الاطراف.

مقدمة

تعود مشكلة اقتسام مياه نهر الفرات إلى عدة عقود من السنين لكنها اتخذت منحى خطيراً في العقدين الاخيرين بعد ان تم انجاز عدد من السدود في كلٍ من تركيا وسوريا ثم ملؤها دون الاتفاق مع الدول السفلى لكي يتم تجنب الاضرار الناشئة عن ذلك. ان العراق هو المتضرر الأكبر من اجراءات حجب مياه الفرات بسبب كونه بلد المصب حيث ينتهي النهر بعد ان يكون قد قطع ١٢١٣ كليو متراً (٥٢٪ من طوله) داخل الاراضي العراقية من الشمال حتى التقائه بنهر دجلة ليكوّنا شط العرب. ان هذا الامتداد في الاراضي العراقية شكـل ويشكل العمود الفقري للنمو الحضاري في البلد من حيث بناء المدن وحجمها (سبع محافظات)، توزع السكان (حوالي ٦ ملايين)، نشاطهم الاقتصادي سواءً كان زراعياً، صناعياً أو تجارياً، من المعروف فان طبيعة النشاط الاقتصادي في المناطق التي يمر فيها النهر تتعلق بدرجة كبرى بكمية ونوعية المياه المنسابة فيه. فاذا علمنا بأن ٤٤٪ من مجموع مياه النهر (حوالي ٢٨ مليار مكعب سنوياً) كانت تصل العراق قبل عدة سنوات أي قبل انجاز بعض السدود التركية وما ارتبط بذلك من نشاط اقتصادي عبر كل ذلك الزمن مما جعل للفرات أهمية قصوى بالنسبة للعراق، وحقوق العراق فيه هي أمر يؤكده التاريخ والمنطق والعلم، دون انكار حقوق تركيا وسوريا، ويمكننا تصور الحالة بعد ان انخفضت المياه التي تصل العراق عبر الفرات إلى ١٤٪ أي بنقصان حوالي ١٩ مليار متر مكعب استعملت في ملء السدود. ان الذي يثير الاستغراب هو ان عملية ملأ الخزانات جرت بدون الاتفاق مع الاطراف الأخرى والاغرب من ذلك ان تركيا ابلغت العراق وسوريا بقرار قطع (انتبه، قطع وليس شيء آخر) مياه الفرات في كانون الثاني الماضي قبل شهر واحد فقط من وقت التنفيذ ولم تتم استشارتهما حول سبل ملء خزان سد اتاتورك، وهذه العملية هي من الخطورة بمكان ويفترض ان تكون معلومة لجميع الاطراف قبل فترة أطول بكثير ومدروسة بما فيه الكفاية لكي يكون الجميع مستعدين لتطويق المضاعفات التي قد تنتج عن ذلك.

المشاريع التركية في حوض الفرات

تعتبر منطقة حوض الفرات التي تقع ضمن الاراضي التركية من المناطق الزراعية التي تتميز بتـذبذب مستوى الانتاج الزراعي فيها نظراً لشيوع ما يسمى بالزراعة الديمية (الجافة) وما لذلك من تأثير على مستوى معيشة السكان ونشاطهم الاقتصادي الذي يرتبط بتقلبات الطقس. واذا عرفنا ان المنطقة لا تتوفر على أية صناعة تذكر فمن البديهي ان سكانها يعانون فقراً كبيراً وتخلفاً في الخدمات. ارتباطاً بذلك شرعت السلطات التركية بانجاز مشروع مركب جنوب شرق الاناضول لاستغلال مياه الفرات في ارواء الاراضي عن طريق اقـامـة السـدود والخزانات لتوفير المياه اللازمة لتحويل الزراعة الجافة إلى مروية والتـوسـع باستصـلاح الاراضي لتشمـل مسـاحات واسعة أخرى والحصول على الطاقة الكهربائية الضرورية لتحريك اقتصاد المنطقة وتطويره.

تقع أكثر من ثلثي مساحة المشروع (البالغة ٧٤ الف كيلو متر مربع أي حوالي عشر مساحة تركيا) على حوض الفرات أما الثلث المتبقي فيقع ضمن حوض نهر دجلة. يتضمن هذا المركب انجاز ١٥ سداً لتوفير المياه لارواء ١,٦٥ مليون هكتار واقامة ١٨ محطة لتوليد الطاقة الكهربائية والتي ستوفر ما مقداره ٢٦ بليون كيلو واط ساعة في السنة (وهذا يساوي الطاقة الكلية لتركيا في عام ١٩٨١)[١]. تقدر كلفة المشروع بـ ١١ مليار دولار وستستمر أعمال الانجاز لمدة ٢٥ إلى ٣٠ سنة. لقد انجز على نهر الفرات لحد الآن العديد من السدود أهمها سد كيبان (١٩٧٦) وسد قره قايا (١٩٨٦) وثالث أكبر سد في العالم وهو سد اتاتورك (١٩٨٩) الذي أوصل الوضع إلى نقطة حرجة في المنطقة تهدد باخطار كبرى ما لم تتخذ اجراءات سريعة لتلافيها. يحتجز هذا السد مياه الفرات في بحيرة تتسع إلى ٥٠ مليار متر مكعب أي ٥٠٪ من احتياجات تركيا للمياه. ولتقريب الصورة للقراء فلو افترضنا ان السلطات التركية قررت ملء الخزان بكل سعته فان ذلك يستوجب قطع مياه الفرات كلياً لمدة سنتين عن العراق على افتراض ان معدل مياه الفرات التي تصل العراق هو كما كانت عليه قبل عام ١٩٧٦ أي ٢٨ مليار متر مكعب سنوياً أو لمدة خمس سنوات ونصف السنة حسب المعدل الحالي. كما ان من الضروري الاشارة إلى ان قضية الفرات قد دخلت حلبة الصراع على السلطة في تركيا مما يزيد الأمر تعقيداً[٢].

بعض جوانب حجز المياه في أعالي النهر

يجب الاعتـراف بأن لكل دولة الحق في المحافظة على مصادر المياه التي تتوفر

عليها وتطويرها واستغلالها لمصلحة شعبها، لكن هذا الحق المطلق يتحدد بالقدر الذي لا يسبب الضرر للشعوب الأخرى التي تعيش في نفس الحوض. ان اقامة السدود على الانهر هي عملية صناعية يقوم بها الانسان لحجز المياه في منطقة ما في أعالي النهر لفترة محددة لعدة أسباب أهمها لدرء الفيضان ولتوفير المياه أسفل السد في أوقات الشحة بالكميات المطلوبة للمحافظة على النشاط الاقتصادي (الزراعي والصناعي بشكل خاص) والمحافظة على الحياة البيولوجية في النهر وما يعنيه ذلك من توازن بيئي، وكذلك لتوفير الطاقة الكهربائية الضرورية لتدوير عجلة الحياة في المنطقة المعنية. يعني ذلك من الناحية العملية ان هذه المياه (المحتجزة) هي مياه (عائدة)، أي تعود إلى مجرى النهر ولكن في فترة أخرى، اذن فان اقامة سد على مجرى النهر لا تقلل (نظرياً) من كمية المياه التي تجري في النهر ولكن تؤثر على نظام جريان المياه في النهر أو ما يسمى بـ Water regime أي انه يتم تحديد كمية المياه المارة في النهر ووقت مرورها. ان هذا يمثل السدود التي لا يرافقها توسع في الاراضي المستصلحة وهي حالة نادرة ان لم تكن معدومة حيث ان زيادة مساحة الاراضي المزروعة الواقعة اسفل السد وحواليه هي عملية مكمّلة وجزء لا يتجزء من التطوير الاقتصا ـ اجتماعي للمنطقة. ان هذه الزيادة في الاراضي المزروعة تحتاج إلى المياه اللازمة للري والتي سوف تستقطع من المياه المخزونة ولا تعتبر هذه المياه (عائدة) لأنها سوف تستهلك مباشرة من قبل النباتات أو تفقد أما على شكل تبخر مباشر من سطوح القنوات والحقول المروية أو عن طريق الترشح في أعماق التربة في طرق الري التقليدية. ترافق عمليات الارواء عموماً عمليات الغسيل Leaching والتي تتطلب كميات اضافية من المياه غير المستغلة من قبل النبات. ان هذه المياه يتم تجميعها والتحكم بها عن طريق شبكة البزل (الصرف) التي تشكل جزءاً ضرورياً من تأسيسات انظمة الري، ويتم في غالبية الاحيان ارجاع هذه المياه إلى مجاري الانهار. على ضوء ما سبق ذكره بشكل مختصر فان المشكلات التي تتطلب النقاش والدراسة، بغرض الوصول إلى حلول ترضي جميع الاطراف فيما يتعلق باقامة السدود على مجرى نهر مشترك، يمكن اختصارها كالآتي :

١ ـ قضية ملء الخزان التي ستؤدي بالضرورة إلى تقليل (أو قطع) المياه كمياً بالنسبة للدول التي تقع اسفل السد. فاذا افترضنا ان هذه الكمية المستقطعة سوف تتم اعادتها بعد ملء الخزان، تبقى مشكلة طول فترة الملء تلك واحتياجات الدول السفلى لتلك المياه لتسيير عجلة الحياة الاقتصادية التي تعتمد مباشرة على المياه.

٢ ـ المشكلة التي لا تقل خطورة عن الاولى هي مشكلة نوعية المياه التي تعود إلى مجرى النهر، فمن جهة ان نوعية المياه المخزونة نتيجة لارتفاع درجات الحرارة التي تؤدي

إلى تبخر المياه تسوء مع طول مدة احتجازها وتصبح أكثر ملوحة، ومن جهة أخرى فان المياه المالحة المتجمعة نتيجة عمل شبكة البزل والتي تقذف مرة أخرى إلى النهر، ناهيك عن المياه المستخدمة للاغراض الصناعية في المعامل التي أقيمت على ضوء بناء السد، تساهم برداءة نوعية المياه وتسبب اضراراً كبرى للمناطق الواقعة اسفل السد على طول النهر. وهذا بدوره يحتاج إلى كميات من المياه اضافية لغسيل التربة من الاملاح التي تتجمع فيها والناتجة عن استعمال مياه ذات ملوحة نسبية عالية لاغراض الري مما يجعل من كمية المياه اسفل السد مشكلة أكثر خطورة.

٣ ـ إن كمية ونوعية المياه الجارية في النهر بعد اقامة السد يخلقان مشكلة أعقد وأكبر ضرراً على التقدم الحضاري للبلد وهي مشكلة البيئة، اذ ان عدم توفر المياه بالكمية والنوعية المطلوبتين للزراعة (مثلاً) لا يوقف الزيادة في المساحات المزروعة فقط بل وفي كثير من الاحيان يؤدي إلى تقليل المساحات التي كانت تزرع سابقاً خاصة اذا اتبعت طرق الزراعة الكثيفة، ومن المعلوم ان المساحة التي لا تستثمر في العراق، مثلاً، تصبح بسرعة اراضٍ متصحرة أو سبخة نتيجة للحرارة العالية وقلة الامطار.

٤ ـ ان المشكلات المذكورة اعلاه تترافق مع مشكلات أخرى تتعلق ببقاء أو توزع سكان المناطق التي يجري فيها النهر وظروف حياتهم ونشاطهم الاقتصادي، توقف الصناعات الكيمياوية التي تحتاج نوعية مياه جيدة، توقف صناعة الطاقة الكهربائية، تهديد الحياة البيولوجية واقتصاد الاسماك في مجرى النهر وما شابه ذلك.

٥ ـ بقدر تعلق المشكلة بنهر الفرات فان شحة مياهه تظهر مباشرة على شكل شحة في مياه شط العرب، ويعني هذا، اضافة إلى عدة مشكلات أخرى، توقف الملاحة فيه وغلق المنفذ الوحيد للعراق على الخليج (يعرف القراء جيداً مشكلة تخطيط الحدود بين العراق وايران على ضفة شط العرب الشرقية أو في مجراه العميق وطبيعة الصفقات التي تمت بين الحكومتين).

كيفية حل الصراعات حول المياه

تجب الاشارة هنا إلى انه في أغلب حالات بناء السدود في أعالي الانهر تكون الدولة (أو الدول) السفلى متضررة (إلا في حالات توفر المياه وان النهر يهدد بفيضانات مستمرة غير قابلة للسيطرة عليها)، لذا يمكن في هذا الاطار الاشارة إلى بعض الحلول بهذا الصدد:

١ ـ اقامة السد على أساس انه استثمار مشترك لجميع دول الحوض وتتم المساهمة

فيه وفق أسس تجري دراستها لتحديد حصة كل طرف والتزاماته أمام المساهمين الآخرين وتكون العوائد الاقتصادية للمشروع، بالنتيجة، مشتركة توزع حسب المساهمة، أو غير ذلك، سواء فيما يتعلق بالطاقة الكهربائية أو المحاصيل الزراعية أو غيرها.

٢ ـ اتباع مبدأ التعويضات المادية للبلد المتضرر بما يضمن حقوقه على أساس حسابات اقتصادية تقوم بها لجان مختصة مشتركة من البلدان المعنية ويساهم بها اخصائيون محايدون من المنظمات العالمية التي تنشط في هذا الميدان كمنظمة الغذاء الدولية FAO أو اللجنة الدولية للري والبزل ICID أو غيرها.

٣ ـ الاتفاق المسبق بين الاطراف جميعاً حول كيفية ملء الخزان والوقت المخصص لذلك وكمية المياه التي تطلق من السد بحيث تكون الاطراف الأخرى مستعدة لمواجهة شحة المياه، ونبذ الاحتكار من قبل الطرف الذي يسيطر على منابع النهر أو التصرف على أساس المصلحة الذاتية فقط.

ان هذه البدائل تشكل حلولاً حضارية متقدمة تتعامل بها الدول لتأمين التقدم الاقتصادي والاجتماعي لشعوبها ولا يمكن ان تتم إلا بتوفر الارادة الحسنة والشعور بالمسؤولية والحفاظ على روابط حسن الجوار بحيث يكون النهر شريان التقدم الحضاري لشعوب المنطقة. والامثلة على هذه الحلول كثيرة كنهر الدانوب مثلاً الذي يمر بعدة دول اوربية كانت في حالة حرب أثناء الحرب العالمية الثانية، وكذلك نهر الاودرا الذي ينبع في تشيكوسلوفاكيا ويمر ببولندا على الحدود مع المانيا، أو بحيرة تشاد، ونأمل ان يكون الفرات هنا مثلاً يحتذى في التعامل الدولي لما فيه خير الجميع.

مخاطر شحة المياه في العراق وضرورة تنظيم استغلالها

لا يخفى على أحد ان حضارة وادي الرافدين هي من الحضارات الاولى التي قامت على وفرة المياه في نهري دجلة والفرات وعذوبتها اضافة إلى خصوبة التربة. وبسبب الظروف المورفولوجية والطوبوغرافية والهيدرولوجية السائدة في العراق فان سكانه، ومنذ آلاف السنين، اهتدوا إلى أهمية عمليات السيطرة على المياه عن طريق اقامة المنشآت الهيدروليكية للسيطرة على الفيضانات، وتنفيذ شبكات القنوات وتشغيل انظمة الري وصيانتها من أجل تأمين الاستقرار الدائم للسكان وانتاج حاجياتهم الغذائية. وقد توفرت للعراق خبرة تاريخية كبيرة في هذا الميدان لم تجر، للاسف الشديد في العديد من الاوقات، الاستفادة منها، فتراكمت المشكلات التي يتطلب حلها جهوداً واستثمارات كبرى. ورغم الاموال التي خصصت وصرفت في العقود الاخيرة، ومنذ السبعينات بشكل

خاص، والتعاون الاجنبي في هذا الحقل فان العراق مازال قريباً من مرحلة الخطر فيما يتعلق بامكانياته المائية، وذلك على عكس الاعتقاد السائد لدى العامة وبعض المسؤولين في العراق بأن المياه المتوفرة في دجلة والفرات هي كافية إن لم تفض عن الحاجة. ان هذا الاعتقاد الخاطىء ناتج عن عدم الوعي بامكانيات العراق الزراعية التي اذا تم استغلالها لكان هناك نقص شديد بمصادر المياه.

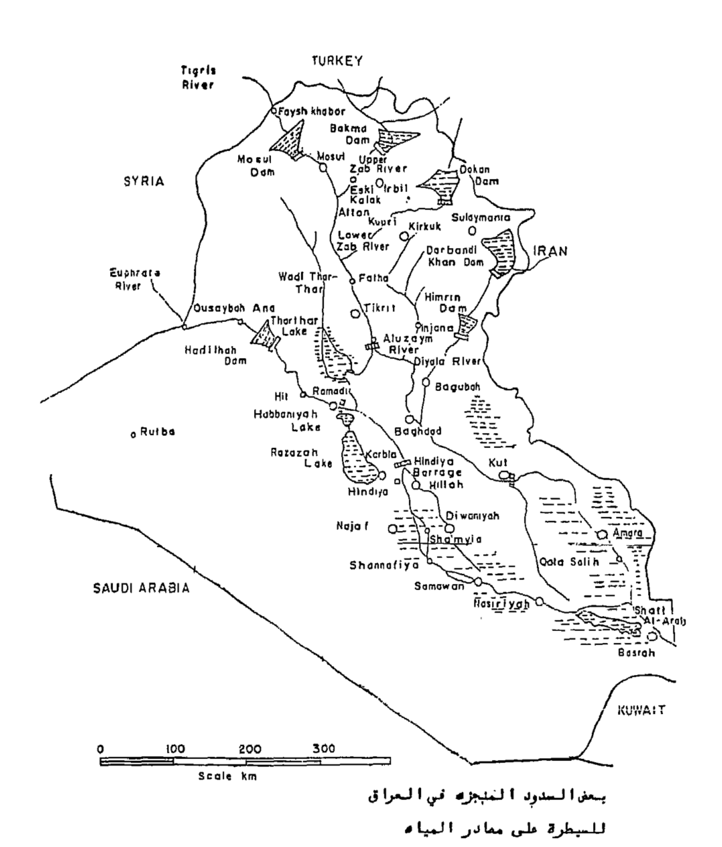
يتوفر العراق الآن على شبكة جيدة من السدود والمنخفضات التي تمكّن من السيطرة على توزيع المياه في النهرين. ويشكل منخفض الثرثار والقنوات التي تصله بالنهرين صمام أمان للتحكم بكميات المياه التي تجري فيهما، اذ ان العراق يتحكم جيداً بمياه نهر دجلة على عكس نهر الفرات الذي يتميز بكثرة السدود عليه لدى الجانبين التركي والسوري، ومن هنا أهمية منخفض الثرثار لتزويد الفرات بمياه دجلة عند الضرورة.

تصل السعة الخزنية للسدود المنجزة في العراق إلى حوالي ١٣٦ مليار متر مكعب[٣] ويمكن ان ترتفع إلى أكثر من ذلك بعد انجاز السدود التي مازالت تحت الانجاز (سدا بخمة وبادوش). ان هذه الكمية من المياه كافية من الناحية النظرية لتغطية احتياجات العراق لاغراض الري لمدة سنتين على اعتبار ان المليار الواحد يكفي لارواء ٦٥ الف هكتار[٤]. ان مساحة الاراضي المروية في العراق تبلغ ٤,٣ مليون هكتار، ومن الناحية العملية هناك لهذه السدود اغراض أخرى عدا توفير المياه للزراعة. يمكن القول باختصار اذن ان العراق يقف أمام الضرورة القصوى في المحافظة على مصادر المياه واستغلالها بطريقة مثلى وايلاء اهتمام استثنائي لما يلي:

١ - الاستمرار ببناء السدود وخزانات المياه وتوسيع شبكات الري واستصلاح الاراضي والاهتمام بتحديد حصص الارواء والاحتياجات المائية للحقول والمناطق المختلفة بطرق علمية ونشر الدراسات والبحوث بهذا الاطار من أجل رفع مستوى الوعي الشعبي فيما يتعلق باستعمال المياه. .

٢ - استعمال طرق ري ذات كفاءة عالية للتقليل من الضائعات المائية، وتبرز هنا طريقة الري بالتنقيط باعتبارها احدث وأفضل طريقة في مجال التقليل من استهلاك المياه، ناهيك عن فوائدها الاخرى، وعدم التردد في استعمالها في جميع الحقول الممكنة الارواء بهذه الطريقة، والتقليل من استعمال الطرق التقليدية، وتحديد انتشار طريقة الري بالرش التي يستسهلها المزارع العراقي أو على الأقل ضبط دقة استعمالها واختيار الطرق المناسبة في سقي الحقول من ناحية كمية المياه المطلوبة للرّية الواحدة ووقت الري وما يسمى باللغة بتكنولوجيا الري.

٢ - ايستكمال وتعميم الدراسات المتعلقة بخزين المياه الجوفية في العراق، والبدء



بعض السدود المنجزه في العراق
للسيطرة على مصادر المياه

باستغلالها لاغراض الري، وتشجيع المزارعين الذين يبادرون إلى استغلال الاراضي في الجزيرة وبادية العراق لما في ذلك من أهمية كبرى في ايجاد مصادر بديلة للمياه لتساهم في سد الاحتياجات المائية المتزايدة للعراق التي ترافق تطوره الصناعي والزراعي والحضاري بشكل عام.

٤ ـ بذل جهود كبرى للوصول إلى اتفاقات ثنائية وثلاثية مع الاطراف الأخرى حول تقسيم مياه الفرات بما يضمن حقوق الجميع، ويشكل الاتفاق العراقي السوري حول توزيع المياه التي يطلقها الجانب التركي بادرة خير على هذا الطريق.

٥ ـ الضغط باتجاه زيادة كمية المياه التي تطلق من قبل الجانب التركي بما يضمن وصول الكمية المناسبة للعراق والذي يستهلك من مياه الفرات بين مدينتي هيت والناصرية ما مقداره ٤٧٦ متراً مكعباً في الثانية فكيف اذا اضفنا الجزء المتبقي حتى المصب والاحتياجات المائية لسوريا وعرفنا ان ما يطلق من السدود التركية هو ٥٠٠ متر مكعب في الثانية فقط (حتى نهاية مايس)؟

٦ ـ تقع على عاتق المتخصصين العراقيين مهمة دراسة مشكلة الفرات من جوانبها العلمية والقانونية باستمرار واثارتها على مستوى المنظمات العالمية وخاصة المنظمة لعالمية للري والبزل والتي هي من أهم المنظمات الدولية غير الحكومية التي تهتم بهذا لميدان وتنتمي اليها الغالبية الساحقة من دول العالم بما فيها العراق وتركيا وتضم متخصصين وعلماء معروفين.

الهوامش

(١) Tekinel o. and Balaban A (1988) «Turkish Experiences in Large Scnlelrrigationprojects» pre-cerding, of ICID. Dubrovnik Yogoslavin

(٢) (Thrkish Daily News 805. 1990) جاء في تصريحات السيد سليمان ديميريل زعيم المعارضة التركية الذي زار المنطقة في محاولة لكسب الاصوات ما يلي: «ان مياه نهر الفرات تعود إلى الشعب التركي ولا توجد هنا أية مشكلة دولية (...) تركيا لا يمكن ان تستقطع من نصيبها من المياه لا لشيء إلا لأن العراق وسوريا يريدان ذلك (...) اذا كان هذان البلدان ـ يقصد العراق وسوريا ـ يريدان خلق مشكلة دولية فهما يستطيعان خلق تلك المشكلة من أية قضية أخرى (...) الفرات ينبع من تركيا وهذا لا يمكن ان يناقش على أساس انه قضية دولية».

(٣) Dawood F.A (1983) «Ancient and Modern Irrigation In Iraq» ICID Bul. vol. 32 No.2.

(٤) مروان عبد الله، مجلة الوطن العربي، العدد ١٥٠ بتاريخ ١٩٩٠/١/٢٦.



الاعدام لاغراض سياسية في العراق

د. مقدام عيسى

لقد أجرت هيئة الامم المتحدة منذ فترة قصيرة دراسة لتطبيقات عقوبة الاعدام في ٤٨ دولة، وتبين لها ان هذه العقوبة قد الغيت في ٢٤ منها، في حين أنها توجد في تشريعات ١٢ دولة منها، إلا انها لا تطبق، كما ويجري تقليص تطبيق الاعدام في دول اوربا كافة، وكقاعدة، قلما تصادف هذه العقوبة في التطبيقات القضائية في الدول الآسيوية والافريقية[1]. ترى ما هي صورة الاعدام في التشريعات النافذة في العراق

ان قانون العقوبات العراقي رقم (١١١) لعام ١٩٦٩ م، مثله كبقية القوانين العقابية في البلدان الأخرى، يقوم بتجريم الافعال التي تعتبر اعتداءً يلحق الضرر بمصالح الطبقة الحاكمة، ولذا فان الاعدام في نصوص هذه المدونة يعد من حيث الجوهر والغاية الاجتماعية عقوبة ذات طبيعة طبقية، وتتصف السمة السياسية بكونها الأكثر وضوحاً ضمن سمات هذه العقوبة. فهذه العقوبة تتخذ كقاعدة بالنسبة للافعال التي تعتبر من وجهة نظر النظام الحاكم في العراق جريمة خطرة وبالغة الجسامة. اضافة إلى هذا، تتخذ هذه العقوبة بابعاد كبيرة من قبل محكمة الثورة، والتي لا يمكن وصفها بالمحكمة الدستورية، كما يطبل لهذا ازلام النظام في العراق، فهذه المحكمة التي مقرها بغداد تتكون، وفق القانون رقم (١٨٠) لعام ١٩٦٨ م وتعديلاته لعام ١٩٦٩ م من مدنيين أو عسكريين أو منهما معاً وتختص بالنظر في القضايا المتعلقة بالجرائم ضد الامن الداخلي أو الخارجي وكذا جرائم الرشوة والاختلاس والسرقة والمخدرات، وهي مقارنة بالمحاكم العادية لا تُخضع لاشراف وزارة العدل، فهي تتصل بشكل مباشر بمكتب رئيس الجمهورية، وتعتبر محكمة الثورة المحكمة الخاصة الدائمة الوحيدة في العراق وذلك بعد الغاء محكمة كركوك العسكرية بمقتضى قرار مجلس قيادة الثورة رقم ١٠٠٩ لعام ١٩٨٢ م. ومحكمة الثورة لا

تلتزم بأية ضمانات اجرائية أثناء «المحاكمات»، وخاصة فيما يتعلق بعلانية المحاكمة أو تجسيد حق المتهم في الدفاع عن نفسه، كما أن احكامها غير قابلة للطعن بالاستئناف أو التمييز[٢].

ان اضفاء الصبغة القانونية على تطبيق عقوبة الاعدام «الرسمي» لا يمكن أن يخفي الطبيعة الطبقية والسياسية لهذه العقوبة، بل ان هذا على العكس تماماً يبرز هذه الطبيعة بشكل أكثر وضوحاً، كما ويشير إلى زيف اعلانات النظام الحاكم المتكرر عن ديمقراطية الحياة السياسية والتعـددية الحـزبية، والتي لا يمكن التـطرق اليهمـا في ظل انعـدام الضمـانات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والقانونية، فعن أية ضمانات قانونية على سبيل المثـال يمكن ان يجري الحديث في ظل وجود تهديد باتخاذ عقوبة الاعدام لقاء ممارسة أي نشاط سياسي، مهما كانت ابعاده، سواءً أكان خارج صفوف وتنظيمات الحزب الحاكم أو حتى داخلها؟ فقانون العقوبات العراقي لعام ١٩٦٩ م يعاقب بأشد العقوبات صرامة، وهي الاعدام لكل من ينتمي إلى حزب السلطة ويخفي عن عمد انتماءاته الحزبية والسياسية السابقة، وكل من أنتمى أو ينتمي إلى الحزب اذا ثبت انه يرتبط أثناء التزامه الحزبي بأية جهة حزبية أو سياسية أخرى أو يعمل لحسابها أو لمصلحتها، أو ثبت انتماؤه بعد انتهاء علاقته بالحزب الحاكم إلى أية جهة حزبية أو سياسية أخرى أو يعمل لحسابها أو لمصلحتها، وكذا كل من كسب إلى أية جهة حزبية أو سياسية شخصاً له علاقة بالحزب الحاكم أو كتب إلى تلك الجهة بعد انتهاء علاقته بالحزب المذكور بأي شكل من الاشكال وهو يعلم بتلك العلاقة (المادة/ ٢٠٠ فقرة «٢»).

وفي ٢١/٤/١٩٨٤ م أصدر مجلس قيادة الثورة القرار رقم (٤٥٨) بصدد تطبيق عقوبة الاعدام «بحق كل من يثبت انتماؤه إلى حزب أو جمعية تهدف في تصرفها إلى تغيير نظام الحكم عن طريق القوة المسلحة أو بالتعاون مع أية جهة أجنبية»[٣].

وعليه، فان عقوبة الاعدام في النصوص المذكورة لا يمكن ان توصف إلا بمعاداة الديمقراطية السياسية في العراق. ان عقوبة الاعدام في التشريعات العراقية لا تتخذ بهدف احتكار العمل السياسي فحسب، بل وكذلك للقضاء على «الخصوم» السياسيين. فعلى سبيل المثال، ينص قرار مجلس قيادة الثورة رقم (٤٦١) الصادر في ٣١ آذار ١٩٨٠ م على تطبيق عقـوبة الاعدام على «المنتسبين إلى حزب الدعوة الاسلامية أو العاملين لتحقيق اهـدافه تحت واجهات أو مسميات أخرى»، بل إن هذا القرار يتعارض مع مبدأ رجعية القانون على الافعال المرتكبة قبل صدوره ونفاذه، فقانون العقوبات يتمتع برجعية على الماضي، ان كان مستبعداً للعقاب أو مخففاً له، في حين ان هذا القرار يطبق حتى على الافعال المرتكبة قبل صدوره والتي لم يصدر قرار باحالتها إلى المحكمة المختصة[٤]. ان

هذا القرار يتعارض تماماً مع احكام الفقرة (ب) من المادة ٢١ من الدستور العراقي المؤقت التي تنص على مبدأ «لا جريمة ولا عقوبة إلا بناءً على قانون، ولا تجوز العقوبة إلا على الفعل الذي يعتبره القانون جريمة أثناء اقترافه» والتي وجدت انعكاساً لها في الفقرة (١) من المادة/٢ من قانون العقوبات العراقي والخاصة بسريان القانون النافذ على الجرائم المرتكبة، وكذا المادة/ ٥ منه والمتعلقة بعدم رجعية القانون على الماضي وسريان القانون الاصلح للمتهم، بل أن الفقرة (ب) من المادة/ ٦٢ من الدستور المؤقت قد أشارت بنص صريح إلى انه «ليس للقوانين اثر رجعي إلا اذا نص على خلاف ذلك، ولا يشمل هذا الاستثناء القوانين الجزائية وقوانين الضرائب والرسوم المالية».

ومن المعروف ان مجلس قيادة الثورة كان قد أصدر في عام ١٩٧٨ م قراره المعروف باعدام العسكريين، المتواجدين في صلات سياسية أو حزبية مع أي حزب سياسي آخر غير الحزب الحاكم، وذلك بعد خروجهم من الجيش أو الشرطة بعد ١٧ تموز ١٩٦٨. ان هذا النوع من القوانين النافذة بأثر رجعي يتعارض كذلك مع المادة الاولى (م/١) في قانون العقوبات لعام ١٩٦٩ والتي تنص: «لا عقاب على فعل أو امتناع إلا بناءً على قانون ينص على تجريمه وقت اقترافه». ان سريان النصوص الجنائية الآنفة الذكر باثر رجعي على افعال ارتكبت قبل نفاذها أدى إلى تعرض اعداد غفيرة من المواطنين العراقيين للمساءلة الجنائية أمام المحاكم الخاصة للنظام الحاكم وبالتالي تعرضهم لاحكام الاعدام[٥].

وبأسم الدفاع عن الوطن وبغية القضاء على الخونة وكذا من تسول له نفسه المساس بالسلطة «الثورية والديمقراطية والوطنية. . . الخ» في العراق، فقد أتخذ تطبيق عقوبة الاعدام خلال الحرب العراقية ـ الايرانية أبعاداً كبيرة للغاية وذلك من خلال تحديد هذه العقوبة لقاء عدد من الافعال المعتبرة جرائم (كما يلاحظ ذلك أيضاً بالنسبة لجمهورية ايران الاسلامية، ففي الفترة المحصورة بين ١٩٧٩ ـ ١٩٨٥ م اعدم ما يقارب الاربعين ألف انسان)[٦]. وقد أكد تقرير المنظمة العربية لحقوق الانسان الصادر في القاهرة عام ١٩٨٨ م في فصله الخاص بالعراق على القلق البالغ ازاء اتساع نطاق تطبيق عقوبة الاعدام في قضايا الرأي في العراق وللقائمة الطويلة من الافعال المعاقب على ارتكابها بالاعدام ولشيوع حالات الاعدام دون محاكمة أو بعد محاكمات صورية مقتضبة تفتقر إلى الضمانات القانونية الاساسية المتعارف عليها دولياً، كما وأشار التقرير إلى حالات القتل السياسي (الاعدام غير الرسمي) الذي يتخذ في بعض الاحيان طابع القتل الجماعي[٧].

لقد أحصت المنظمة العربية لحقوق الانسان ١٧ قراراً من آذار ١٩٧٦ م وحتى ١٩٨٧ م يجيز توقيع عقوبة الاعدام في ٢٩ نوعاً من الافعال المرتكبة[٨]، وهذه الاحصائية لم تتضمن بطبيعة الحال كل القوانين الصادرة والمتضمنة على عقوبة الاعدام، فمنذ عام

١٩٨٧ م أضيف الجديد والجديد من القوانين المحتوية على عقوبة الاعدام . واذا فحصنا مجموع الافعال السياسية التي يعاقب عليها قانون العقوبات العراقي ، والتي يبلغ مجموع موادها (٨٦) مادة ، نجد ان عقوبة الاعدام تطبق على (٣٣) حالة من مجموع الافعال التي تترتب عليها هذه العقوبة وفقاً لهذا القانون وعددها (٥٠) حالة ، وهذه الاحصائية قائمة لغاية عام ١٩٧٩ م . فاذا اضيفت اليها الحالات المتضمنة على عقوبة الاعدام الواردة في قانون العقوبات العسكري وقانون الجيش الشعبي وقرارات مجلس قيادة الثورة ، فان الرقم (٣٣) سوف يتضاعف(٩).

ان القوانين المتضمنة عقوبة الاعدام خلال سنوات الحرب العراقية - الايرانية ، كما وصفها تقرير المنظمة العربية لحقوق الانسان الآنف الذكر ، ماهي إلا عبارة عن قيام هذا النظام بتقنين الاستبداد ، فالافعال التي لا يمكن اعتبارها ذات خطورةكبيرة أو بالغة الجسامة يعاقب على ارتكابها بالاعدام ، وعلى الرغم من ان الاعدام يعتبر في القوانين العقابية النافذة في أغلبية البلدان تدبيرا استثنائياً ، فانه في العراق يتخذ ضد كل من أهان رأس النظام أو من يقوم مقامه أو مجلس قيادة الثورة أو الحزب الحاكم أو المجلس الوطني أو الحكومة «بشكل سافر وبقصد اثارة الرأي العام ضد السلطة»(١٠) ، بل وكذلك لقاء تزوير جوازات السفر أو الوثائق الاخرى سواءً الصادرة في العراق أو في البلدان الأخرى(١١) ، أو لقاء التعامل بتهريب العملات مع «العدو الفارسي»(١٢) أو ما شابه من الافعال المماثلة

ان لاعضاء الحزب الحاكم في العراق حصة حتى في قرارات مجلس قيادة الثورة المتضمنة على عقوبة الاعدام ، فقرار مجلس قيادة الثورة رقم (٧٠٠) الصادر في ١٩٨٨/٨/٢٧ م عاقب بالاعدام الهاربين أو المتخلفين من الخدمة العسكرية ، كما وينفذ هذا الحكم أيضاً بالنسبة للقياديين في حزب البعث الحاكم وكذا بكل مسؤول أمني في الشرطة يثبت عليه انه على علم بوجود هاربين أو متخلفين من الخدمة العسكرية في المنطقة المسؤول عنها ولم يتخذ اجراءً ضدهم أو يبلغ السلطات عنهم . وبمقتضى الفقرة (٣) ب من القرار يكون «للرفيق أمين سر القطر رئيس الجمهورية» الشرف في تجسيد نصوص القرار من خلال اتخاذ ما يراه مناسباً بالنسبة للمذنبين وفق القرار «من مستوى عضو قيادة شعبة فما فوق»(١٣).

ان النظام لا يتورع كذلك عن اتخاذ عقوبة الاعدام وبأسم القانون ضد من لم يشملهم القانون بها . فعلى الرغم من ان قانون العقوبات العراقي لعام ١٩٦٩ م يحرم الحكم بالاعدام على القاصرين ، بل ان مواده تحرم الحكم بالاعدام على الاشخاص الذين ، وقت ارتكاب الجريمة ، قد أتموا الثامنة عشرة من العمر ولم يتموا العشرين سنة

ويحل السجن المؤبد محل عقوبة الاعدام (المادة/ ٧٩ عقوبات عراقي)، نلاحظ أن هذه العقوبة تطبق على الاطفال والشباب، فقد أشارت تقارير المنظمة العربية لحقوق الانسان إلى حالات اعدام ٢٩ شاباً من بين ٣٠٠ من الاطفال والشباب، معظمهم من مدينة السليمانية وذلك في اوائل كانون الثاني ١٩٨٧م بدون محاكمة[١٤]. كما وأشارت هذه التقارير إلى اعدام ستة معتقلين من المتعاطفين مع الاتحاد الوطني الكردستاني في ٩ نيسان من نفس السنة في مدينة السليمانية وكانوا دون الثامنة عشرة[١٥].

ونرى ان القرارات الصادرة من قبل مجلس قيادة الثورة والمتضمنة أحكام الاعدام بحق الهاربين والمتخلفين من الخدمة العسكرية تعتبر بدورها دليلاً لا يمكن غض النظر عنه فيما يتعلق باعدام من هم دون الثامنة عشرة أو دون سن العشرين (انطلاقاً من نص الماد/ ٧٩ عقوبات عراقي الآنفة الذكر)، بل أن القرار رقم (س ف/ ١٧٢٥) الصادر في ١٩٨٧/٦/٢١م من الحاكم العسكري العام في كردستان علي حسن المجيد نص على تنفيذ حكم الاعدام فيمن يتجاوز عمره (١٥) عاماً إلى (٧٠) عاماً بعد الاستفادة من معلوماته (الفقرة ٥)[١٦].

ان دراسة القوانين العقابية الصادرة وكذا تطبيقات الاعدام في العراق تشير إلى سمة أخرى مميزة لتطبيق هذه العقوبة والتي تنحصر في اقدام النظام على استغلال أية فرصة لتطبيقها وعلى نطاق واسع، ويلاحظ هذا بشكل خاص في الاوضاع الحرجة التي يمر بها العراق، فالنظام الحاكم يستغل الاوضاع الاستثنائية لاضفاء المسحة القانونية على تطبيقه لعقوبة الاعدام بحق اعداد غفيرة من شرفاء العراق وتحت مختلف الحجج والدواعي العسكرية أو غير العسكرية، ولعل مثالنا على ذلك، كثرة قرارات الاعدام «الرسمي» من جهة و«غير الرسمي» من جهة أخرى والتي نفذت وتنفذ بشكل فوري وفي الاماكن العامة تحت شعار خيانة الوطن بالنسبة للهاربين من طواحين «القادسية».

أن تنفيذ الاعدام بصورة علنية، الذي يطبق في العراق (وكذا في عدد من البلدان الاخرى، كالمملكة العربية السعودية والمغرب وغانا وزائير والكاميرون ونيجيريا والفيلبين وغيرها)[١٧]، يستهدف القاء الهلع في قلوب المواطنين وتطويعهم وجعلهم أكثر انصياعاً للسلطات الحاكمة. وبالتالي ابعادهم عن ساحة النضال ضد النظام الحاكم. أما الصفة الفورية لتطبيق أحكام الاعدام في العراق (أو في ايران)[١٨]، فهي تتعارض تماماً مع كل الاعراف والقوانين المعروفة في عالمنا المعاصر[١٩].

ان تطبيقات عقوبة الاعدام في العراق تتعارض تماماً مع الاعلان العالمي لحقوق الانسان لعام ١٩٤٨م والذي نص في مادته الخامسة على عدم تعريض «أي انسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو التي تحط بالكرامة»، كما

وتتعـارض مع الاتفاقية الدولية للحقوق المدنية والسياسية الصادرة في ١٦ كانون الاول ١٩٦٦ م فيما يتعلق بتحديد عقوبة الاعدام لقاء الجرائم غير الخطرة وكذا تطبيقاتها، فهذه الاتفاقية في مادتها السادسة تنص على أن :ـ

١ ـ لكل انسان حق أصيل في الحياة ويتمتع هذا الحق بحماية القانون، ولا يجوز حرمان أي انسان من حياته بطريقة تحكيمية.

٢ ـ لا يجوز في البلدان التي لم تلغ عقوبة الاعدام الحكم بهذه العقوبة إلا عن الجـرائم شديدة الخـطورة. ووفقاً للقوانين السارية عند ارتكاب الجريمة والغير مخالفة لاحكام هذه الاتفاقية. . ولا يجوز توقيع هذه العقوبة إلا تنفيذاً لحكم نهائي صادر من محكمة مختصة.

٣ ـ يكون لكل محكوم عليه بعقوبة الاعدام حق التماس العفو الخاص أو ابدال العقوبة. ويجوز في جميع الاحوال اصدار العفو الشامل العام أو العفو الخاص أو ابدال العقوبة.

٤ ـ لا يجوز الحكم بعقوبة الاعدام عن الجرائم التي يكون مرتكبها دون الثامنة عشر من العمر، ولا تنفيذ تلك العقوبة على الحوامل.

كما وان اجراءات تنفيذ عقوبة الاعدام في العراق تتناقض مع كافة القرارات التي اصدرتها الجمعية العامة للامم المتحدة في تشرين الثاني ١٩٦٨ م وكانون اول ١٩٧١ م والتي دعت إلى ضمان:

١ ـ عدم حرمان أي محكوم عليه بعقوبة الاعدام من حق الطعن في الحكم لدى سلطة قضائية أعلى أو طلب العفو أو ابدال العقوبة حسب الحال.

٢ ـ عدم تنفيذ حكم الاعدام إلا بعد استنفاذ طرق الطعن أو استنفاذ اجراءات العفو أو ابدال العقوبة حسب الاحوال.

٣ ـ ايلاء اهتمام خاص للأشخاص المعوزين بتقديم المساعدة القضائية اليهم في جميع مراحل الدعوى.

ترى، هل هناك دليل واحد على عدم انتهاك النظام العراقي للنصوص الآنفة الذكر من الاتفاقيات الدولية والقرارات التي أتفق عليها في إطار المنظمات الدولية؟

ان الأدلة الخاصة بانتهاك اجراءات الحكم بالاعدام وتنفيذه أكثر من ان تعد، ولعل أبرزها: الاعدام «غير الرسمي» الذي يجسد النهج الشوفيني للنظام العراقي ازاء القضية القومية، وخاصة خلال الحرب العراقية ـ الايرانية وبعدها. ففي كردستان العراق تجري الاعـدامـات بالجملة، ويُتبع نهج منظم من قبل النظام لأبادة الشعب الكردي، وتكفي الاشارة بهذا الصدد إلى ضحايا مدينة حلبجة وكذا أرياف كردستان

وغني عن البيان ، ان قرارات العفو الصادرة عن النظام العراقي في مختلف سنوات الحرب العراقية - الايرانية وكذا السنوات التي تلتها استهدفت، فيما استهدفته، لفت الانتباه إلى انسانية هذا النظام لاسيما وانه يستبعد عقوبة الاعدام عن معارضيه . إلا ان هذه القرارات وكذا التصريحات المماثلة الصادرة عن قادة الحزب الحاكم ما هي إلا لعبة سياسية تمارس من حين لآخر، وقد خبرها الشعب العراقي ، كما وانها عبارة عن ستار يتوارى خلفه هذا النظام لممارسة أشكال التنكيل

ان دراسة عقوبة الاعدام في مختلف القوانين العقابية ، وبضمنها قانون العقوبات العراقي رقم (١١١) لعام ١٩٦٩ م تدعونا إلى استنتاج المقترحات التالية للبديل الديمقراطي :-

أولاً : استبعاد الاعدام من ضمن العقوبات الجنائية وجعله تدبيراً استثنائياً وذلك بعدم تطبيقه إلا في الحالات القصوى ولاسيما حالات ارتكاب الجرائم البالغة الجسامة، كجرائم الخيانة والجرائم الماسة بالدولة، كالتجسس والتآمر وأعمال الارهاب، والتخريب والاضرار بالاقتصاد الوطني والعصابات المسلحة وكذا الجرائم الجسيمة الاخرى، كالاستيلاء الجسيم والاغتصاب والقتل في ظل الظروف المشددة .

ثانياً : لا يوجد مبرر لاتخاذ تدابير المسؤولية الجنائية والعقوبة (وبضمنها الاعدام) لقاء ما يسمى بالجرائم السياسية ، أي تلك الجرائم التي ترتكب لاهداف (بواعث) سياسية ، فالتطورات الجارية في عالمنا المعاصر تحتم خروج هذا النوع من الافعال من دائرة التجريم ، فتشكيل الاحزاب السياسية وغير السياسية أو الانضمام اليها والمشاركة في نشاطاتها وكذا مختلف الانشطة الاخرى المماثلة ما هي إلا تجسيد للديمقراطية السياسية في أي مجتمع متحضر، يستهدف بناء دولة العدالة والقانون .

ثالثاً : ان انسانية قانون العقوبات العراقي يمكن أن تبرز باتخاذ جملة من التعديلات عليه ، وبضمنها الغاء عقوبة الاعدام بشكل كامل لقاء كافة الجرائم الواردة فيه ، ولكن متطلبات المرحلة القادمة من المجتمع الديمقراطي البديل تفترض الابقاء على هذه العقوبة لفترة أخرى من الزمن، على ان تطبق في ظل عدد من الاستثناءات التي أوردتها المواثيق الدولية، ولهذا فان انسانية قانون العقوبات للمرحلة القادمة تملي استبعاد كافة المواد العقابية الخاصة بتطبيق عقوبة الاعدام على القاصرين والنساء الحوامل بصرف النظر عن جسامة الجرائم المرتكبة .

رابعاً : ان تجسيد مبادىء القانون الجنائي الاساسية ومنها : لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص والمساواة أمام قانون العقوبات وتفاوت المسؤولية الجنائية والعقوبة والعدالة وغيرها

وكذا مبادىء الاجراءات الجنائية وخاصة حق المتهم في الدفاع عن نفسه والمتهم بريء حتى تثبت ادانته واستقلالية القضاة وعدم خضوعهم سوى للقانون وعلانية المحاكمة . . . الخ ، والغاء المحاكم الخاصة بنوعيها الدائم والمؤقت ، واعادة النظر في القوانين الجنائية النافذة والاجهزة المنفذة لها ، كلها تعتبر ضمانة لتجسيد أهداف السياسة الجنائية لدولة العدالة والقانون التي نطمح اليها ، وبدون هذه الضمانة لا يمكن الحديث عن تطبيق عقوبة الاعدام باعتبارها تدبيراً استثنائياً .

الهوامش

(١) انظر: كودريافتسوف ف. ن. من أجل العقوبة الجنائية انسانية/ في كتاب الاعدام بين الابقاء والالغاء، موسكو، المنشورات القانونية، ص ٣٩٩ (باللغة الروسية).

(٢) انظر: تقرير المنظمة العربية لحقوق الانسان «حقوق الانسان في الوطن العربي»، الفصل الخاص بالعراق، القاهرة، ١٩٨٨ م/ في مجلة الثقافة الجديدة، عدد (٢٠٥)، ص ١٦ - ١٧ .

(٣) انظر: الجريدة الرسمية، الوقائع العراقية، رقم ٢٩٩٢ في ١٩٨٤/٥/٧ .

(٤) انظر: تقنين الاستبداد، الثقافة الجديدة، رقم ٢١٢ ، ص ٨٨ .

(٥) انظر: ابو حاتم، خصوصيات التشريع الجنائي السياسي في العراق/ الثقافة الجديدة رقم (١٥٠)،

(٦) انظر: ليخاتشوف ف. أ. القانون الجنائي في البلدان المتحررة، موسكو، دار العلم، ١٩٨٨ م، ص ٩٢ (باللغة الروسية).

(٧) انظر: تقرير المنظمة العربية لحقوق الانسان، مرجع سابق، في مجلة الثقافة الجديدة، العددين ٢٠٥، ٢٠٦ .

(٨) انظر: ابو حاتم، خصوصيات التشريع الجنائي السياسي في العراق، مرجع سابق، ص ٢٤ .

(٩) انظر: الجريدة الرسمية، الوقائع العراقية، رقم ٣١٢٣، في ١٩٨٦/٢٢/٧ م. (قرار مجلس قيادة الثورة رقم ٨٤٠ بعد تعديل المادة/ ٢٢٥ من قانون العقوبات العراقي).

(١٠) انظر: المرجع السابق، رقم ٣٠٨٥ في ١٩٨٦/٢/٢٧ م (قرار مجلس قيادة الثورة رقم ١٢٠).

(١١) انظر: المرجع السابق، رقم ٢٩٨٦ في ١٩٨٤/٣/٢٦ م (قرار مجلس قيادة الثورة رقم ٣١٣).

(١٢) انظر: الثقافة الجديدة، رقم ٢١٢ ، ص ٩٣ .

(١٣) انظر: تقرير المنظمة العربية لحقوق الانسان، مرجع سابق، الثقافة الجديدة، رقم ٢٠٦ ، ص ٢٣ .

(١٤) انظر: المرجع السابق، ص ٣٥ .

(١٥) انظر: الثقافة الجديدة، رقم (٢١٢)، ص ٩٥ .

(١٦) انظر: بتليف ف. أ. كوزاجكين إ. د: ليخاتشوف ف. أ. القانون الجنائي في البلدان النامية، موسكو، جامعة الصداقة بين الشعوب، ١٩٨٨ م، ص ١٢٣ (باللغة الروسية).

(١٧) انظر: المرجع السابق، ص ١٢٢ .

(١٨) انظر: كودريانتسوف ف. ن. المرجع السابق، ص [illegible]

الهجرة:

«اعادة زرع القديم مع البحث عن الجديد»

ابو يسار

كتب لي صديق عزيز مهنئا بمطلع هذا العام ومستفسرا عن الظروف الحياتية والعملية في المهجر، في بلاد جديدة وبعيدة كل البعد عن الوطن. جلست أخط له بعض السطور فوجدتني اتأرجح بين قطبين، الاول يرتضي بالتغيير في اسلوب الحياة والاعجاب بتطور العلوم والتكنولوجيا والخدمات في هذا الجزء من العالم، والثاني يرفض الواقع ويستمر على العناد في التمسك بالماضي مُزيدا من قوة الحنين إلى الوطن ومعرقلا التكيف مع الحاضر.

من هنا تولدت لديّ الحاجة إلى فهم اعمق لجوانب هذه الظاهرة التي عايشتها قرابة ١٢ عاما، فكانت هذه المقالة التي تمثل مراجعة سريعة في محاولة لتناول العديد من المشاكل والتحديات التي تواجه مئات الالاف من العراقيين الذين استأصلت جذور القلة منهم بالاختيار والغالبية العظمى بقوة الظروف وبالضد من ارادتهم.

ان الانتقال بالنسبة للكثيرين في عالمنا اليوم يعني البحث عن فرص جديدة، وحريته حق اساسي لا يمكن حجبها، ومع ذلك فهو ليس بالفرصة أو الاختيار الحر للملايين من الناس خصوصا اللاجئين السياسيين وغيرهم الدين اجبروا على ترك اوطانهم.

ان ما جاء به اريك إركنسون عام ١٩٦٠ قد يعتبر افضل تعريف للهجرة حين قال «ان الهجرة هي عملية تغيير يجرى خلالها اعادة زرع جذور قديمة مع البحث في الوقت نفسه عن جذور جديدة». وهوما يعزز حقيقة حاجة المهاجر المنهك نتيجة لاقتلاع جذوره إلى المساعدة المبكرة لتقصير فترة المعاناة في ايجاد جذور جديدة.

دوافع الهجرة:

لقد ركزت الكثير من الدراسات على البحث عن دوافع الهجرة في محاولة لفهم العوامل المساعدة أو المعرقلة لها، وفيما يلي ندرج اهمها:ـ

ـ طبيعية أو مادية: الحرب، الكوارث الطبيعية، الجفاف، المجاعة، الفيضان، والمناخ.

ـ اقتصادية: البطالة، تدني مستوى المعيشة، غياب الضمان الاجتماعي أو تحسنه، إعادة التسكين الحكومي، والتصنيع.

ـ اجتماعية: عائليه، سكنيه، مستقبل الابناء، القرب من الاهل والاصدقاء.

ـ نفسية: مشاكل شخصية، الهرب، مشاكل التكيف مع المجتمع، الخوف من المقاصاة، المغامرة.

ـ دينية: التضييق على الديانات.

ـ مهنية: انخفاض الاجور، عدم توفر الفرص المناسبة، غياب البحوث.

ان القدرة على حل المعارضات من خلال الهجرة تعتمد على عوامل عديدة، منها الاستقرار الشخصي، السن، العائلة، الامكانيات المادية، توفر المعلومات، الخبرة بالانتقال وتوقيته، وامكانية الاستقرار في البيئة الجديدة.

أنواع الهجرة:

ان الهجرات جميعها تشترك في ظاهرة الدفع والجذب للمجتمعين، الاصلي والجديد، على التوالي، وتأخذ أشكالاً عديدة منها:

ـ **المحلية والدولية**: في الاولى يغير المهاجر سكنه داخل حدود بلده بينما في الثانية يحتاج إلى موافقة المسؤولين في البلد المضيف، ويتعرض إلى فوارق حضارية وثقافية كبيرة، بالاضافة إلى انفصاله عن أهله واصدقائه.

ـ **الطوعية أو القسرية**: الاولى يبدؤها المهاجر بينما الاخيرة تفرضها الحكومات، الثورات، الاحتلال العسكري، العوامل الطبيعية، والضغط المعادي في المجتمع المحيط. اللاجئون الذين لا يمتلكون وطناً للعودة اليه يشكلون الغالبية العظمى من اعضاء الهجرة القسرية.

ـ **الدائمية أو المؤقتة**: في الاولى يجري الترحيب بالقادمين بسبب امكانية تحولهم إلى مواطنين، بينما نرى المهاجرين المؤقتين يفدون إلى البلدان ذات المستويات

الاقتصادية العالية ، للعمل أو الدراسة ، ومن الملاحظ ان الكثير منهم يحبذ الاستقرار بدلاً من العودة إلى البلاد الاصلية .

التكيف ومراحله :

تضع البلدان الرئيسية في استقبال المهاجرين ، كالولايات المتحدة وكندا واستراليا وغيرها ، الكثير من الضوابط المتعلقة بالصحة ، القدرات الثقافية والعلمية ، العمر ، الامكانيات المالية ، حسن السيرة ، واخيرا (بشكل ضمني أو معلن) البلد الاصلي . وقد تتغير شدة الضوابط من بلد لآخر ، أو من زمن لآخر ، اعتماداً على الحاجة الفورية للايدي العاملة والظروف المحلية والدولية .

بالرغم من ان القوانين في هذه البلدان تعتبر التمييز ضد المهاجرين شيئاً من الماضي إلا ان القبول التام بالقادمين الجدد يبقى هدفا واهيا بسبب الخلفية العنصرية للمجتمع ، والتي تحدد على ضوئها حقوق الفرد ، كما وان عموم الناس غير مهتمة بمصير المهاجرين ، فهم منشغلون في تدبير حياتهم التي لا يريدون لها ان تتعكر بوصول الجدد .

ان التكييف عملية معقدة وتتضمن تغيرات اجتماعية ، قانونية ، عائلية ، شخصية ، وبيئية ، وتتأثر بالاسباب التي أدت إلى الهجرة ، التركيب الشخصي للمهاجر ، المهارات ، المعلومات ، والقيم التي يجلبها إلى المجتمع الجديد . وكذلك بالسياسات الاجتماعية ، الاقتصادية ، والسياسية في المجتمع القديم والجديد . يبدأ التكيف بالمرحلة الاولى في متابعة المهاجر لما حوله من الاشياء الغريبة والمنظمة إلى حد بعيد بشعور عال من الرضا يرافقه شعور قوي بتبرير قرار الهجرة بالرغم من ان التكيف يكون في البدء سلبياً فيما يتعلق بمستوى المعيشة والعمل وشحة الاصدقاء . هذا الرضا الاولي تتبعه مرحلة من القنوط ناتجة عن الصدمة الحضارية ، الحنين إلى كل شيء عزيز تُرك في الوطن ، والتمييز ضده من قبل المجتمع الجديد .

أما اللاجيء السياسي ففور توجهه إلى البلد الذي سيمنحه حق اللجوء تبدأ عنده الاولويات بالتغيير من الخوف من الاخطار في بلده الاصلي إلى التساؤل عن المجهول الذي سيواجهه . وتمثل الهجرة بالنسبة له درجة أعلى من الضغط العصبي بكونها غير طوعية مفاجئة وغير مخطط لها ، وخطرة في أغلب الاحيان ، إلا انها قد تكون في الوقت نفسه عاملاً مخففاً للحنين إلى الوطن اذا ما قارن المهاجر حياته الجديدة بتلك التي تركها .

حينما يصمد المهاجر خلال المرحلة الاولى بدون العودة إلى بلده الاصلي تكون

المرحلة التالية اعادة درجة الرضا العالية من خلال الاستقرار الذي تشهده حياته على مستوى الدخل، الثقافة، العاطفة، العائلة، والثقة بالنفس. وهذه المرحلة تسند المرحلة الاخيرة التي يبدء فيها المهاجر بالاندماج مع البيئة الجديدة مؤدية في النهاية إلى تكيّفه.

ان عملية التكيف التي نعني بها هنا سلسلة من ردود الافعال الشخصية التي تحددها درجة معينة من الثقافة، التاريخ، والخصوصية النفسية لمواجهة صدمة الهجرة، طريقة الحياة الجديدة، الثقافة المختلفة، الصعوبات والمعاناة، ومختلف أنواع التمييز، تحتاج من المهاجرين التمكن من خلق حياة قادرة على مد الجسور بين المجتمعين القديم والجديد. القلة لهم القدرة على مثل هذه المواجهة بدون مساعدة الهيئات الرسمية في البلد المضيف أو الجالية التي ينتمي اليها والتي بامكانها تقديم الكثير من الخدمات لابنائها من خلال مؤسساتها وجمعياتها مكونة جسراً يربطهم بالمجتمع الجديد، والعمل كرابطة نفسية مع مجتمعهم الاصلي، من خلال المحافظة على ثقافاتهم وتقاليدهم، واحياء الصلات بالاهل والاصدقاء، والتخفيف من صعوبات اللغة.

لقد جرى الاقرار في الكثير من البلدان المضيفة بحاجة المهاجر إلى فترة زمنية مناسبة لاتمام عملية التكيف، إلا انه للأسف نادراً ما يجري الأخذ بذلك عند صياغة سياساتها الاجتماعية مسببة بذلك زيادة صعوبات المواجهة الاولى للمهاجر. وتتناسب هذه الفترة عكسياً مع الالمام باللغة، المستوى الثقافي، المستوى الاقتصادي/ الاجتماعي، الخبرة بثقافات وبيئات مختلفة، درجة المعرفة بالبيئة الجديدة، الثقة بالنفس والاستقرار العاطفي، وتتناسب طردياً مع السن، قوة الروابط بالوطن الاصلي، والتغيير في الظروف الجغرافية. عموماً، فالمهاجر لا تستقر احواله إلا بعد انقضاء العام الخامس، أو أكثر، من وصوله، وقد لا يحصل التكيف بالمرة حين توفر له جاليته المستلزمات الاولية للمعيشة اذا ما كانت من الجاليات الكبيرة والقديمة. أما الاندماج الكلي، أي حين يشعر الفرد بأنه وسط مجتمعه، فقد تأخذ من الوقت ما يمتد إلى الجيل الثاني أو الثالث.

ان العوامل النفسية التي تتصل بحياة المهاجر والضغط العصبي (الذي يمر به لا محالة) قد تكون عوامل معيقة للتكيف اذا لم يجر تسييرها بشكل سليم خصوصاً فيما يتعلق بالشعور بالذنب لترك الأهل والاصدقاء، الشعور بعدم الامان والوحدة، الاعتماد على المعونات والمساعدات الشحيحة التي تقدم له، تحول التوقعات العالية والاحلام إلى كوابيس حين لا يجد النموذج الحياتي الذي كوّنه عن المجتمع الجديد في بلده الاصلي، ومواصلة المقارنات بين حياته الجديدة وتلك التي تركها في الوطن.

الرجال المسنون ذوو المراكز الاجتماعية المتقدمة في بلدانهم يتعرضون بالهجرة إلى خسارة كبيرة لحالتهم الاجتماعية حين يواجهون بالحاجة إلى القبول باعمال وضيعة،

صعوبات تعلم لغة جديدة. ويتفاقم شعورهم بالخضوع حين يكون على زوجاتهم العمل (وهي الحالة الأكثر شيوعاً لدى المهاجرين) لتحمل اعباء الحياة المعيشية. وهذه الظاهرة المألوفة عند المتخصصين بعلم النفس ترافق الكثير من الرجال المهاجرين وتدعى «انخفاض الحالة الاجتماعية».

الشباب من الرجال هم ايضاً عرضة إلى الارهاق العصبي بسبب صعوبات العمل وآثار البطالة. النساء اللواتي تتطلب منهن ضرورات التكيف يحملن نفس القدر من الصعوبات بالاضافة إلى الوحدة وقضاء ساعات طويلة داخل المنزل، خصوصاً بالنسبة لامهات الاطفال الصغار، فضلاً عن تعرض الكثير منهن للضرب حين يصبحن هدفاً سهلاً للزوج داخل المنزل لتفريغ شعوره بالاحباط. النساء ذات المسؤولية العائلية كالارامل والمطلقات تكون معاناتهن النفسية مضاعفة نتيجة العزلة ليس عن المجتمع الجديد وحسب، بل حتى عن أفراد الجالية التي ينتمين اليها.

الاطفال هم ايضاً ينالون قسطهم من الصعوبات كالحاجة إلى لغة اجنبية والقبول بحياة جديدة لمواكبة متطلبات الدراسة باسرع وقت. ان تعليم الاطفال يكون دائماً ضمن الاولوية المهمة، التي يسعى المهاجر إلى تحقيقها، ولكن مع وجود صعوبات اللغة والفوارق الثقافية فان الاطفال غالباً ما يحرمون من الاستفادة التامة من المنافع التعليمية المتاحة، ويعانون من الفوارق بين البيئتين المختلفتين في المدرسة والبيت. ان الاطفال هم الأكثر قدرة على التكيف وتكوين روابط قوية مع كلا البيئتين اللتين تختلفان في متطلباتهما، إلا انهم الأقل انتماءاً لأي منهما. وهذا يولد شكلين من الصراع، الاول خارجي، مع البيئة الجديدة، والجالية، والخلاف العائلي حول الملبس والمأكل والاصدقاء واللغة التي يجب التحدث بها داخل البيت وهو ما يعرف بالتعارض الثقافي، والثاني داخلي يخص تحديد الهوية، خصوصاً في المراحل اللاحقة لحياتهم.

ان التمكن من لغة البلد المضيف هي أولى المتطلبات للقادمين الجدد ويجب تعلمها باسرع وقت. وبعكسه فانهم سيستمرون في المعاناة من الاضرار الاقتصادية والاجتماعية. ان تعلم لغة جديدة يعني تعلم الاندماج مع المجتمع الجديد، والتخلي عن بعض مكونات المجتمع القديم.

. من المهام الاساسية للمهاجر مواجهة التحدي في المجال الاقتصادي والمالي للبيئة الجديدة لسد حاجاته، على المدى القصير والطويل، واتخاذ العديد من القرارات التي تخص فرص العمل، توفير السكن، الملبس وغيرهما، وبما يتناسب مع فرص العمل المتاحة، القدرات العلمية والفنية التي يمتلكها، القدرة على المنافسة، فرص التدريب والتطوير المتوفرة، وهذا تحدٍ مهم خصوصاً بالنسبة للقادمين من الريف المتواضع إلى

البلدان المتقدمة صناعياً.

ان الهجرة اذا ما كانت طوعية أو اجبارية، ايجابية أم سلبية، فان التكيف كثيراً ما ترافقه الانفعالات النفسية القوية، القلق، الكآبة، الحنين، بالاضافة إلى الغضب والاحباط. وان وجود فرص ايجابية لتنفيس مثل هذه الانفعالات يكون ضرورياً لاستكمال عملية تكيف ناجحة. لقد بينت الكثير من الدراسات ان الامراض العصبية تظهر وسط التجمعات الصغيرة للمهاجرين بنسبة أكبر من وجودها في التجمعات الكبيرة. الاسباب غير واضحة تماماً، ولو ان الاتجاه يميل إلى دور الجالية في العمل كمصدّ لتحمل صدمة الهجرة والتكيف في اجواء بيئية وثقافية جديدة. ان وجود جالية تمتلك جمعيات ومؤسسات فاعلة يمكن المهاجر من توفير متطلباته الآنية من خلال العمل ضمن المجالات التي تنشط بها جاليته، ولكن ذلك قد يكون على حساب اندماجه على المدى البعيد في المجتمع الجديد. من المفيد هنا ان نشير إلى ان الجاليات الصغيرة تستبعد عن الاعمال ذات الاجور العالية ويسمح لها التخفيض من بعض الاعمال الضرورية غير المنافسة لاعمال ابناء البلد المضيف، والتي تحتاج إلى عمل العائلة باكملها وبدخل عام يقل عن معدل أجور العاملين في البلد.

استنتاجات:

لقد اظهرت البحوث والدراسات التي جرى الاطلاع عليها عدم وجود اتجاه عام متماثل لعملية التكيف وغياب مقياس موحد لدرجتها، إلا انه يمكن ملاحظة اتجاهات عامة مشتركة وظواهر متكررة لعملية التكيف مع اجواء الحياة الجديدة بين العديد من تجارب الهجرات في العالم، ومنها:

١ - ان الهجرة بحد ذاتها ليست مشكلة، لذا لا يجب منعها أو بالاحرى لا يمكننا منعها حتى ولو حاولنا.

٢ - تردي الموقع الوظيفي والاقتصادي بالنسبة لاصحاب الشهادات العالية، ولكن تحسن الظروف المعيشية للعمال غير المهرة.

٣ - العوامل المساعدة على التكيف تكون اقتصادية، ثقافية، وعاطفية بما فيها التضامن العاطفي داخل الاسرة الواحدة.

٤ - اعضاء الاسرة الواحدة يظهرون بشكل عام درجة متماثلة من التكيف مع المجتمع الجديد ومع ذلك يمكن ملاحظة اتجاهات محددة لافرادها بسبب اختلاف السن، الجنس، الحالة الزوجية، التعليم، الخبرة الحياتية السابقة، وغيرها.

٥ ـ تحسن الظروف الاقتصادية بعد حوالي خمس سنوات من الاستقرار اذا ما قارن المهاجر حياته بما كانت عليه قبل الهجرة. بعض الدراسات تشير إلى ان ثلثي المهاجرين يتفقون مع هذا الافتراض، ولو انهم يعانون ايضاً من تردي العلاقات في وسط العمل ومع الاصدقاء.

٦ ـ امكانية المهاجرين على التكيف والبقاء، ولو أن مساراته قد تكون ايجابية أو سلبية اذا ما قيست بتحسن الاحوال الحياتية والصحة.

٧ ـ يتحسن التكيف مع البيئة الجديدة مع مرور الوقت.

٨ ـ مشاكل التكيف تتفاقم مع انخفاض المستوى الثقافي والاقتصادي للمهاجر، بالاضافة إلى ان درجة المعرفة باللغة الجديدة ترتبط إلى حد كبير بمدى الشعور بالثقة بالنفس.

٩ ـ الشعور بالاكتفاء يعتمد على الرضا عن اشياء محددة كالعمل، احوال العائلة، الاصدقاء، الدخل، البيئة، التسلية وغيرها. ولو ان هذا الافتراض غير مدعم بشكل كامل اذ ان الحياة الجديدة قد تغير من نظرة المهاجر إلى الاولويات التي ترضيه بل وقد تغير حتى من نظرته إلى ذاته.

١٠ ـ لا يزال هناك القليل ممن يعتمد وجهة النظر القائلة ان درجة التكيف تعتمد على التقارب الحضاري بين المجتمعين الاصلي والجديد ولو ان البعض يناقضها اعتماداً على هجرة الايرلنديين إلى انكلترا حيث كان ابناء الريف الايرلندي اسهل تكيفاً من ابناء المدن.

١١ ـ التكيف يتناسب طردياً مع الاستيعاب والتوجه الشخصي بالاضافة إلى القدرات الثقافية قبل الهجرة، وعكسياً مع الانشداد العائلي والقومي.

١٢ ـ التمكن من اللغة الجديدة يقوي الارتباط بالمجتمع المضيف.

١٣ ـ لا توجد فروقات ملحوظة عن الارتضاء الوظيفي بين الرجال والنساء.

١٤ ـ اداء الاطفال الدراسي مرتبط بقبولهم بالحياة الجديدة بشكل عام، وعدم الرضا العاطفي لديهم قد يؤثر على ادائهم الدراسي.

١٥ ـ صغار السن قد يجدون انفسهم أكثر كفاءة في تعاملهم مع المجتمع الجديد ويظهرون ثقة بالنفس أعلى من المتقدمين عنهم بالسن، إلا انهم أقل اعترافاً بالتوتر العصبي.

١٦ ـ المستوى الاقتصادي ـ الاجتماعي قبل وبعد الهجرة يؤثر بشكل كبير على التكيف. الافراد ذوو الوضع المريح قبل الهجرة يتوقع لهم الاداء العالي بعدها.

١٧ ـ درجة التكيف العاطفي تتناسب عكسياً مع حجم المصاعب التي ترافقه.

ان الاستنتاجات اعلاه لا يمكننا التعامل معها إلا على أساس كونها افتراضات فيها الشيء الكثير من الصحة بسبب اعتمادها وبدرجات متفاوتة على ردود افعال الاشخاص ذوي الخلفيات المتباينة تجاه ظروف حياتية مختلفة وجدوا فيها.

بالرغم من اهمية موضوع الهجرة للكثير من شعوب العالم واغنائه بالعديد من البحوث والدراسات إلا انه يبقى ناقصاً للكثير من جوانبه وبالذات موضوعة التكيف والاستقرار بعد الهجرة.

في الكثير من البلدان المستقبلة قد يسمح للمهاجر بالاستقرار ولكن لا تجري خدمته بشكل جيد من قبل المؤسسات التعليمية، الصحية، المهنية، الاجتماعية، والترفيهية. ومن أسباب ذلك الاجراءات البيروقراطية، والتخصص المفرط في عمل مراكز الخدمات الانسانية (التي يصعب تحديد مواقع ومهمات كل واحدة منها)، والتمييز في المعاملة. وفي بعض الحالات يظهر التناقض واضحاً بين الضغط عليه للتكيف مع البيئة الجديدة من جهة، وضغط رفضها له من جهة أخرى، ويكون خلالها مطالباً بالتصرف وفق تقاليد المجتمع الجديد ولكن دون ان يكون فرداً فيه.

لذا فان المهاجرين يسعون إلى تشكيل التجمعات الخاصة بهم والتي توفر لهم الدعم الاجتماعي والنصح حول أفضل سبل العمل والمعيشة، ولكنها من جهة أخرى قد ترتبط بعلاقات غير ودية مع المجتمع الكبير.

وقد تُولّد مثل هذه المجتمعات على أسس زيادة الروابط القومية أو الدينية فقط دون ان تكون عوامل مساعدة على تكيّف المهاجرين مما يزيد من معاناتهم الحادة خصوصاً بالنسبة إلى الفئة المثقفة من المهاجرين. ويمكن ان يكون هناك استثناء ايجابي واحد لمثل هذا الاتجاه وهو امتزاج المثقفين في مجاميع ثقافية خارج الاطار العرقي أو الطائفي، والتي هي الأخرى لها تأثيرات سلبية من خلال امتصاص المثقفين خارج التجمعات القومية أو الدينية مما يعزز من عزلتها وتقوقعها.

لقد اصبحت المشكلة التي تواجه المجتمع العراقي في اضطرار مئات الالاف من ابنائه على العيش خارج الوطن خلال العقد الاخير مشكلة وطنية مهمة، لذا نجد من الضروري ايلاء هذا الموضوع القدر الذي يستحقه من الاهتمام لزيادة فهمنا له وتطوير قدراتنا على استيعاب اولئك الذين اجبرتهم الظروف الاستثنائية في الوطن على ان يكونوا بيننا في بحثهم عن مستقر وحياة آمنة ومساعدتهم على مواجهة المشاكل والصعوبات الجمة في اجواء حياتهم الجديدة.

كندا - آب - ١٩٩٠

غائب طعمة فرمان

* مفارقات عدة لازمت غائباً كروائي منها: إنه الروائي الأكثر حرصاً على تصوير مفردات وطنه والأقرب، قياساً بزملائه، إلى نبض الشعب العراقي في وقت أمضى فيه أغلب سنوات نشاطه الابداعي في المنفى!

* شاقة.. وشاقة جداً هي المهمة التي يتولاها المرء في تقديم كاتب، كغائب، في كلمات قليلة.

* رغم أن غائباً واحد من أبرز رواد الرواية العراقية إلا ان ما كُتب عنه من نقد عراقي أو عربي لا يبلغ أهمية هذا الروائي. وغائب هنا، نموذج للكاتب العراقي الذي يأخذ مكانه الطبيعي، نقدياً، داخل وخارج وطنه لأنه كتب ضد السائد.. ضد الظلم والنفاق الاجتماعي.. ضد القمع المتنوع الذي تمارسه سلطة بلاده الاستبدادية. بمعنى آخر، فان غائباً لم تروج له منابر الدولة ولم تسوّقه تجارياً كما تفعل عادة لكتابها وفنانيها كما انه لا يحسن «صناعة» الاعلام الشخصي، بل ما أشد احراجه عندما يطلب منه الحديث عن نفسه! لكن الناس، ممن يقرأون الكتب - وهم كثيرون في العراق، يعرفون غائباً كأحد ابرز المعبرين عنهم.. عن تطلعاتهم المشروعة لحياة أكثر دفئاً واستقراراً وعدالة.

* ومثلما اختار غائب ان يكون معبّراً عن قضية شعبه الجوهرية: الحرية والسلام والديمقراطية، فانه لم يتعكز على حزب.. لم يعنون كتاباته بشعار سياسي.. لم ينضم إلى منظمة حزبية.. بل فضل الابداع الصعب: الكتابة.

* ... ولكن سؤالاً مثل: هل ان فقيدنا لم يكن سياسيا؟، هو سؤال سهل وتبسيطي. فغائب، كمبدع، ينظر إلى السياسة وينقدها بوسيلته الخاصة: الكتابة الابداعية، واستطاع عبر رواياته وقصصه القصيرة ومقالاته ان يقول ما لا يستطيع الآخرون قوله بوسائل اخرى.

* من السهل ان يكتب المرء عشرات البيانات السياسية في أيام عدة.. ولكن من الصعب عليه، وحتى لو كان كاتباً، ان يكتب رواية واحدة في سنوات عدة.

* لو عاش غائب في وطنه، كمواطن وككاتب، حياة تليق به.. حياة كاتب ومواطن له حقوقه وواجباته، ولا يضطر لأن يكون منفياً بسبب الاستبداد.. هل كان سيفارقنا في منتصف الطريق؟ على الأغلب ان سنوات النفي وعذاباته وسلطة الغربة هي التي كسرت قلماً لم يزل طرياً، مفعماً بالمعنى والأمل والعطاء.

* ملف هذا العدد من «أدب وفن»، ملف ناقص. كان يمكن ان يكون أكثر تنوعاً وفائدة لو ان اصدقاء وزملاء غائب من الكتّاب والمثقفين امدونا بما عرفوه عن غائب منذ اعلاننا عن هذا الملف قبل عدة أشهر على صفحات مجلتنا.. ولكن قد يكون لهم العذر.. ولنا أيضاً.. ولكننا، مع ذلك، مقصرون!

«أدب وفن»



جماليات البساطة وتواضع الاحلام الكبيرة

فاطمة المحسن

في المسيرة الادبية والشخصية للروائي العراقي الراحل غائب طعمة فرمان يمكننا تلمس العـلاقـة بين ادب مرحلة الخمسينـات الريادية في العراق، وبين واقع اجتماعي وسياسي تكمن في بنيته وخارجها عوامل رفض لممكنات التغيير في داخله، فرواد مرحلة الخمسينات في العراق في الشعر وفي القصة والتشكيل وتحديث التاريخ، كانوا يشكلون اتجاهاً طلع من حالة توق جماهيري إلى التغيير، ولكن هذا التوق لم يمكنهم من ان يجدوا في وطنهم مكاناً لائقاً في خضم صراع سياسي واجتماعي ضارٍ. لذا عاش أكثرهم منفياً أو محارباً في وطنه وغائب طعمة فرمان الذي مات في منفاه في آب (اغسطس) المنصرم غادر وطنه منذ مطلع الخمسينات مطارداً ممنوعاً من الدخول إلى العراق، بل محروماً في عهود عدّة حتى من مواطنته الرسمية. ولكن تجربة المنفى كانت حافزاً لخوض غمار فن الرواية الـذي تأخـر ظهوره، كفن مكتمل في العراق قياساً على مصر، وبعض البلدان العربية الأخـرى، ولكي يسجـل روائياً وقصصياً تلك الحقب الحـاسمـة المجهولة في التاريخ الاجتماعي والنفسي للعراقيين.

ومع ان غائب طعمة فرمان، كغيره من رواد الابداع الحديث في العراق، كان أسير وظيفة اخلاقية للفن، رأت في التنوير الخلقي معتقداً تشاد عليه المقاصد الجمالية غير انه لم يكن ممن يبحثون في ثنايا النص عن حقائق مطلقة أو مقولات جاهزة، بل حاول قدر طاقتـه، وكان رائداً بحق في ان يجعل لليومي وللتجربة الحياتية الصادقة حضوراً مكثفاً يطغى عن كل جاهزية يمكن ان تبتذل الكاتب أو تحجمه في قوالب محددة. لذا تميزت روايته عن رواية الجيل الاول العشريني. الذي كان أبرز ممثليه محمود أحمد السيد وذنون ايوب بخلوها من الخطابية وبنضوج أدواتها الفنية.

الصيغـة الافتراضية للممكنات الروائية لدى غائب طعمة فرمان بدأت من أعماق ذاكرة تحولت في الاحياء القديمة لبغداد، يُعيد تشكل معالم مجتمع مديني يضع قوانينه

الناظمة بخطوط متنافرة تحددها صراعات اجتماعية واضحة المعالم، فبدت رواياته في منحاها الظاهري دفاعاً مستميتاً عن حدود التكافل الاجتماعي، الذي تسوره احياء الفقر القديمة، وازقتها المتهالكة التي تستر عري الجوعى والساعين وراء النزر اليسير من العيش، أولئك الذين يهدد وجودهم زحف البناء الحديث.

تلك المعادلة بوجهيها الايجابي والسلبي ـ معادلة التطور والتخلف ـ في منحاها الأبعد، تطرح مقولة اخلاقية يمكننا اذا اعدنا قراءة كل أعمال فرمان الروائية، بل قصصه الاولى، لن نتلمس من خلالها واقعية مفهومية تتعامل مع نظائر الواقع لغرض تسليط الضوء على حقائق أشمل من حيوات صغيرة لاناس عاديين. فاللحظة الجزئية في مسار تاريخ اجتماعي واسع، كانت لحظة الكتابة الروائية المقتنصة لدى كاتب مثل غائب. واللحظة الجزئية التي يتم التركيز هنا عليها تعني متابعة نُمو الصراع الفردي، الذي يحدد بتراكمه معالم الوعي الاجتماعي العام.

ومنذ تخطيطاته الاولى لمشاريعه الروائية التي بدأت تجلياتها في مجموعته القصصية الثانية «مولود آخر» التي اصدرها في نهاية الخمسينات، بعد مجموعته الاولى «حصيد الرحى» ١٩٥٤، بدأ فرمان يختط سيرة ابداعية متمايزة. فعدا عن بنائه ولغته في مجموعته الثانية التي في مقدورنا ان نعتبرها إلى اليوم خطوة متقدمة في فن القصة القصيرة العراقية، يمكننا تلمس انتباهاته ومزاجه الشخصي الذي وجه اعتباراته الثقافية والابداعية نحو مسارات الرواية الاجتماعية، تلك التي تعتمد مركباتها على التعامل مع واقع شعبي يستقي منه الكاتب، ليس فقط معالم وتضاريس شخوصه وبيئاتهم، بل مكنته تلك الاعتبارات من اسلوب سرد ولغة شديدة الالتصاق بلهجات الناس واحاديثهم الصغيرة، واحلامهم وقصصهم اليومي، وبالاخص تلك الفئات الأكثر قهراً، ولهجاتها التي تمتد بحميمية قصوى في ثنايا السرد، موجهة دفته نحو عوالم قصٍ سهلة ممتنعة، اعادت الاعتبار للعامية العراقية، وللهجة البغدادية منها على وجه الخصوص. وهي تعيد إلى الذهن خصائص مرحلة الاربعينات والخمسينات وما اعقبتها من تطورات على صعيد التشكيل والشعر في العراق لجهة الابتعاد عن الفن النخبوي والثقافة المتعالية.

في مقدورنا القول ان شعبية غائب طعمة فرمان وفرادته شيدتا على أرضية تلك الخصوصية المحلية التي دلت العراقيين على حس شديد الرهافة في التقاط اشكاليات واقع ملتبس ارهص غائب بكوارثه المقبلة.

رواية «النخلة والجيران» التي انهى كتابتها غائب في ١٩٦٤ يمكن اعتبارها أول عمل روائي عراقي يقف بموازاة انجازات الرواية المصرية ـ قال غسان كنفاني عن كاتبها: «من احسن الذين يمسكون القلم هذه الفترة». ومع ان هذه الرواية ظهرت متأخرة قياساً

بانجازات الشعر الريادية في العراق، إلا انها كانت لبنة صلبة في أرضية الرواية العراقية التي راكم بعدها غائب طعمة فرمان سبعة أعمال توالدت من رحم هذا العمل معيدة قراءة الواقع جمالياً من منظورات التضاد المتداخلة.

في مقدورنا ان نتلمس شخصية الروائي القابع وراء بطل قليل الحيلة، غفل، يكتشف العالم بعين مندهشة، وبقلب ضعيف هش لا يقوى على مقارعة القسوة والاستزلام. هذا الروائي الذي تتوضح معالمه بشكل متكامل بشخص السيد معروف في قصته الطويلة «آلام السيد معروف» هو ذاته الذي قيض له ان يكون مجس غائب لتقديم ذاته الابداعية نحو تخوم بعيدة في تقصي الوجدان الشعبي من دون تطفل أو اقتحام أو تصنع. ان تلك الغفلة، لا عن جهالة، بل عن طيبة ونزاهة وتوق لتفحص الواقع من دون نوايا مسبقة، كانت تقبع وراءها ذاكرة خصبة خزينها قابل للتجديد في نظام قصٍ كان المكان فيه يقف بموازاة الحدث والزمان في تحديد الاهمية القصوى للامساك بالعيني وبالملموس حتى في ترميزاته واشاراته من دون تجريد للافكار وللمخيلة.

بغداد الاربعينات، مدينة الكاتب، وفردوسه المفقود، هي المكان المتنازع عليه، والذي يحرك مسارات الدراما الخفية لأول اعمال فرمان الروائية، وكل أعماله اللاحقة. ان حالة الذوبان أو الانقراض التي تجابه ناس حيه الفقير في «النخلة والجيران» ودفاعهم المستميت عن بقائهم مرت في خطه الاستنتاجي العام من دون ان تهيمن على خطوط الصراع الخفية بين ذوات متضامة تتجاذبها اقطاب خارجية لفك ارتباطها بالمكان، ولبعثرة جهدها في الدفاع عما تبقى من قيم واخلاق تحمي وجودها العيني. البؤرة الدرامية للعمل تمس هوية الشخصيات لاظهار التمايزات داخل الموضوع الأشمل، لأن ما يطرأ من تغيرات على الذوات هي في جوهرها ظلال لارتطامات عنيفة تأتي من معارك خارجها أكثر شمولية. فالخان الذي يحمي «الطولة» (اسطبل الخيل) والعائلات الساكنة فيه، ينطلق منه الكاتب لتقصي مصائر سليمة الخبازة الأرملة الفقيرة وابن زوجها العاطل عن العمل حسين ومرهون سائس الخيل، وحشد من الشخصيات التي تظهر من بينها مصطفى الوصولي وتماضر الهاربة من جحيم العائلة وغيرهم كثر، وهو حريص على ان يضع ضمن منطويات نسيجه الاجتماعية تلك التركيبة المتمازجة من دون فواصل التي تكمل الشخصيات فيها بعضها بعضاً. فسليمة الخبازة وتماضر وحسين لا يقفون في مواجهة مصطفى المحتال الذي ينتهز فرص الاثراء غير المشروع، بل ان لعبة مصطفى، كما تقول الرواية، هي أكبر منه، ومن توقه إلى حياة أكثر رفاهية يبرر من خلالها شرعية الاحتلال الانكليزي.

في ذلك الحي ليس هناك من جبهة للخير وأخرى للشر، فالمؤلف يدع لشخصياته حرية الحركة والتعبير عن رحابة السايكولوجية الانسانية التي لا تشكل الخصومات الطارئة

معالم اخلاقيتها. انه ينظر بحنان ورأفة إلى اناسه، ولا يضع لهم خطوطاً حمراء تمنعهم من التحرك خارج إطارها، ولكنه لا ينسى ان يكشف لنا مسار حالة تهدد بانهيار امكانية تشكل توقاً يعيد الاعتبار لآمالهم الضائعة. فشخصية (ابن الحولة) شقي الحي الذي ينتزع كل ما يريد بالتهديد والاغتصاب هي البؤرة التي تخلف في رحم هذا المجتمع ممكنات عنفه المقبلة، والتي تجهز بقوة استحواذها وعنفوانها الأعمى على وعي جديد قيد التشكل يمثله مؤجر الدراجات المدرك ببصيرة نفاذة أهمية العمل، والوعي الجماعي. وعندما ينتقم حسين لمقتله، بالاجهاز على (ابن الحولة) لا يكون لانتقامه دلالة ايجابية، بل يسدل الراوية الستار على ماخور تهوم حوله رائحة الرذيلة والتآمر، محولة مرتاديه إلى متواطئين بارادتهم أو من دونها.

بعد مضي سنة على صدور «النخلة والجيران» صدرت «خمسة أصوات» في ١٩٦٧، التي قدم فيها غائب شرائح اجتماعية مغايرة، تتمثل في مجموعة من مثقفي مرحلته الساعين إلى احلام ضائعة. وهم على اختلاف مشاربهم، من العبثي إلى الوجودي إلى الماركسي إلى النفعي، غير قادرين على الامساك ببوصلة العبور نحو حياة آمنة. وهنا يطرح غائب اشكالية الثقافة في العراق وغربة المثقف عن مجتمعه وتأزمه.

في روايته «المخاض» (١٩٧٤) يغطي غائب طعمة فرمان مرحلة لاحقة من تاريخ العراق من خلال عودة منفي إلى وطنه، وبحثه عن الحي القديم الضائع بين عمران حديث ونهضة مبتورة مشوهة، تتكىء على الزائف لا الاصيل من فكرة التغيير.

استخدام المكان من قبل غائب (بغداد القديمة بالذات) لا يعني مجرد التشبث بالماضي، باخلاقياته وقيمه، بل هو محاكمة للحاضر بتتبع جذوره الاولى معتمداً على ما آلت اليه الذاكرة في مرحلة انتقالها من التخيل المحض إلى الصورة العينية التي تسعى إلى استيعاب الحاضر وعكسه معرفياً، فالفكر هنا يمر عبر مصفاة الشمولي الذي تدركه الكلمة عند تتبع جزئيات الحياة ومباشر لها.

حلم العودة إلى العراق يعاود غائب من خلال رواية أخرى هي «ظلال على النافذة» ١٩٧٩ التي يمضي عبرها غائب في تحليل مجتمع العراق الستيني وهو زمنه في رواية «المخاض» ويكون شاهده هذه المرة ايضاً شاب عاش خارج وطنه وعاد اليه بشهادة وطموح تذروه رياح الهزيمة التي لحقت بمجتمعه بعد فشل حلم الثورة. وبطله يقول: «رموز طفولتي الماضية رأيتها منتشرة على بقعة انظف وأوسع، مثل معروضات متبقية من متجر كان عامراً بالتحف والتذكارات. لم تبادرني بالحوار حتى الآن. كانت تحيا حياتها الخاصة في غيابي وما زالت تحيا حياتها الخاصة في عودتي، ولم تحدث نقطة تماس» لأن مدينته التي تغير عمرانها بقيت معلقة خارج اخلاقية ماضيها، وغير قادرة على خلق قيم بديلة

تمضي بها صوب مستقبل أفضل.

ان شهادة غائب في «ظلال على النافذة» كما هي الحال في «المخاض» تشاد على رؤية متفحصة لمشاهد اتيحت له فرصة المقارنة بين بلده وبلدان أخرى وبين ماضيه وحاضره.

في رواية «القربان» ١٩٧٥ يستخدم غائب رمزاً أشمل من حي وواقع معاش، فبطلته (مظلومة) لا تجد فرصتها في الحياة الرضية بعد وفاة والدها الطاغية، الذي استعبد امها واذلها، ذلك لأن جذور الظلم الاجتماعي في مجتمع ابوي لا تكمن في شخصية مستبد يحركها، بل هي نواظم وأساسيات تجري في شرايين ذلك المجتمع.

«آلام السيد معروف» القصة الطويلة لغائب بين عدد من القصص صدرت في ١٩٨٢، واحدة من أفضل اعماله وأكثرها اخلاصاً لمنحاه الروائي في استبطان شخصية الانسان الانساني المنسي أو المهمل، الذات الضعيفة المرتبكة التي لا تُلحظ في فواصل الصدامات الحادة للمجتمع، ان قيمتها لا تتشكل من هامش التعاطف معها، بل من خلال ابراز القوة الخفية فيها والرهافة وذكاء القلب وفطنته، انسانه الصغير هذا تجده في كل أعماله بشخص امرأة أو رجل، شاب أو شيخ، وكأنه يستحضر وسط مؤامرة العنف والقوة والاستزلام التي كانت تعد لمجتمعه تلك الارواح الرقيقة الحساسة التي ترفع يدها احتجاجاً في وجه طوفان الدم المقبل.

تلك الشخصيات تتحدد معالمها في «المرتجى والمؤجل» ١٩٨٦ بنموذج يحيى سليم الذي يعالج ابنه في الخارج من حادث سيارة خطير، وتكون أكثر وضوحاً في اخر رواياته «المركب» (١٩٩٠) على هيئة موظف متدين هو الشيخ منعم وصديقه الرسام خليل.

في «المرتجى والمؤجل» يخرج غائب من العراق روائياً ليراقب ما يفعله المنفى بالعراقيين وهو وإن حاز على درجة من النجاح في الكشف عن سلبية جوانب كثيرة من شخصية المنفي، إلا انه أعطى فرصة للمقولة التي تؤكد ان حدود بصيرته الاحترافية تبدأ وتنتهي عند ذلك الحنين العارم لبغداد، وطيف تلك المدينة التي يعرفها، كما يعرف راحة كفه، ذلك لأن روايته الأخيرة «المركب» التي تجري احداثها في سبعينات العراق، مع ما يخلخل بناءها من احداث وشخصيات غائمة وغير مكتملة أو مجهولة على وجه الدقة من قبل المؤلف، غير انها تذكرنا برواياته الاولى في اشتغاله على اللغة وفي رصانة اسلوبه وبراعته في توظيف ما بجعبته من مادة الواقع روائياً.

كتابة في الغياب

فيصل لعيبي

«البشر صنفان: صنف يتذكر وصنف يتذكره الآخرون»

ـ يوكيوميشيما ـ

يعتبر عام ١٩٢٢ من أهم اعوام القرن العشرين فيما يتعلق بالابداع الادبي ـ الرواية والشعر على الأخص. ظهرت «أوليس» رائعة جيمس جويس في شهر شباط منه، وهي تحكي حوادث يوم واحد لبطلها ليوبولد بلوم وتبدأ من الساعة الثامنة صباحاً، حين نستيقظ معه على صوت الرعد الذي كتبه جويس بعبارة واحدة تتكون من سطرين تقريباً، هكذا :ـ

«Dalgharoghtahkamminaonnkonnbronnbronntonnerro nntuonnthunnntrovar-rhounautnaushawntochorde nenthurank.»

ان هذا اليوم هو السادس عشر من حزيران عام ١٩٠٤ في دبلن، مدينة جويس نفسه وتحتل ساعاته (٨٧٠) صفحة فقط (!)

وفي تشرين الاول من نفس العام كان تي. أس إليوت قد نشر قصيدته المهمة: «الارض اليباب» التي قال انها: «تنفيس عن شكوى من الحياة، شخصية، لا معنى لها بالمرَّة، شيء من غمغمة بايقاعات.»[١]. علق عليها «الصانع الأمهر» (عزرا باوند) قائلاً :ـ «فيها ما يحمل البقية منّا على اغلاق حانوت الشعر.»[٢] أما الحدث الثالث فهو تطور رواية «البحث عن الزمن الضائع»[٣] للكاتب الفرنسي (مارسيل بروست). وذلك في تشرين الثاني من العام نفسه، تلك الرواية التي فتحت الباب واسعاً أمام قدرة الذاكرة والتذكر في صياغة

الحياة والفن معاً. لقد كانت هذه الرواية من الغرابة ما جعل اندريه جيد يوصي بعدم نشرها. وعلق عليها أحد اصحاب دور النشر قائلاً:ـ «ليس في مقدوري ان أفهم كيف يستطيع انسان كتابة ثلاثين صفحة ليصف كيف يتقلّب على السرير، من جنب إلى جنب، قبل ان يستغرق في النوم.» ان هذه الاعمال تشبه في دويّها، الحركة التكعيبية في الفن التشكيلي وظهور المجالس الشعبية في روسيا القيصرية، والتحليل النفسي عند فرويد ونظرية انشتاين في الفيزياء.

. . . .

ظهرت القصة والرواية في العراق الحديث بالانسجام مع المشاكل التي بدأت تظهر في رحم المجتمع العراقي، منذ بداية هذا القرن، وتطور الأدب بتطور تلك الاحداث. وابتداء من «اقصوصة» «جلال خالد» للكاتب الرائد محمود أحمد السيد[4] حتى عمل فقيدنا الكبير غائب طعمة فرمان الأخير، «المركب»، نشاهد، ذلك الخيط الرابط بين الهم والابداع العراقيين، ويبدو لي ان غائب أقرب الكتّاب العراقيين إلى بروست في احلامه وذكرياته وحنينه وغربته (عزلته).

ان التذكر والذاكرة هما سلاحا غائب طعمة فرمان، وقد أبدع أهم أعماله معتمداً عليهما، انه ينظر إلى عالمه بمنظار مقرِّب يحصى حركات أبطاله والمحيط، ويدقق فى الاشياء الصغيرة والكبيرة، أحيانـاً يكبِّـر الصغير، وأحياناً يصِّغر الكبير[5]. الزقاق يتحول إلى كون مليء بالاشياء والكون يتحول إلى جملة واحدة مختزلة، مجتمع ينضوي في الانسان، وانسان يتحول إلى مجتمع كامل.

ثلاثـة كتّاب مهمين في تاريخ الرواية والقصة العراقية:ـ عبد الملك نوري، فؤاد التكـرلي، غائب طعمـة فرمـان. رافقـوا نمو الادب ونمو المجتمع معاً، واعطوا عصارة جهدهم النبيل في استكشاف القارة العراقية بكل تعاريجها وتضاريسها ومشاكلها التي لا تحصى. فاعـطوا روحـاً جديداً للادب القصصي والروائي عندنا، وبنيت على أعمالهم ونتاجاتهم عمارة هذا الفن المهم. وبما ان المقالة هذه معنية بغائب «الحاضر أبداً»، فاني سأحـاول عرض ما قد تعلمتـه منه، وفهمته من أعماله التي قرأتها، وأخص بالذكر منها «القربان»، «خمسة أصوات»، «المرتجى والمؤجل»، «النخلة والجيران»، «المخاض».

تبدو بغداد في جميع اعماله البطل الثابت، والذي يرافق القاريء وابطال الروايات والقصص معـاً. وبغـداد الكـاتب هي بغـداد الفيضـانات والبيوت الآيلة إلى السقوط، وصرائف «العاصمة» والشواكة والفضل، وغيرها. بغداد الحانات والمقاهي التي يجري فيها تناول السياسة والمشاكل الاجتماعية والفردية كما يتناول الزبون فيها صحون «المزّة» أو قدح الشـاي. بغداد السجون والسياسة والمظاهرات، الصحافة المستقلة والحزبية ـ

المعارضة ـ، بغداد المثقفين المتبرمين والمترددين، العشاق الفاشلين والموظفين المكتبيين. بغداد السكارى، الحيارى، بغداد الجوع والمرض والبطالة.

إن أعمال غائب هي: سياحة في الزمان والمكان والنفس العراقية، تسجيل دقيق لأوهام واحلام وتراهات افندية الثقافة والسياسة، وصراخات النساء المهجورات وبسطاء الناس، الممزوجة بلهيب نار الآلهة والعبيد معاً.

حالة عامة يعيشها ابطاله: ضجر من شيء غير معروف، غير مباشر، قريب من الاغتراب، اللاانتماء، تعب رصاصي ثقيل، مصحوب باستسلام ويأس. هكذا نرى «سليمة الخبازة» في «النخلة والجيران»:

«فكّرت في نفسها المظلومة، وحياتها تذبل في بيت موحش. هي ونخلتها تستقبل الصبح والليل، بلا طعم ولا راحة.»

وفي «خمسة أصوات» نجد الرابع يقول في سره: «هذا يوم آخر من حياتي، يوم لن يختلف عن أمس، وما قبله، إلا انه قطع ورقة فارغة من تقويم حياتي، وقرَّب أول الشهر يوماً واحداً، ما عدا ذلك لا جديد فيه، أنا أعرف ماذا سيحدث في هذا اليوم، بعد قليل سأمارس العمليات التي امارسها كل يوم...».

وفي «المرتجى والمؤجل» فان هذا يبدأ من عنوان القصة نفسها، حتى نهايتها. حيث الحاجة إلى شيء ما، شيء ناقص. حالة من اللا اشباع تؤدي إلى الحيرة. آمال ضائعة، عدم القدرة على فعل شيء، انظروا إلى ثابت حسين وهو يروي لابنه حسّان: «وسأحكي لك عن قصة اخرجها مخرج هزلي، يسمى قدر غاشم ومثلها شلة من هؤلاء الذين ظلوا ينتظرون القطار طويلاً والعمر يفوت.»[6] وهذا منذ بداية القصة.

لقد شخّص الصديق برهان الخطيب بضربة واحدة، هذا العمل بأنه: «ثأر لاحلامنا الضائعة»[7] ويؤكد الناقد والكاتب د. فيصل درّاج مأساة أحد ابطال غائب في «النخلة والجيران» قائلاً: «اذ ان تمرد حسين في ضياعه لا يتجه إلى البحث عن أسباب بؤسه وضياعه، وانما ينبثق من حصاره الداخلي، من أفقه المغلق، الذي لا يسمح له بتحقيق ذاته، إلاّ بشكلٍ سلبي..»[8].

لقد ساهم ابطال غائب في هذا (الضياع) وقد أقول انهم ابطاله الحقيقيون. ضياع سياسي، ثقافي، اجتماعي. وبهذا المعنى تصبح أعماله ادانة لهذه الفئات والاشخاص الذين لا هم لهم غير اخفاء «خريطة الكنز» عنا. فترك لنا وصيته الثمينة هذه: ابداعه المميز. ومن جهة أخرى فاعماله تحمل من روح السخرية والفكاهة ما يقربه من الجاحظ أو الحريري في مقاماته الشهيرة بشكل أدق.

:-«ـ وأمرأة من مثلك لا تصبح بغياً

ـ بغياً على القوم الظالمين
أدار رأسه نحوها، وحدّق في وجهها لحظات، وعنّ له ان يسألها:
ـ قولي صبرية كيف سقطت؟
ـ سقطتُ بالحساب؟
ـ اقصد كيف أصبحت في هذه الحال؟ تنامين مع الرجال
سكتت لحظة ثم قالت:
ـ صرت كل شيء بالحظ والنصيب.»[٩].

هكذا تمتزج السخرية بالمأساة، ضحك مرّ ومأساة مضحكة. ان لغة غائب بغدادية النكهة، فكهة ومؤلمة، تحمل تراكم المآسي العديدة عبر تاريخ هذه المدينة الدامي..

وتتميز البدايات والنهايات في أعماله ايضاً باسلوبه هذا. انها تشبه لعبة الدومينو: دائماً نراها مقفلة ويموت الدوشيش بيد البطل. وبدايات خاسرة ونهايات خاسرة، ففي «النخلة والجيران» نجد البداية هكذا:ـ «قبل ان تغرب الشمس سمع الجيران صوتها، فقالت أسومة العرجة: «القرج خاتونة المحلة»[١٠] معلنةً بذلك طبيعة البيئة التي ستدور احداث الرواية فيها. والحكم صدر على الخاتونه منذ السطور الاولى لها. و«خمسة أصوات» تبدأ هكذا: «تتقاذفته الأزقة مثل أرجل اخطبوط هائل، كل زقاق يسلّمه إلى زقاق آخر مثله، أزقة تتشابك، تتفرع وتضيق، تدور حول نفسها...»[١١] حلزون لا يؤدي إلى انفراج هكذا نجد «زمن» اعمال غائب مرتبك غير متحرك بمعناه التاريخي، يدور في حلقة مفرغة بين الحانات والمكاتب وشوارع العاصمة ليستقر في غرفة نوم أو مكتب عمل وربما عند رصيف. ونرى ثابت حسين في «المرتجى والمؤجل» يحدِّث ابنه المشلول في بداية القصة: «احدثك ياحسّان عن اناس من بلادك، رحلوا طلباً للعلم أو للرزق أو هروباً من ظروف قاسية، وقالوا ما هي إلا اعوام، ونعود موفوري الصحة والعلم، ولكن الغربة استطالت فراحوا ينسجون على منوالها قصصاً لهم وحكايات، واقعين بين حبائل الانتظار...»[١٢] والانتظار هذا يتأكد أكثر في نهاية هذا العمل حيث يطبق يحيى سليم سمّاعة التلفون بعبارة «في الخريف» التي ينهي بها عمله المذكور مجيباً بها سائله على الخط المقابل حول دعوة الغداء. وفي «خمسة أصوات» نجد النهاية هكذا: «وعندما تحركت السيارة راقب سعيد المودعين طويلاً من الشباك الخلفي وركز بصره على شبح أبيه الهزيل، فقد كان يحس بأنه يراه لآخر مرة.»[١٣] وكأنه سيدخل في «الأزقة الاخطبوطية» التي بدأ بها الرواية، ولكن هذه المرة، في الغربة.

لقد عالج الصديق فيصل درّاج مشكلة الزمان والمكان في أعمال غائب طعمة فرمان في المقالة التي نشرها في العدد الخامس من مجلة «البديل» وفي ظني (وقد اكون خاطئاً)،

إنها أول محاولة لمعالجة أدب غائب من هذه الزاوية، وسأحاول الاشارة اليها وأربط بين الذاكرة والغربة في مقابل المكان والزمان عند غائب، فهل هو مرض نفسي ذاك الحنين إلى الايام البعيدة والاماكن المختفية أو التي أزيلت؟! هل هو نكوص كما يحلو لبعض علماء النفس ربط الذكرى والحنين بالتفسير الميكانيكي لفهم الفن؟! وهذا ما حدث ليونغ عندما اعتقد بان بيكاسو مصاب بانفصام الشخصية لأنه رأى لوحة لوجه جانبي بعينين اثنتين؟! اعتقد ان المشكلة اعقد من ذلك وأصعب على «النقد السريري». يقول غاستون باشلار: «عندما أعيش ديناميكياً الطريق التي «تصعد» التل أصبح متأكداً ان الطريق ذاتها لها عضلات، أو على الأصح عضلات مضادة. انه تمرين لطيف بالنسبة لي، في حجرتي في باريس، ان أتصور الطريق على هذا النحو. وأشعر وأنا اكتب هذه الصفحة انني تحررت من واجبي في القيام بنزهة: انني متأكد انني خرجت من البيت.»[١٤]

ان قراءتنا كتاباً عن مكان ما «يعطينا كل ما فيه من روعة يريد الكاتب شرحها. فنحن هنا نفتقر إلى الذكرى (الزمان والمكان) التي يتحدث عنها الكاتب انه وحده الذي يعرف ماذا يعني له ذكر «شارع غازي» مثلاً، لأن التجربة هنا تختلف من واحد إلى آخر. هكذا نجد «بغداد» غائب فهي بغداده الخاصة به، المكان الذي لا يعرفه غيره رغم ملايين «بغداد» التي تسكن قلبها. و«بغداد» غائب تختلف عن «بغداد جواد سليم، رغم انهما من جيل واحد ويشتركان بهموم متقاربة ولهم المهنة نفسها: الابداع... ان غائب وحده، ووحده فقط، قادر على تحسس عبق أزقة بغداد وحرارتها وقذارتها عند الكتابة عنها. وهو وحده القادر على اعادة الكلمات المكتوبة إلى معناها الحقيقي. ان زمن غائب ثابت في «الماضي التام» لكنه متحرك على عدة أماكن: (البيت، الحانة، مكتب العمل، الشارع، المقهى). وكذلك هو المكان لديه فهو واحد ولكنه يعيش أزمنة مختلفة: (صباحاً، مساء، ليلاً... الخ)، قد يبدو هذا بديهياً لدى القاريء، لكنه له خصوصية غائب، الذي كان يكتب من الذاكرة، عن مكان بعيد عنه واشخاص لم يعد بمستطاعه رؤيتهم، ويؤرخ أزمنة لها دلالاتها في أدبه وانتاجه الفني. فبغداد غائب هي البيت الذي حُرمَ منه والذي يحن اليه ويحبه. مرّة عندما كان (غوستاف كوربيه) فنان كومونة باريس (العامية) ورائد الواقعية الفرنسية، مسجوناً بعد سقوط الكومونة أراد رسم باريس من نافذة سجنه. لكن مدير السجن لم يسمح له بذلك باعتباره لم يأتِ هنا للنزهة أو التمتع بجمال الطبيعة[١٥]. وذهبت فرصة عظيمة لفنان عظيم لكي يعبر عن مشاعره الحقيقية تجاه مدينته الحبيبة. هكذا الحال مع غائب. انه في حكاياته عن بغداد وابطاله البغداديين، وسكان العاصمة من شتى المنحدرات، يروي لنا عشقه. فبغداد بقيت لديه الدنيا وربما الكون.. كونه المداس بالاقدام. ان بغداد لم تغب عنه حتى في «المرتجى والمؤجل» وهي التي تحكي حياة

المنفى والغربة والعزلة القاتلة... لهذا نراه يهرِّب بغداد وشوارعها وبيوتها معه إلى خارج الوطن. وكان عليه ان يعيد بناءها من جديد ويوصل ما انقطع منها ببعضه البعض ويسخر معارفه لاعادة الحياة لها، فهو كـ «حي بن يقظان» أو «روبنسن كروزو» قام مجدداً بترميم ذاكـرته وحلمه ومدينته في آن واحد. ومن خزائن الذاكرة و(مراراتها) المتنوعة استخرج خصوصية (الزمكانية) ـ الجو المحاك والمنسوج بيد (الأسطة) المحب لمهنته.

كتب (اندريه بيريتون) يوماً قائلاً:

«الخزانة ملأى بالبياضات

وفيها

حتى أشعة القمر التي استطيع بسط طياتها.»

لا أدري هل فكر احدنا بمعاناة الكاتب عند الكتابة؟!.. نحن لا ندرك عمق الصلة بين الكـاتب وابـطالـه، وعادة ما يكون الكاتب بطلاً من ابطال رواياته.. كيف يتصرف معهم.. هل يحبهم أم يكرههم؟! هاكم هذا المقطع الذي يتحدث فيه (غابرييل غارسيا ماركيز) عن «العقيد» في روايته «ليس للكولونيل مَنْ يراسله»:ـ

«كنت مقتنعاً في قرارة نفسي بان لابد في وقت من الاوقات ان أُجْهِزَ عليه. لكني ظللت متردداً فالكولونيل كان شيخاً عجوزاً ساعتها. يسلي نفسـه بصيد اسماكه الذهبية. وفي احدى العشيات فكرت: «الآن لابد ان يهلك!» ويتحتم عليّ اعدامه ولما أتممت الفصل صعدت مرتعشاً إلى الطابق الثاني من البيت. كانت (مرثيدس)[١٦] موجودة فأدركت ما حدث لما رأت وجهي وقالت:ـ «أظنه قد قضى نحبه» فأستلقيت على السرير ومكثت ساعتين غارقاً في البكاء.»

ان هذه الفقرة تكفيني لكي امتنع عن الحديث عن موت بطل من أبطال غائب. فكيف بي وأنا أكتب عن رحيل غائب نفسه!؟

١٢/ ٩/ ١٩٩٠

(١) د. عبد الواحد لؤلؤة: «الارض اليباب» «الشاعر والقصيدة»، ص ٣٣ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٠.

(٢) نفس المصدر، ص ٨٨.

(٣) نشر الجزء الأول منها عام ١٩١٩ وحاز به الكاتب على جائزة «غونكور»، وكان بعنوان «في ظل الفتيات المـزهـرات» والرواية كلها تتكون من ثلاثة اجزاء مزينة بريشة الفنان الفرنسي (دورين). فيما يتعلق بموقف (جيد) فقد غيّره بعد ذلك وهنأ الكاتب على عمله «الرائع».

(٤) يعتبر السيد رائد القصة العراقية الحديثة ومن أبرز من كتب في النقد الادبي في النصف الاول من القرن العشرين، ومن رواد الفكر التقدمي، المادي ـ العلمي. ساهم مع بعض اصدقائه في تكوين أول جماعة ماركسية في العراق، وهو ابن شيخ جامع الحيدر خانة الشهير في شارع الرشيد ببغداد.

(٥) يمكن ان نقول هناك نوع من «الميكرو سوسيولوجيا الادب» و «ماكرو سوسيولوجيا الادب» عند غائب.

(٦) غائب طعمة فرمان «المرتجى والمؤجل»، ص ٧، منشورات بابل/ الفارابي ١٩٨٦.

(٧) مجلة «البديل»: العدد (١٠)، ص ١٧٨ ـ ١٩٨٧، ندوة جرت في موسكو مع الكاتب حول عمله المذكور اعلاه.

(٨) مجلة «البديل»: العدد (٥)، ص ٤٣، من مقال للناقد بعنوان: «غائب طعمة فرمان وحدة الحرية والكتابة» سنة ١٩٨١.

(٩) غائب طعمة فرمان: خمسة أصوات، ص ١٥٩، كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ـ ١٩٨٥، الكويت. ط٢.

(١٠) ان رواية «النخلة والجيران» هي تطوير للقصة القصيرة التي نشرها الكاتب في مجلة «المثقف» البغدادية العدد الثالث عشر عام ١٩٥٩، تحت عنوان «سليمة الخبازة».

(١١) «خمسة اصوات»، ص (٧).

(١٢) غائب طعمة فرمان: «المرتجى والمؤجل»، ص ٧، منشورات بابل/ الفارابي ١٩٨٦.

(١٣) «خمسة اصوات»، ص ٣٠٢، مصدر سابق.

(١٤) غاستون باشلار: «جماليات المكان» ترجمة الراحل غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ١٩٨٠، ص (٤٨).

(١٥) لملاحظ ان كوربيه لم يرسم باريس عندما كان طليقاً. لقد ادرك جمالها وروعتها عندما حرم منها فقط.

(١٦) زوجة غابرييل غارسيا ماركيز.

ملاحظة: لم أشأ ان اكتب عن بعض الذكريات الخاصة معه وسوف تكون هذه لموضوع مناسب آخر.

قبل ان نرثي انفسنا

فراس عبد المجيد

«. . . وشعـور الفنان بالزمن، وشعور الكاتب الروائي به بشكل خاص، مضخم جداً، لاحساسه العميق بأنه في سباق دائم مع الزمن، ولربما في صراع، والاحساس بالفقدان، ولاسيما فقدان الزمن متأصل فيه، وهو عنصر من عناصر مأساويته وقيمته في آن واحد لأن الحياة كلها معارك لاضفاء شيء من الديمومة لحياته، ومن ثم لكل ما يتبنى من افكار وعواطف وامنيات».

غائب طعمة فرمان ـ الزمن والكاتب الروائي «العربي»

العدد ٣٧٥ ـ ديسمبر ١٩٨٩

يصعب على من يفتح كتاب المراثي ان يغلقه، لكن الاستمرار في الرثاء يحيل الكاتب والقارىء والكتاب ذاته، معاً، على واقع أكثر صعوبة، وأكثر استعصاء على الاستمرار في اللعبة. ولم يكن الرثاء ولن يكون إلا جزءاً من لعبة أكبر، لها من العبث واللامعقول أكثر مما لها من القواعد. وتبقى المفارقة بين الا بداع والموت قائمة ما بقي طرفا هذه المعادلة قائمين، ومتجددين، سواء أغلقنا كتاب المراثي، أم ابقيناه مفتوحاً.

إلا ان للرثاء وجهاً آخر، قد يكون أكثر اشراقاً، وأخف وطءاً وما أكثر وجوه الرثاء، حين لم يعد متعلقاً بالاموات فحسب! فهل نرثي انفسنا اذن من خلال الحديث عن اكثرنا بقاء: غائب طعمة فرمان؟!

على الرغم من ان اطلالته الاولى على الساحة الادبية العراقية كانت مجموعتين قصصيتين صدرتا في الخمسينات، ألا ان روايته العملاقة «النخلة والجيران» التي صدرت في الستينات تعتبر «بطاقة هويته» الروائية والعراقية على حد سواء، في وقت كان يصعب فيه على غائب طعمة فرمان الجمع بين البطاقتين. حيث اسقطت عنه جنسيته العراقية في الخمسينات (١٩٥٧) فازداد انتماءً لوطن مات بعيداً عنه، في التسعينات، لكن رحلته تواصلت لتعطي مزيداً من الاعمال التي تشكل بمجموعها شاهداً على عمق الحس الشعبي لديه، وارتباطه الصميمي بالجذور، برغم سنوات النفي الطويل، أو بسببه.

ولد غائب في بيت بغدادي شعبي سنة ١٩٢٨، وبعد ان اكمل دراسته الثانوية لم يستطع تحقيق طموحه وطموح أبناء جيله في اكمال دراسته في «دار المعلمين العالية»

كالسيّاب والبياتي وسـواهما، وذلك بسبب ضعف بصره. . فانتسب إلى كلية الحقوق، لتضطره ظروف النفي المبكر إلى ان يكمل دراسته في كلية الآداب في القاهرة.

● **عن موقفه من النقد يقول:**

«. . . ان للرأي النقدي تأثيره عليّ، وأنا لا اسخر من الآراء النقدية ولكني عندما اكتب رواية لا أفكر برد فعل الجماعات والاحزاب والنقاد. المهم عندي ان اكون صادقاً».

عاد إلى بغداد، وبقي فيها فترة قصيرة، واصل بعدها رحلة النفي، فاستقر مترجماً في «دار التقدم» بموسكو، حيث اسهم في نقل عدد من القصص والروايات السوفييتية إلى العربية.

زار المغـرب في عام ١٩٨٣ بدعـوة من اتحـاد كتـاب المغرب، حيث شارك في الملتقى العربي للقصة القصيرة بمكناس.

● **أعمال غائب طعمة فرمان**

ـ في القصة القصيرة والرواية:

١ ـ «حصيد الرحى» ـ مطبعة الرابطة ـ بغداد ١٩٥٤ (م. قصصية).
٢ ـ «مولود آخر» دار النور ـ بغداد ١٩٥٩ (م. قصصية).
٣ ـ «النخلة والجيران» المكتبة العصرية ـ بيروت ١٩٦٦ (رواية).
٤ ـ «خمسة أصوات» دار الآداب ـ بيروت ١٩٦٧ (رواية).
٥ ـ «المخاض» مكتبة التحرير ـ ١٩٧٤ (رواية).
٦ ـ «القربان» مطبعة الأديب ـ بغداد ١٩٧٥ (رواية).
٧ ـ «ظلال على النافذة» دار الآداب ـ بيروت ١٩٧٩ (رواية).
٨ ـ «آلام السيد معروف» دار الفارابي ـ بيروت (رواية).
٩ ـ «المرتجى والمؤجل» دار بابل ـ ١٩٨٧ (رواية).
١٠ ـ «المركب» دار الآداب ـ بيروت ١٩٨٩ (رواية).

في الأدب الاجتماعي:

«الحكم الاسود في العراق» القاهرة ١٩٥٧.

في الترجمة: منها:

● تورجنيف في (٥ اجزاء) ـ دار رادوغا ـ موسكو ١٩٨٤.
● درب الالام (٣ اجزاء) ـ الكسي تولستوي دار رادوغا ـ طشقند ١٩٨٢.
● بوشكين «ابنة الآمر» قصص ـ دار التقدم ـ موسكو ١٩٧٧.
● دستوفيسكي ـ قصص ـ دار رادوغا ـ موسكو ١٩٨٢.
● تولستوي ـ قصص ـ دار رادوغا ـ طشقند.



غائب لن تغيب!

د. زهير شليبه*

أجل ياغائب. . لن تغيب وسيبقى الناس يتذكرونك كلما سيلتقون امرأة عجوزاً كسليمة الخبازة التي صورتها في «النخلة والجيران»، أو رجلاً مثقفاً هارباً من الطغيان، أو معلماً متقاعداً مشرداً ومفلساً، أجل سيتذكرك الناس جيلاً بعد جيل، وسيضحكون كثيراً من دعاباتك الشعبية وسيتشوقون لقراءة أعمالك عن الشخصيات التراثية. سيبقى الحاج دبش ومقهاه ماثلين أمام القراء أبد الدهر، وسيبقى ياسر الفارس، الذي كان يحمل الدنيا كلها على كتفيه، في ذاكرة قرائك، بل إنهم سيبحثون عنه وعن التراثيات في صفحات كتبك بشوق كبير. رحلت عنا ولم ترحل، ابكيتنا يا أبا سمير كثيراً، فكيف تموت في الغربة؟ أهذا هو منطق الحياة؟ أهذا هو منطق الاقدار؟ ألستَ جديراً بحياة مترفةٍ، ألست جديراً بأن تتفرغ في نهاية حياتك لأدبك؟ وتودع الترجمة التي كانت تؤلمك، وكانت تمتص وقتك، وأنت كنتَ تفكر بمشاريع أخرى.

كيف أرثيك ياغائب؟ هل أقول لاولئك القساة: قبّح الله وجوهكم؟ هل أبصق عليهم: تفو عليكم يا أشباه الرجال، تعلنون الحروب على ذويكم وأهليكم. لن أقول لهم شيئاً. سأعاود قراءة التاريخ مرةً أخرى ولابد أني سأجد أن كل شيء على ما يرام، فقد كنتَ شريفاً متواضعاً بسيطاً لا تعرف اللف والدوران، فمن سيستفيد منك غير الشرفاء؟ لم تكن رجلاً صدامياً عنيفاً، لم تكن سياسياً بالمفهوم الضيق، لم تكن ارهابياً، ولم تكن لتفكر بايذاء نملة صغيرة. كتبت القصص والروايات وبقيت تعيش من عملك في الترجمة، ولم تستلم منصباً لا عند دولة ولا مؤسسة حكومية ولا حزب ولا جماعة، ولم ترتزق من أحد ولا بأي شكل من الأشكال.

عملتَ في الصحافة وكنت شاباً مخلصاً وشريفاً وكانت أخلاقيات صحافة الخمسينات تتناسب مع مزاجك، مع صمتك وهدوئك وسمو أخلاقك، وعملت فيها فأبدعت واستفدت منها، واستثمرتها فيما بعد في كتابة القصص القصيرة والروايات.

فهل هذا هو الجزاء ـ أن تموت في الغربة وفي ظل أكبر الأزمات التي يشهدها

العالم؟-.

ورفضت أن تكون بوقاً لمؤسسة غير ضميرك ووجدانك، رفضت أن تحصل على عمـود صحفي في الصحف الغنية، ومـا أكثرهـا، تلك الصحف التي يعـرف الجميع إمكانياتها، ومقدراتها، بل ويلهث الكثير وراءها. أما أنت. . فقد بقيت كما أنت، تبحث عن الفروسية والقيم في محلاتك البغدادية القديمة وفي أوساطك في الغربة. وهل يختلف اثنان من اصدقاء غائب في حبه كانسان؟ حتى اصدقاؤك ياغائب كانوا يحبونك كما يحبون أطفالهم، كنت أكبر منهم سناً، ولكنهم كانوا يحبونك كما لو كنت أخاهم الاصغر. . . أليست هذه مفارقة؟ أنا لم أعرف اديباً عراقياً محبوباً بهذا القدر الكبير كغائب.

أصدقاؤك . . . كلهم كانوا يتحدثون عنك ياغائب كما لو كنت صغيراً، ذلك لأن قلبـك كان كبيراً. . . ولكن كيف توقف؟ ولحقت بصديقك غالب هلسا الذي رثيته قبل مدةٍ. وكان غائب عندما يتحدث عن الناس، يذكر كل الاشياء الجميلة. أجل هكذا كنت أيها الطفل الكبير.

وهل أحسد نفسي لأنني تحدثت معك هاتفياً قبل رحيلك بأيام؟ كان مزاجك رائقاً وصحتك جيدة، وكان صوتك قوياً، وكنت فرحاً بأختك التي التقيت بها بعد فراق دام اعواماً كثيرة، وكنت قلقاً بسبب ما يجري حولك من أحداث كبيرة. . .

كم فرحنا ياغائب عندما أخبرتنا بأن أختك تسكن معك. . . أهكذا تتحول الفرحة إلى آلام وأحزان بهذه السرعة؟

كنت تعيش برئةٍ واحدةٍ وكليةٍ واحدةٍ وكتفٍ مخلوع وصحةٍ منهكةٍ، وأعصاب تالفةٍ بسبب آلام البشرية التي كنت تحملها على كتفيك، ومع ذلك أنتجت مجموعتين قصصتين وكتاباً عن العراق وثماني روايات ومجموعةً كبيرةً من الكتب المترجمة إلى العربية، وقدمت لأصدقائك وقرائك حباً كبيراً. . . فماذا كنت ستفعل ياغائب لو كنت برئتين وكليتين مع قلبك الكبير الصابر على كل الضيم والصامد أمام كل الضغوطات؟ كيف كنت ستكتب لو توفـر لـديك ما حصـل عليه الآخـرون من فرص كثيرة في الحياة؟ يبـدو أنـه منطق التاريخ . . . أو منطق الزمن. . . عذابات الموهوبين والصادقين هي أمر طبيعي لأنها ثمن حريتهم وتمردهم على الضيم وعنادهم تجاه الكذب والدجل والنفاق. أجل هكذا كنت ياغـائب، انسـانـاً صادقـاً صدوقـاً هادئـاً، ترفض الصالات والاضواء المسلطة عليك، والمقـابـلات الصحفية والاسئلة التقليدية المكررة. . . وكان قلبك واسعاً بوسع البحر، صافياً كصفاء السماء الزرقاء في الليالي المقمرة. . . والحديث عنك ياغائب يطول ولكن القلم يعجـز الآن عن الكتـابـة تحت وطـأة الألم والحزن ومرارة الغربة التي عانينا منها جميعاً. . . وداعاً ياغائب وداعاً أيها الطفل الكبير. . . وداعاً أيها الغائب العائد. . .

الياس وليد الثورة والفكر اخصبته الحرب

بعد ثورة ١٩٥٨ لم ينشر كتاب العراق إلا مخلفات الماضي

«آرائي عن مختلف جوانب تطور الرواية ليست قاطعة، فأنا لست ناقداً بقدر ما أنا قارىء، وانظر إلى الكاتب الذي أقرأه من وجهة نظر روائي، لذا سيكون حديثي انطباعات شخصية فقط».

بهذه الكلمات افتتح الروائي العراقي غائب طعمة فرمان لقاء كان بمثابة ندوة، في معهد الاستشراق في موسكو، حيث حضر وشارك في النقاش مجموعة من المستشرقين السوفييت من بينهم المستشرقة فاليريا كيريجنكو، الميرا علي زادة الباحثة في الادب المصري، بوريس جوكوف الباحث المختص في الأدب العراقي، بالاضافة إلى مجموعة من الطلبة العرب الذين يكتبون رسائل دكتوراه. حدد الروائي فرمان محور النقاش في الرواية، وخاصة العراقية والعربية، بقوله:

ـ «حديثنا يقتصر على الرواية والانواع النثرية الاخرى، ولا يشمل الشعر لأن الشعر يمكن ان ينمو ويتطور اعتماداً على ذاتية الشاعر، وهذا على عكس النثر، فالقاص بحاجة إلى دور النشر أكثر من الشاعر.

رغم حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي تميز بها العراق في فترات تاريخية سابقة، نجد علامات ايجابية بارزة في تاريخه الثقافي، فأول تجربة حقيقية خاضها الأديب العراقي كانت في الثلاثينات، حيث ظهرت مجموعة من الديمقراطيين استطاعت ان تطالب بحد ادنى من الاستقرار، والمقصود هنا هو «جماعة الاهالي»، ولقد تأثر محمود أحمد السيد ذو التطلعات الديمقراطية بافكار هذه الحركة الاصيلة».

وبعد تفكير يجمع غائب من ذاكرته ليقول:

ـ «ان تأثير الادب التركي على المثقفين العراقيين كان أكبر بكثير من تأثير ثقافة

«جماعـة الاهالي» قبل الثلاثينات، كذلك فان تعرف محمود أحمد السيد على حسين الرحال، أدى إلى تعرفه على الادب الاوربي ككل.
ان الآداب الاوربية ازداد تأثيرها في أواخر الثلاثينات أما القصة فولدت في العراق في الخمسينات كنتيجة لهذه التأثيرات، فظهر عبد الملك نوري خريج الجامعة الامريكية وذو الثقافة الاوربية في هذه الفترة بالذات».

خصوبة بعد الحرب

ويستمـر الكـاتب العراقي غائب طعمة فرمان في حديثه عن تجربة أخرى مر بها الاديب العراقي، ألا وهي تجربة الحرب، لأنه عايش الحرب وتأثر بويلاتها، وانعكست تلك الرؤيا للكاتب في لؤلؤة اعماله الروائية «النخلة والجيران»:
ـ «كانت تجربة الحرب وما بعدها، مهمة ومتفردة في تطور الادب العراقي، ففي هذه الفترة ولاول مرة في تاريخ العراق الثقافي كان ممثلو جيلي، اقصد عبد الملك نوري وفؤاد التكرلي وبدر شاكر السيّاب، وعبد الوهاب البياتي، وبلند الحيدري وغيرهم، على صلة وطيدة بثقافات عالمية أخرى كالماركسية والوجودية وثقافة الديمقراطيين الروس... الخ.
ان الفترة الممتدة بين ١٩٤٩ ـ ١٩٥٥ هي من اخصب الفترات في تاريخ العراق الثقافي.
ان الارتبـاط بين السياسـة والادب قوي، وهـذا نابـع من ضجة وحدة الاحداث السياسية، أنا أربط تطور الرواية في العراق بتطور الاحداث السياسية، ولنرجع هنا إلى ثورة ١٤ تموز ـ يوليو عام ١٩٥٨، بعدها لم تدم فترة الاستقرار النسبي أكثر من ستة أشهر، وهي مدة قصيرة للغاية، ولهذا لم يقدم النثر العراقي شيئاً جديداً، واذا ما نشر الكتاب نتاجاتهم الادبية القديمة فما هي إلا مخلفات الماضي وجدت مجالاً للنشر فقط بعد حين، وهذا ينطبق على القصة بالذات».

● **المستشرقة كيريجنكو: وماذا عن دورك الأدبي في تلك الفترة؟**

ـ نشرت مجموعتي القصصية الثانية «مولود آخر» بعد ثورة ١٤ تموز لكنني كتبت قصصها قبل الثورة. واذكر حينها ان الرقيب، وكان ضابطاً، قال لي: «قرأت القصص واعجبتني، ولكنها كئيبة وحزينة ونحن بحاجة لكتابات متفائلة عن الحـاضر»، فقلت له: الحاضر مازال يتبلور وقد نكتب عنه فيما بعد.

كان الناس يتوقعون مكاسب كبيرة بعد ثورة ١٤ تموز ـ يوليو، ولكنهم لم يحصلوا إلا على معارك دموية مستمرة، توجت باحداث عام ١٩٦٣. وهكذا نشأ جيل الستينات، جيل اليأس والاحباط، حيث مر بمخاضات عسيرة أدت إلى حالة يأس. وأخذ هذا الجيل يكتب

قصصه الصادقة بكل ما تحمل من مرارة وخيبة أمل، ولكن لم يكن لقصصه أي افق وأكثرها لم ير النور.

● إلى أين يمتد أصل الرواية العربية؟

ـ هناك نظريتان حول هذا الموضوع، تؤمن الاولى بارتباط الرواية المعاصرة بالتراث العربي القديم، بينما ترى النظرية الثانية ان الرواية العربية ظهرت كنتيجة لتأثر العرب بالغرب أولاً، ولتطور المجتمع العربي والعلاقات التي نشأت فيه آنذاك، في مجال الثقافة ثانياً. انني مع النظرية الثانية، فلا نجد الآن أي أثر للتراث العربي القديم، بل ان الرواية هي أقرب إلى المؤثرات الفنية الغربية.. وبالنسبة لطه حسين فالمسألة تختلف طبعاً، لأنه متأثر باسلوب السرد العربي التقليدي. أما الرواية العراقية فاعتقد انها لم تنشأ إلا في الستينات.

● وماذا عن رواية الستينات؟

ـ لم تكن هناك قبل هذه الفترة روايات متكاملة، تتوفر لها كل سمات الرواية كنوع نثري مستقل، فـ «مجنونان» مثلاً لعبد الحق فاضل ليست رواية بل هي قصة طويلة، وينطبْق هذا القول على أعمال «ذو النون ايوب»، فلا رواية بلا استقرار.

كسر التقليد باسلوب «الاصوات»

● فاليريا كيريجنكو: ما هو مدى تأثير التراث العربي في القصة العربية المعاصرة؟

ـ يمكن ان نلمس مثل هذا التأثير في اعمال يوسف ادريس مثلاً، اقصد هنا تأثير «الحدوتة» المصرية الشعبية، فهو كاتب يتحدث وكأنه في مجلس شعبي، أو في ندوة سمر وتبادل شجون، كشاعر عربي قديم يرتل شعره على الربابة، بالمعنى الشعبي لهذه العملية.

ونجيب محفوظ يختلف عن يوسف ادريس لأنه أكثر التزاماً بأسس وتقاليد الرواية العربية، أما طه حسين في عمله «المعذبون في الارض» فهو لا يختلف عن اسلوبه السردي التراثي.

● كيريجنكو: اعتقد ان طه حسين متأثر بسرد الاصفهاني، ونجد في «حديث عيسى بن هشام» للمويلحي تأثير المقامة العربية، ونلمس تأثير التاريخ التراثي في «الزيني بركات» للغيطاني، ونجيب محفوظ استفاد من كتب الطبقات والكتب التراثية الاخرى في روايته «المرايا».

يرد غائب فرمان معقباً:

ـ «مازال الأدب العربي مصاباً بأزمة اليقين. الجميع يرى انه من الضروري ايجاد أساليب جديدة تختلف عن أساليب جويس وكافكا وهمنغواي، أما في العراق فقد بقي هذا

الأمر معلقاً: لقد قرأت «ألف ليلة وليلتان» لهاني الراهب، ولقد ذكرني بذلك برواية «الولايات المتحدة» لدوسباسوس، حيث الانتقال من فقرة إلى أخرى مثلما يتم الانتقال من موضـوع إلى موضوع، إلى رسم لوحة في فقرات قصيرة. هنا تكمن صعوبة توصل القارىء إلى ربط الاحداث، فدوسباسوس يفصلها ويعيد تركيبها من جديد. هذا نوع من البحث عن اسلوب جديد، نوع من الضجر من الاساليب القديمة، والتطلع إلى معالجات أخرى، وهذه حالة يشعر بها أكثر الكتاب، الكاتب هنا يعاني ولكن معاناته تكون سطحية فيلجأ إلى استخدام الشكليات.

ان اسلوب «الاصوات» الذي سبق وان استخدمته في روايتي «خمسة أصوات» التي صدرت عام ١٩٦٧، وكذلك «ميرامار» لنجيب محفوظ، التي صدرت في السنة نفسها، وروايتا «السفينة» و «البحث عن وليد مسعود» لجبرا ابراهيم جبرا و «خطوط الطول والعرض» للربيعي، والتي صدرت فيما بعد، كل ذلك يستند إلى فوكنر، وبالذات إلى ثلاثيته «القرية والمدينة وبيت الضيعة». يقدم فوكنر عناوين واسماء ليكتب عنها فيما بعد. وأنا بدوري تأثرت بهذا الاسلوب ولكني استخدمت اسلوب الاصوات وكرست لكل صوت فصلاً كاملاً ومستقلاً. أنا انظر إلى الحدث من خلال الشخصية، ولم التزم بتوالي الشخصيات فالمهم بالنسبة لي تكامل الصورة الفنية».

● **ما هي نسبة الموضوعية في عكس علاقة الجماهير بالسلطة في روايتين عراقيتين: «المخاض»، وهي روايتك الثانية، و «الرجع البعيد» لفؤاد التكرلي؟**

ـ «عالجت في «المخاض» فترة ١٩٥٩ أي السنة الاولى بعد ثورة ١٤ تموز ـ يوليو، أما في «الرجـع البعيد» فان التكرلي كتب عن أواخر أيام الثورة، عن المجتمع العراقي عشية ١٩٦٣. وهنا أود ان أشير إلى ان التكرلي كاتب موهوب لكنه مشبع بالافكار الوجودية، ولهذا فهو يجعل الضحية شخصية لا علاقة لها بالسياسة... فطلقة طائشة تنطلق لتقتله».

يستطرد غائب فرمان:

ـ «أنهيت قبل فترة ترجمة قصة «عش النبلاء» لتورغينيف وروادتني فكرة مفادها: ان أغلب الـروائيين القـدامى حين يضعـون ابـطالهم في مأزق يضعون لهم حلًا متشابهاً: الانتحار أو الذهاب إلى الدير، كما في رواية «عش النبلاء» و «أنا كارنينا» لتولستوي. ولكن حتى هذه النهاية السهلة، كما تبدو، لم تستطع حل كل العقد وذلك لسبب بسيط هو أن الاديرة لا تستطيع أن تستقبل كل الذين ضاقت بهم الحياة، بل هي للنبلاء والميسورين فقط، أولئك الذين لم تنقطع بهم السبل إلا عاطفياً أو فكرياً.. ترى كم من الالاف ممن يعانون عسر العيش كانوا يحلمون بأن يدخلوا الدير، لكي يجدوا المأوى والمأكل على أقل تقدير؟».

كانه غياب ارادي!

مهدي محمد علي

«سأكف منذ الآن عن توديع أحبائي.

فقد ودعت منهم كوكبة تملأني شجناً، وحسرةً على خسارة أناس. كم هم ضروريون ومُجدّون في هذا الزمن العصيب المحمول على أكتاف ألف عفريت!».

.. هكذا افتتح (غائب طعمة فرمان) رثاءه لزميله الراحل (غالب هلسا)... وكأنه قرر - فعلاً - ألاّ يفقد أحداً من الاعزاء الضروريين المجدين في هذا الزمن العصيب!

انها لسطور عجيبة! فكيف يتأتى للمرء أن يكفّ عن توديع المفقودين الاعزاء؟! لا شك انه لا يتأتى له ذلك إلا اذا فُقد هو نفسه وغاب! إلا اذا لم يكن موجوداً، بل مفقوداً!

.. وغاب (غائب) غياباً كأنه إرادي، أو هكذا بدا لي وأنا استرجع مفتتح رثائه لصديقه الراحل غالب هلسا.

غاب (غائب) بعد ان أحسَّ أن كل شيء بالنسبة له - وكما بدا لي - لم يعد ضرورياً أو مجدياً في هذا الزمن العصيب المحمول على اكتاف ألف عفريت، أم انه لم يعد يتحمّل أن يخسر الضروري والمجدي في هذا الزمن الموصوف بتلك الصفات العجيبة؟!

لقد غاب (غائب) أخيراً، بعد أن ظل يعاني من غياب الوطن نحواً من ثلثي عمره، كان خلاله يستحضر الوطن، والوطن يمعن في الغياب، ويبتعد عن التطابق مع صورته الماضية المألوفة والحبيبة والدافئة، كما كان يبتعد عن التطابق مع صورته المرتجاة، فالعراق بالنسبة لغائب طعمة فرمان مفقود بصورة الماضي الأليف رغم المآسي الماضية، كما هو مفقود بصورة «المرتجى والمؤجل».. رغم المآسي الحاضرة!

ولقـد كان (غائب) منحوساً في علاقته بالوطن فيما يخص بعض الاشراقات التي انتابت هذا الوطن، فحين قيضت له العودة إلى العراق بعد سقوط الملكية، فانه لم يكد يخطو بضع خطوات في الامن والحرية حتى كان ألف «تموز» يخبو، فانطفأ (غائب) مرة أخرى في المنفى. وحين عاد ثانية في أواسط السبعينات، لم يكن ثمة ألـق إلا بالمقدار الذي يومض بالكوارث القادمة. . ثم استمرت الحال تنحو نحو المزيد من الكوارث ومن الاحتراق الذي صار سمة العصر العربي، في فقدان العواصم الثلاث: بغداد وبيروت والقاهرة!

لقد قاوم (غائب) كل ذلك الغياب وصار يستحلب الذاكرة ويعتصرها من أجل ديمومة ذلك الوطن البعيد والمبتعد، حتى صار الوطن عنده مثل (ظلال على النافذة). غير أن ذلك لم يكن خالياً من تفجرات تجمع بين الرواية والشعر، أو تضع الرواية على شفا الشعر، كما حصل مع (آلام السيد معروف) تلك الرواية المرثية الرزينة الشفافة الصافية التي لا نرى فيها ـ كما يحلو لي أن أقول ـ لا حرف زيادة ولا حرف نقصان، فليس فيها تلك النتوءات الزائدة التي يتحدث عنها (همنغواي)، ولا تلك الثقوب، وانما كانت ـ كما يرى همنغواي العمـل الادبي ـ ذلـك الجزء البارز من جبل الجليد فوق سطح المحيط، مكتنزاً ثمانية اتساعه محجوبة عن الرؤية تحت الماء، ولكنها سبب أكيد وأكيد للجزء الظاهر أمامنا، أم ننتـظر أن نصـطدم به ولو كنا في أضخم باخرة لتنشقّ رغم كل فولاذها الضخم الصلب السميك، إلى نصفين؟!

. . هكذا كان ما يدخره (غائب طعمة فرمان) من العراق في نفسه، ورغم أنه ظل يقول ويقول من ذلك الوطن المدَّخر، ولكن القول يولد القول، ورغم أنه استجدى الذاكرة واستحلبها كما رأينا في (ظلال على النافذة)، ولكن تلك الذاكرة لم تكن لتنضب، لأن الوطن لا ينضب، ولأن غائباً لم يكن ينتفخ بعد كل عمل جميل له، ويرضى، ويسعد، ويسترخي، فيزيّن لنفسه حياة مستعارة كما جرى ويجري للكثير من ا لادباء، بل كان أمره عكس ذلك، وبالاتجاه الصحيح والطبيعي والعظيم والمأمول منه، كان يبحث دائماً وبدون استرخاء عن الوطن المفقود والوطن المرتجى والوطن المؤجل إلى حين. . حتى بدا له أن «دَخْله» لم يعد يستجيب، وان المفقود أكثر من الموجود أو الموعود به. . ولأن الفقدان امتد إلى العزاءات الموجودة التي يتشبث بها، وليس ثمة عزاءات موعود بها. . ولذلك كله رأيناه يقول عبارةً تنتمي إلى الاستحالة في مضمونها المنطقي، ولكنها تكتنز وتكتظُّ ـ على صعيد العاطفة الدافعة لها ـ برثاء النفس، أو على أن القدرة المتبقية لم تعد كافية إلاّ لرثاء النفس، وإلاّ فكيف يتأتى للمرء أن يكفَّ عن توديع المفقودين من الاعزاء، الضروريين، المجدين في هذا الزمن العصيب المحمول على أكتاف ألف عفريت»؟!

أقوال في غائب طعمة فرمان وأعماله :

«ان الكاتب، عبر شخصية «دبش ـ احدى شخصيات رواية القربان» يقدم صورة للبرجوازية المدنية الممتلئة عقلاً وروحاً بالاستبدادية الشرقية الاقطاعية البطريركية، وهو بذلك ينقب عن الخصائص المحلية لقطاع واسع من برجوازية المدن، عبر حساسية عالية بهذه الخصائص التي تذهب موغلة في عمق البنيان التراثي المشكل لخصوصيتها، بل ان القاريء في متابعته لهذه الشخصية، تطوف في ذاكرته ومخيلته صور من «بخلاء» الجاحظ».

عبد الرزاق عيد مجلة النهج ـ العدد ٢ سنة ١٩٨٢

«لغائب طعمة فرمان من اهتمام النقد حظ شخصياته في الحياة، فهذه الشخصيات المهملة والمنسية اليومية والعادية ـ والرواية انها بذرت أولى بذورها عندما توجه الكتاب إلى اليومي والعادي كما يرى باختين ـ هي التي تصنع التاريخ، وبها الحياة تستمر، وغائب بصمت الانسان اليومي ودأبه في الحياة، ودون ضجيج، بل وكشخصية شعبية متنسية تصنع التاريخ، هو أحد الذين يصنعون الرواية العربية ويشيدون بنيانها، انه أحد أعذب الاصوات الجميلة، صوت شجي ومؤس، يحمل في اساه، في شجن عالمه الروائي، احزان مجتمع انكسرت أحلامه، وآلام جيل تبددت امانيه، وليس ذلك بغريب على عربي معاصر، أو على ديمقراطي عراقي، فهذا الروائي الشجي كالغناء العراقي كالواقع المرير، حدق في الواقع ملياً، وقدم لنا رؤيته عما رأى».

محمد كامل الخطيب

«إن هذه الالفة، وهذه النغمة الانسانية التي كتبت بها الرواية (المخاض) سنحت للمؤلف ان يقرب القارىء شيئاً فشيئاً، ومن خلال أفراد مختلفين، ويضعه وجهاً لوجه مع الاحداث، ولا يجعله متفرجاً، مكتوف الايدي، بل يجعله مساهماً مع الابطال في النقاش حول آفاقها المقبلة، نجاحاتها، واخفاقاتها. . . »

المستشرق السوفييتي ايغور بلياييف في مقدمته للطبعة الروسية عن رواية المخاض

«يكاد يكون غائب طعمة فرمان الكاتب العراقي الوحيد الذي يركب اشخاصه واحداثه في رواياته تركيباً روائياً حقيقياً، لولا ميله إلى التكوين بالاسود والابيض فيما يكتب، فتفوته مناطق الظلال الغنية، التي هي مناطق الروائيين الكبار».

جبرا ابراهيم جبرا مجلة الاقلام العدد ٧/ ١٩٧٧

شخصيات روائية*

● كانت شروق تجلس جنب عطيّة، أخت عطا. والفتاتان تنتظران قدوم عطا من الدائرة.

- كل شيء أتوقّعه إلا هذا.

كانت «المَدْخّنة» تدخّن بشراهة، وكانت عطية تطرد الدخان من أمامها علانية وبحركات عصبية ملحوظة، وشروق لا تلتفت إلى ذلك، لأنها كانت مستغرقة في أفكارها، ومستاءة جداً. أكملت:

- الآن صار عطا مصدراً آخر للشائعة الخبيثة بينما كان جالساً إلى جانبي طوال السفرة، وكنت أدخّن، كما أنا الآن، والأفندي منطبح نصف انبطاحة، ولا يخجل، منفوخ من الأكل. ما يهمني. تعلّمت عليه. أجد فيه شيئاً يجذبني اليه بصراحة. أنت مثل أختي، وتعرفينني في المتوسطة، اذا انجذبت إلى شيء، لا يخلص مني.. هذا التدخين.

وأشارت إلى السكارة التي ابتلعت نصف دخانها.

- تعرفين، شروق؟ أنا لا أصدق.

- لا تصدّقين بالشائعة؟ طبعاً.

- لا، لا أصدق بما يقولونه عن عطا. المساء كلّه يقضيه وهو جالس في مكان واحد لا يتحرك، وحتى لا يتكلم.

- أنا أيضاً أقول لك. ولكن هذا الحاصل. رائد يستشهد به وينشر أقواله بين الناس. كأنه حاضر ليلة الدخلة، وأي، وأي... راح أتخبّل.

وكانت تنفث الدخان تباعاً مع كلماتها الحارّة الضجرة، وعطية تكتم غيظها وانزعاجها من الدخان، فشروق، على الأقل، زميلتها السابقة، وتشمل أخاها عطا بالرعاية والحنان، وتخلص له ولا إخلاص أخته من أمه وأبيه. أشفقت عليها:

- لا تحمسي، شروق. شنو هذا منك؟ راح يجي وتخلّيه يعترف.

- وين راح؟ الدوام انتهى من زمان.

وأحسّت بالضجر وضيق النفس. طمأنتها عطية:

- على جيه! وتتصورين عنده حيل يتمشى بشارع ابو نواس؟ راح يجي، وتشوفين ما عنده قوة حتى يسدّ الباب وراءه.

- سمعة البنت نزلت للحضيض. الألسن تتفنّن بحكايات السوء. وأنت تعقلين،

---

* فصل من رواية «المركب».

ياعطيّة، أن هذا يحصل في عزّ النهار، وأمام الناس؟

صمتت عطيّة، وكأنها متردّدة، ثم قالت بفتور:

ـ ما أعرف.

ـ يحصل هذا؟

ـ قلت لك: ما أعرف؟ الله خلاّني بين هذي الجدران إكراماً لعطا. ياريتك تأخذينه ياشروق، وتريحينني.

ضحكت شروق، وسحبت سيكارة أخرى. وقالت دون أن تردّ على طلب عطيّة:

ـ في طريق العودة قعدنا داخل المركب. رأيتها تعبانة تكاد تغفو في مقعدها. سألتها: سهام، كأنك راح تنامين؟ قالت: تعبت، لعبنا الطائرة، وأخذنا اللعب. وبالفعل سألت فتبيّن انها اشتركت مع عفيفة وعدنان ورؤوف وصبيحة. كلهم اعترفوا بذلك. ولكنهم قالوا: هذا قبل الغداء. أما بعد الغداء فهم لا يعرفون ماذا حصل. كل واحد سرح لوحده. أوه، ياربي، كأنما مؤامرة على البنت.

ابتعدت عطيّة عنها، وقالت خارج سحابة الدخان:

ـ دخّني، دخّني، ولا تنقهري. كل شيء يعرف في الآخر.

ـ في الآخر! صحيح في الآخر. ولكن بعد خراب البصرة.

كانت عطيّة في مأمن من الدخان، تتكيء على الثلاجة بسلام، وربما أمدّها ذلك بشجاعة لتقول:

ـ البنت تثبت عفافها بنفسها.

وفتحت باب الثلاجة بحركة لا إرادية، ورأت زجاجات المرطبات، وتذكرت أنها لم تضيّف زميلتها، فسألتها:

ـ تشربين بارد؟

رفعت شروق رأسها، واستطاعت أن ترى من خلال هالة الدخان.

ـ الله يخلّيك. . ذاك الـ «كرش»!

جلبت لها عطية زجاجة «كرش» وأعطتها المفتاح، وأفلتت منها بسرعة، ونزلت إلى باحة البيت تتنسم الهواء الطلق بعد أن أشبعتها شروق دخاناً، وجفّفت بلعومها. وبعد قليل جاء عطا. دخل الباب كالمتعثر، وتهادى رخو الخطوات. فصاحت به عطيّة:

ـ ها، اش قلت لك؟ ما سّد الباب. عطا سد الباب وراك.

ـ تعالى أنت سدّيه.

وحين لمح شروق رفّت عينه اليمنى بعصبية.

ـ ها، شروق؟ اش جابك؟

ـ قلبت الدائرة عليك.
ـ خير، إن شاء الله؟
ـ أين كنت؟
ـ الملعون رائد. . .
ولم يكمل. فصاحت شروق:
ـ سيقتلك رائد هذا.
التفت عطا إلى عطيّة:
ـ عطيّة، راح أموت من الجوع.
ـ هذا أنت، من شفتك وشفتني، ميت من الجوع.
قالت عطيّة ضاحكة، فردّ عليها بصوت ذائب:
ـ ارجوك، لا تغثيني. .
وجلس بالقرب من شروق، ورمقها بطرف عينه الثابتة. .
ـ أخبارك؟
ـ أخباري أخبارك. الناس كلها مشغولة بأخبارك. قل لي، عطا: متى رأيت سهام، ونحن الوقت كلّه قرب النار الخامدة!
سكت عطا، وأدار رأسه إلى الجهة المعاكسة. كررت شروق:
ـ قل لي، لخاطر الله، عطا.
ـ شنو؟.
ـ من أين كان لك الوقت لتراقب الناس، وترى فضيحة تهزّ الكائنات؟
ـ أي فضيحة؟
ـ ما تعرف؟
ـ لا، ما أعرف.
ـ معقول؟ الناس كلها تستشهد بك.
تكوّر عطا وكأنما يتلقّى ضربة، وعصر نفسه عصراً كمن يعاني مغصاً، وجعلت عينه ترفّ بسرعة، وقال هامساً:
ـ مالي شغل.
ـ كيف مالك شغل؟
ـ كل ذلك من رائد. . يخرط وأنا ساكت.
ـ يستشهد بك.
ـ أنا ساكت، فكيف يستشهد بي؟

ـ ولكن السكوت من الّرضى، يا أستاذ. أنت ساكت، وهو يلفّق على لسانك الأقاويل.

ـ والألسنة قليلة؟

ـ على لسانك أنت بالذات، لأنه معروف عنك أنك لا تكذب.

ـ مالي غرض ـ ودفع ذراعه نحوها بحركة وانية ـ عطيّة، راح أموت من الجوع. شروق لا تغثيني. معدتي خالية، وبعد شوية أنهار.

سكتت شروق إشفاقاً. كانت تشعر بأنه يعاني من ذلك الشيء الأبدي الدفين في صدره، والذي لا يستطيع التعبير عنه باللسان، ولكنه ظاهر جليّ في كل تصرفاته وأحواله. نادت عطيّة بعد دقائق من صمت متوتّر:

ـ تعالوا إلى المطبخ. الغدا حاضر.

بعد الغداء عادت شروق إلى التدخين. رجتها عطيّة ـ الله، يخليك، اطلعي من المطبخ. المكان ضيّق.

ـ تؤمرين.

وطلعت إلى الحـوش تدخّن بشراهتها المعتادة. وحين جلسوا ثانية، عادت تقول بالحاحها الشديد، وكأن لها حقاً شرعياً على عطا:

ـ عطا، لماذا تخضع لرائد بهذا الشكل؟

بعد تردد:

ـ يعني.. أفادني شويه.

ـ بأي شيء أفادك؟

ـ نقلني من الارشيف.

ـ حتى يستغلّك.

ـ ما عليّ! أنا أقدم المعلومات، وهو بكيفه يكتب.

ـ لا، يستغلّك بتشويه سمعة الناس.

ـ مالي غرض.

ـ طيّب، تقدر تكذّبه؟

ـ أقدر.

ـ صحيح؟

التفت عطا إلى الجهة الأخرى بعيداً عن مصدر الصوت. فتابعت شروق الحاحها:

ـ عطا، تحرّر من الخوف، تحرّر من هذا الجمود. ماذا جنيت في حياتك لتخاف؟ ماذا؟ قل لي.

ـ لا شيء.

ـ إذن، اترك «مالي غرض» هذه. هل لك غرض في تشويه سمعة فتاة شريفة؟ قل لي: لو جاءك شخص غداً، وقال لك: شروق غير شريفة، لأنها تدخّن أمام الناس، فهل ستصدّق؟

سكت. ألحّت:

ـ هل ستصدق؟ أجب.

ـ ما أدري... ما أصدق.

ـ أنت عجيب، ياعطا، لا أحد يعرف ماذا في أعماقك.

ـ لا شيء.

ـ أنا أعرف. إنه الخوف من قول كلمة، من المواجهة. جابه الأشياء، ياعطا، اعترض، قل كلمتك، وإلا سيسحقونك.

صاحت عطيّة:

ـ أرجوك، شروق. اتركيه، ما هذه المحاكمة؟

ـ إنه الخوف، ياعطيّة، وليس الكسل، مثلما تتصورون أنتم. الخوف من الاحتجاج، من القيام بشيء فوق العادة. ولو تخلّص من عقدة الخوف لدبّت الحياة في هذه... هذه... هذه.

ولانفعالها لم تجد الكلمة المناسبة لوصف تلك الكتلة الهامدة الجالسة إلى جانبها. فنغزت صدر عطا بأطول إصبع من أصابعها المصفوفة. جفل عطا، ورفع ظهره، وقال:

ـ لا، لا، لا...

ـ نعم، أريد أن أستفزّك، أحرّك أعماقك لتخرج من خوفك وتواجه العالم.. وسأجعله هذا واجبي المقدس.. ولهذا سأقبل بك زوجاً.

هللت عطيّة بين الجدّ والهزل، وعرق جبين عطا، فمسحه بمنديل.

● ـ هذه حجرتي الحقيرة، ياعصام.

وصلا اليها أخيراً، بعد أن استقبلهما فناء واسع مبلّط بالآجر المربّع فيه نخلة هزيلة، وشجرة مجهولة الهوية، وارتقيا الدرج، وصعدا إلى الطابق الثاني، قابلهما سطح واسع في آخره حجرتان، وعلى اليمين ممر ضيق مسيّج بدرابزين أخضر. مرّا بفراغ وحجرة، ثم أخرى هي حجرة رائد. في الحجرة رائحة كتب وجرائد وملابس قذرة، وأطعمة بائتة. وتحت المنضدة الواطئة زجاجات فارغة. وسطح المنضدة من الزجاج الأسود، وأرجلها من الالمنيوم، تنوء بكتب ومجلات، وأوراق كتابة، وقدح بلاستيكي للاقلام، وعلب سيكائر. وفي الحجرة أريكة سوداء القماشة مغبّرة، وبعض المقاعد السوداء الجلد، كأنها مستعارة

أو مشتراة من مكتب مفلس لسيارات الاجرة، أو استئجار البيوت. وعلى رفوف صغيرة في الجدار المقابل بعض التحف من السيراميك، وعلب بيرة أجنبية صفراء وزرقاء وخضراء، وأقنعة، وسبح شرقية. وعلى الجدارين المتقابلين من يمين وشمال رفوف أخرى من قضبان الحديد النحيلة مصبوغة بالأسود عليها كتب متفرقة. وكل شيء سواد في سواد.

- تفضّل اجلس.

ورفع رائد محفظة أوراق قديمة، ونفض الغبار عن مقعد الجلد. جلس عصام متوجّساً. وأجال بصره في أرجاء الحجرة، فرأى بعض اللوحات القديمة مركونة في زاوية، قال رائد إنها لفنانين عراقيين من زملاء خليل إما جرفهم النسيان، أو تحوّلوا إلى لون آخر من الفن أسهل وأروح. ولم يبد عصام أي استفسار، بل نظر إلى اللوحات مشدوهاً. وكأنما يحاول أن يتذكر شيئاً غاب عن ذاكرته.

- هل أصبّ لك قدحاً من البيرة الآن؟

- على كيفك.

- أوه، لعين أنا - وضرب جبهته بجمع يده - نسيت أن آخذ البيرة من البقال. دفعت الثمن له... سأخطف رجلي..

أمسكه عصام من يده:

- لا حاجة، اجلس.

- حسناً، وأنا أيضاً لا أريد ان تجلس وحدك في هذا الخمّ. وتتأمل مآخذ حياتي أكثر هذا أنا، ياعصامَ، وهذه عشيتي. أنا رجل طارىء على بغداد، تدحرج اليها من الشمال. أنا رجل مقطوع الجذور هنا. كل هذه البيوت مسكونة بعوائل مسيحية نازحة، وأنا المسلم الوحيد بينها. دعنا نسلي أنفسنا بقدح من العرق أو الويسكي. اشتريت اليوم نصف زجاجة منه خوفاً من أن أقع على زجاجة مغشوشة تباع بدينار ونصف تحت العباءة. ها، ما رأيك؟ سأصبّ لي عرقاً، ولك ويسكي. أنت تحب الويسكي على ما أظن. يذكرك بانكلترا، ولندن. ماذا كنت تشرب في اوروبا؟

سكت عصام. أخذ رائد يفتح زجاجة الويسكي دون أن ينتظر ما يقوله عصام. ولما فرغ من إعداد الكأسين، عاد يتحدث:

- ماذا كنت أقول لك؟ نعم، عائلات نازحة، وأنا أيضاً من عائلة نازحة.. ولوكنت مسلماً. في بلدتنا الشمالية لا يستنكف الناس من مزاولة هذه المهنة.

ودقّ كأسه بكأس عصام.

- صحّتك.

وبعد أن فرغ من مصّة طويلة من كأسه، أخذ يتحدث عن بغداد من جديد.

ـ أنـا طارىء على بغداد. جئت إليها غازياً، ومن إهمال الاقاليم شاكياً. المزّة، حقيرة، ها؟ سأنـزل وأجلب الصحون الأخرى. من أم كمال. هي المرأة الوحيدة التي تعطف عليّ وتطبخ لي أحياناً.

شرب جرعة كبيرة أخرى، وخرج قائلاً:

ـ سأكمل حديثي لك عن بغداد.

ولما عاد بالصينية وعليها بضع صحون من المزّة، وطاسة لوبياء يتصاعد منها البخار قال:

ـ عمّ كنا نتحدث؟ عن بغداد؟

ـ نعم، عن بغـداد، ولكن قل لي، يارائد: لماذا كل هذه الكراهية التي يحملها لبغداد النازحون اليها؟

ضحك رائد منتشياً، وتناول كأسه. قبل أن يفرغ ما في الصينية على الطاولة الصغيرة قرب الأريكة، شرب جرعة طويلة، وقال:

ـ تعجبني هذه الكلمة منطوقة من شفتيك البغداديتين. أنا أعرف إنك تدعي أنك بغدادي بالولادة. لا علينا، نازحون نعم، كل الذين هم من أصل غير بغدادي هم نازحون بالنسبة لأهل بغداد، بالفصحى والعامية. إلى هذا الحدّ يحتقرونهم. ولكنني ـ وشدّ قبضته في الهواء ـ سأغزوها رغم هذه الكراهية والاحتقار، أو بسبب هذه الكراهية والاحتقار. لقد جئت لأعريّ حقارتها كأية عاصمة من عواصم العالم، ولأنها بغداد التي تعوّدت على مذلة المغول والتتر وحكم السلاطين، عثمانيين وغيرهم. ومع ذلك فهي تبخل على أبناء قطرها فلا تشملهم برعاية، وتتركهم يقاتلون في مختلف الطرق المشروعة وغير المشروعة ليثبتوا هوياتهم . . . بغداد تحتقرهم وتحب نفسها.

ـ بالعكس، أعتقد أن أهل بغداد كوزموبوليتيون، وليست لهم نعرة البلدات الصغيرة في العراق. البغداديون هذا طبعهم، لا يتضامنون بينما التضامن موجود بين أهل كل مدينة عراقية.

ـ لا، ياعصام، أنت مخطىء. انظر إلى أهل بغداد حين يتحدثون؟ يشيرون دائماً إلى الـطارىء عليهم. هذا من الحلّة، وهـذا من أهـل المـوصـل، وهذا راوي، وهذا عانى . . . أليس ذلك احتقاراً؟

ـ لا أظن. هذه عادة وليست احتقاراً. البغداديون أيضاً يشيرون إلى محلاتهم، حين يتحدثون عن الاشخاص، هذا من الفضل، وهذا من الشواكة، إلى آخره.

لم يكترث رائد بكلام عصام، واستأنف ليقول ما في ذهنه.

ـ ثم إن حكـام العراق المتعاقبين، في السابق، بالطبع، لا يهتمون إلا ببغداد،

ويتركون المدن العراقية الأخرى تذوي في عزلتها.
وعاد إلى صفّ الصحون. ثم نظر في ساعته، وقال دون أن يترك عصاماً يردّ:
ـ تأخر اللعين.
ـ من دعوت؟
ـ ماذا عندنا غير شهاب وخليل. عطا كسول لا يتحرك من بيته، وأنا أحتقره، ثم إنه مقبل على زواج. و. . .
والتفت إلى عصام فرآه واجماً. فسأل:
ـ ألا يعجبك المدعوون؟
ـ لا، أبداً.
ـ ربما لا يستهويك مجيء شهاب
ـ لا، ابداً.
ـ أريد أن أكون حمامة سلام بينكما. منذ زمن بعيد لم أقم بهذه المهمة.
ـ وهل بيننا خصام؟
ـ لا، ولكن ربما جفوة، سببتها تلك السفرة اللعينة. ولكن شهاب المسكين لم يكن إلا شاهداً بارداً ومعزولاً لحادثة مبتذلة من كثر ما مورست في التاريخ.
سكت عصام. كان متردداً بين منطلقات عديدة للاعتراض عليه. ولكن تردده لم يطل. فقد قطعه صوت صدر من قاع البيت. خرج رائد. ودلّي جسمه من الدرابزين، وصاح من هناك:
ـ تعال، عيني، تعال. أنت تعرف الدرج.
لم يفاجأ شهاب بوجود عصام. سلّم عليه ببشاشته المعهودة فقال رائد مهللاً:
ـ فاتحة خير.
وصفق.
ـ ماذا تعني؟
ـ انفتح الطريق للمصالحة، مثلما انفتح الطريق يوم الجمعة إلى رحم تلك الغجرية.
قال شهاب ضاحكاً:
ـ لم يكن أيّ من الطريقين مغلقاً.
ضحك رائد بصخب، وقال:
ـ تعجبني أنت. دائماً رائع دعني أعمر لك كأساً مضاعفة، عقاباً على تأخّرك أو جزاءً على روحك الأريحيّة.

وقبّل شهاب من جبينه. طبطب شهاب على كيس من النايلون كان قد وضعه على الطاولة الصغيرة. وقال:

ـ لا أعرف أية أريحية جعلتني أجلب لك فودكا روسيّة.

قال رائد:

ـ إنه الغزو القادم من الشمال، كما يقول الصينيّون في أدبياتهم. على العموم نقبل بالفودكا، لأن الذي يدخل من هنا يخرج من هناك.

وأشار إلى فتحتيه المكشوفة والمستورة.

ـ افتحها، ياأخي، افتحها.

ـ ماذا تعني؟

ـ الزجاجة.. تشرب من الثلج، أليس كذلك؟

ـ نعم، وسأترك عرقي، وأشربها معك.

تشاءم عصام من سير الجلسة، وتململ في مكانه. وراقب رائداً يفتح الزجاجة الجديدة، ويصبّ منها نصف قدح لشهاب ولنفسه. كانت يده ترتجف. قال له:

ـ يبدو أنك تشرب على معدة خالية.. كُلْ، يا أخي، كُلْ. أدار رائد اليه وجهاً محمراً، وقال معاتباً:

ـ ماذا تريد أن تقول؟ ظهر عليّ السكر مقدماً؟

تراجع عصام.

ـ لا، عفواً. ولكنك منفعل أكثر من اللازم.

ـ انه الابتهاج، لا أكثر. طيّب لنشرب نخب صحة الضيف الجديد، هيا!

وجرع كأسه جرعة واحدة كبيرة مخافة ان يراجع نفسه، أويحتجّ عليه الضيفان، وأخّ مقلصاً شفتيه، وتواردت الكلمات الحادّة على ذهنه قبل أن يعود وجهه المتقلص إلى سابق وضعه. وكالعادة سأل:

ـ عمّ كنا نتحدث؟

قال شهاب:

ـ عن المعد الخالية.

ـ التي تسيطر عليها المعد المتخمة؟ سيكون حكم التاريخ قاسياً. ولكن لا أحد يعرف لمصلحة من؟ وذلك عذاب السعير.

قال شهاب:

ـ هناك من يعرفون جيداً.

ـ تقصد من أمثال السيئة السمعة سهام؟ هؤلاء سيموتون قبل أن يروه.

شعر عصام بضيق في صدره. وتأسّف لأنه لبى الدعوة. داوى جرح نفسه بجرعة صغيرة من الويسكي، ولكن الأفكار صارت أكثر حدّة ومضاء في ذهنه. قال كالصائح:

- لم هذا كلّه؟ إلى متى تصبحنا سهام وتمسينا؟

قال رائد متبرئاً:

- وهل تحسب أن لي ثأراً عليها؟ لا، والحيّ القيّوم.

- إذن، يكفي.

- طيّب، يكفي.

ولكنه مدّ يده إلى الطاولة، فوقعت على كأس عرقه مصادفة، فرفعها إلى فمه ساهياً، ولربما لم يفطن إلى تغيير طعم الخمرة الجنوبية والشمالية لتزاحم الأفكار في ذهنه، وهي تريد ان تطل على لسانه. بعد لحظة صمت عاد يقول:

- ولكنني لا أحب اولئك الذين ينزلون من عليائهم البرجوازية، لينظروا إلى المساكين بشفقة ملاك من ملائكة الرحمة. لا أحبهم، على الاطلاق. هؤلاء كذّابون يعيشون على الموضة، يريدون ان يجمعوا المجد من أطرافه: سؤدد البرجوازية ودين الطبقة العاملة، هؤلاء لا يقاسون ما يقاسيه المساكين، ويتحدّثون باسم المساكين؟ يريدون أن يبيعوا التقدمية على رؤوسنا؟ يتحدثون عن الذين يعانون الجوع أو يأكلون الطعام السيّء، وهم أنفسهم لم يعانوا من ذلك؟ انها تريد أن تبيع كل هذا لي؟ أنا الذي عانيت وشقيت، وتسمّمت بالأطعمة الفاسدة. وتريد أن تكون الفنار الذي تنجذب اليه السفن الضائعة في بحر الجوع والحرمان؟ أنا أنا، وهي هي.

صاح به شهاب:

- طيّب، لا تصرخ - دعنا نغيّر الموضوع.

- طيّب، غيّروه، خذوا راحتكم. هذا بيتكم، وإن كانت بيوتكم تتألف من غرف كثيرة. ولكن هذا موقفي المبدئي. وهذا سبب فرحي حين كسروا أنفها. وممن؟ من البسطاء. انتم تعرفون من فعل ذاك، ولا حاجة إلى الادعاء.

ونظر إلى شهاب نظرة ذات مغزى. قال عصام بانزعاج وعصبية:

- اسمع، إن هذه الاقاويل تورّطك أنت قبل أن تورّطها.

- أنا رجل.

- تورّطك من الناحية القانونية.

- أوه، القانون. هل يوجد قانون في أم الخنازير؟ ثم هناك شاهد حيّ.

قال شهاب:

- عند الجد سيتبرأ.

خزره رائد بنظرة حادّة:
ـ لم أتوقع ذلك منك.
صاح عصام مغتاظاً:
ـ ياجماعة. دعونا من هذه المسألة. لماذا نصبح ونمسي على هذه الأغنية؟ أنت نفسك، يا رائد، قلت إنها حادثة مبتذلة من كثر ما مورست في التاريخ.
ـ أي. نعم.
ـ لنسكت، إذن.
ـ طيّب، سكتنا.
وبدا مقهوراً، حتى أنه جمد في وضعه الذي لم يكن مريحاً، وراح يكرّر ساكن الأوصال:
ـ ساكت، ساكت، ساكت.
وساد صمت مرهق لدقائق ذكّر رائد بصمتهم المدحور حين كانوا منبطحين على الشاطىء، وقد فاتهم المركب. فبدأ يستعين بالخمرة ليلّم أشتات نفسه، ويتغلّب على التبعثر في أفكاره. رآه عصام يستزيد منها فقال:
ـ على كيفك.
ردّ رائد دون أن يرفع بصره:
ـ لم يبق إلا الخمرة نجرعها.
عاتبه شهاب:
ـ وهل جئت بنا إلى هذه الحجرة لنجرع الخمرة؟
رفع رائد رأسه بحركة رفض:
ـ لا.
واهتز الرأس قبل أن يستقر على يديه المضمومتين، ويتخذ وضع المتأمل.
ـ طيّب؟
ـ حسناً، حسناً.. ماذا أقول لكم؟
وبسط يداً واحدة، وبدا وكأنه يداري شيئاً يخجل أن يبوح به. انتظر ضيفاه ما ينطق به. فرفع رأسه ولاحت ابتسامة شقراء مرتبكة على شفتيه المبلّلتين. وقال:
ـ دعوني أشرب أولاً.
ـ أوه، لا تستعجل كثيراً..
ـ الكلمة لا تخرج بغيرها..
واختطف كأس الفودكا، وشرب جرعة كبيرة منها حتى قبل أن ينتبه الضيفان،

ويحتجّا.

ـ طيّب، الآن أقول لكما. . جئت بكما إلى هنا لأعلن (كان يتكلم بلهجة خطابية متخشّبة الكلمات، وعيناه تتدحرجان ككرتين من الزئبق الرمادي) لأعلن. . . أنني قررت. . أن يكون لي. . . عيد ميلاد.

أفلتت من شهاب ضحكة رعناء، واهتز كتفا عصام بضحكة أخرى حاول تجميلها بقوله:

ـ مبروك.

ـ نعم، نعم ـ وسأجعله هذا اليوم من أيار. . . شهاب، لا تضحك. . . لماذا لا يكون لي عيد ميلاد؟ لمجرد أن أبي كان من الغفلة وهموم العيش بحيث لم يسجل اليوم والشهر؟ فلماذا لا يكون لي عيد ميلاد مثلك، ومثل عصام، ومثل الأبله عطا، وكل أولئك الذين ينعمون بمكان دافىء تحت الشمس.

ـ يوم ميلادك الأول من حزيران حسب القانون.

ـ لا، لا، أريد مع القطيع. . مع كل المنسيين من آبائهم، الحثالة الذين يكون ميلادهم في أحيان كثيرة عبئاً جديداً يضاف إلى كاهل الوالد. أريد أن يكون لي يوم خاص بي، يوم إطلالي على هذا العالم الرجراج، وأطالب بحصّتي فيه. من أنا إذن؟ حشرة، ذبابة ليس لها تاريخ؟ لهذا السبب فكّرت في أن أجمع اصدقائي، وأعلن لهم يوم ميلادي، وأنني جئت إلى هذا العالم لأكون مثل الآخرين، جئت لأبقى. . .

كانت ضحكة شهاب باهتة ناشزة، مثل عطسة في حفل مهيب ـ خفّفها بأن قال:

ـ ومن ينكر حقك في يوم ميلادك؟

ـ وفي خيرات هذه الدنيا أيضاً.

ـ يا أخي، من يمسكك، تفضل وأغرف.

كان السكر واضحاً على رائد من الانتفاخ الذي ظهر تحت عينيه، وانسبال جفنيه الترابيين، ومن عرق جبينه، وترنّح رأسه بين كتفيه، قال عصام محذّراً:

ـ فقط ألا تعتبرنا حرّاس الجنّة.

ثنى شهاب على كلامه مسرعاً:

ـ بالضبط. نحن نكافح في سبل ما سميّته مكاناً دافئاً تحت الشمس.

رفع رائد إليه رأسه بصعوبة، ونظر اليهما غير مصدق، وقال:

ـ انتم؟ واي واي. .

ـ صاحبنا سكر

ارجع رائد ذراعاً رخوة.

ـ لا، أبداً.

وارتطمت ذراعه بزجاجة الفودكا، وحاول أن يمسك شيئاً وهمياً، ولكن يده وقعت على حجره. فنكس رأسه مخذولاً، وخمد مستسلماً إلى رخاوة قاهرة حدّدت تعامله مع الأشياء، ومحاولاته. وبعد خمس دقائق لم يعد يحاول شيئاً، ولم يعد يسمع همس الصديقين. كان في عالم يتقلّص باستمرار ليسقط في خدر النوم.

ـ نام التعيس.

ـ حسناً فعل.

ـ دعه يحلم بالجنة.

ـ يريد حصّته من الغنائم.

ـ افتح، ياسمسم!.

وسقط الآخران في بحر الصمت. حاول شهاب أن يخرج منه بمحارة:

ـ أما تزال غاضباً عليّ؟

ـ أترك هذه الكلمة.

فتح المحارة قليلاً:

ـ بعد أيام سيُمحى التاريخ القديم.

نظر إليه عصام مستفسراً، فأخرج شهاب طرف اللؤلؤة:

ـ ويبدأ تاريخ جديد.

ـ ماذا تعني بذلك؟..

أطبق شهاب كفّه على اللؤلؤة:

ـ لا تطالبني أكثر. ستعرف الأمور في مواقيتها.

غافله عصام وضرب على كفّه في محاولة لزحزحة اللؤلؤة:

ـ وهل تحسبني أطرش أو مغفلاً إلى هذا الحد؟

ـ لا، بمقدساتي. أنا أخوك. ألم نتربَّ في شارع واحد؟

تذكر عصام كلمات أبيه:

ـ ولكن السبل اختلفت بنا بعد ذلك.

استرخى شهاب، ونظر في وجه صاحبه:

ـ ماذا تقصد؟

وبدأ رائد يشخر شخيراً مقبضاً.



استقالة وطن ام استقالة حاكم؟

فالح عبد الجبار، صادق الصائغ، فوزي كريم، فاطمة المحسن، عارف علوان، زهير الجزائري.

(هـذا المقـال الجمـاعي، تمليه علينا لحظة حارقة من تأريخ العراق المعـاصـر، لحظة تتواتر فيها فجيعتان: دمار شامل واحتلال، فيما ينفتح المستقبل القريب على حرب اهلية. هذا الواقع الحارق، يبز الكلمات، كما يبز الخيال، وفيه تصبح الكلمات مجرد اطلالة عاجزة من «وعي شقي» على وطن ينزف)

تلقي الحـرب الاهلية ظلالهـا الواجمة على خلفية بلد خرج لتوه من الحرب شبه مشلول، خمس ارضـه محتلة، وشعبه جريح ومهان، ومصيره يتأرجح على كفة موازين رجراجة، فيما يبدو الافق أمامه مسدوداً.

انتهت حرب السنوات الثمان مع ايران، إلى نقطة الصفر، بعد ان تركت خلفها ٢٠٠ الف قتيل، ونصف مليون جريح ومشوه، بالاضافة إلى خراب شامل وديون تقدر بـ ٥٠ مليار دولار، وكلف اعمـار اعمار تتراوح بين ١٢٠ ـ ١٦٠ مليار. وقبل ان يلتقط العراق انفاسه، ثانية، جاءت الحرب الجديدة بفواتير أكبر: ١٥٠ الف قتيل و٢٠٠ الف اسير.

العراق المتخم بالغلال وربوع النفط في السبعينات، بات في التسعينات [illegible] ثعاً، بحرفية التعبير لا مجازه، اذ ينبغي ان ننفق ما يناهز ١٨٠ مليار دولار لترميم ما [illegible]. ولكيما ننفض غبار الديون القديمة يتعين دفع ٥٠ مليار أخرى. أما ثمن العودة إلى الاسرة الدولية، فقوامه غرامات حرب تقدر، في أحسن الفروض، بـ ٢٥ مليار، هي سعر الهمجية التي انفلت جماحها في الكويت بقرار من الحاكم العراقي.

هذه الارقام، تعني، باختصار، ان العراق، تحول إلى أمة من ١٧ مليون جائع، من الآن وحتى نصف قرن قادم. ونرى مشاهد المستقبل منذ الآن، على شاشات التلفزيون في صورة عراقيات جائعات واطفال حفاة يشحذون كسرات من الخبز أو علب سردين عند نقاط التفتيش للقوات الامريكية المنتشرة في الجنوب.

بموازاة هذه الصورة الكالحة، ولربما في مركز القلب منها، ثمة واقع الحرب الاهلية، التي يخوضها أو يتهيأ لخوضها شعب مهان وجريح، معبراً فيها عن رفضه وغضبه، بينما في القاطع الآخر بقايا جيش مقهور، يسعى به الحاكم إلى سحق شعبه وتحقيق نصر عليه، عجز عن تحقيقه في جبهات القتال.

ان الحاكم الذي بدأ حربه في الكويت تحت راية «المؤامرة الكبرى» يواصل الحرب ضد عشرات المدن العراقية تحت الشعار نفسه. وهو يطلب من القوات الامريكية الاذن باستخدام طائراته المقاتلة لسحق شعبه بالذات، وحتى الآن دفعت المدن الثائرة ضريبة كبيرة (٣٠٠٠ قتيل في السليمانية، ٥٠٠ في اربيل، ناهيك عن كركوك التي سددت حتى الآن ثمناً باهضاً: ٣٠٠٠ قتيل، أما كربلاء والنجف وحدهما فالفواتير المدفوعة بلغت ١٣٠٠٠ قتيل) ولا أحد يدري بالضبط أرقام الضحايا في البصرة، والناصرية، والعمارة وغيرها من المدن الغاضبة. إلا ان تقارير الصحافة العالمية تنقل لنا أخباراً عن اعدامات بالجملة، وجثث تتدلى من مواسير مدافع الدبابات، بينها جثث صبية وفتيان لا تتعدى اعمارهم الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، ويقول مراسل غربي، قادته المهنة إلى كركوك، ان في المدينة مزيجاً من روائح جثث متفسخة، وبول وغائط ومياه آسنة، مما يجعل طعم الهواء عفناً ومراً. انه مذاق المدن المفجوعة بهجمة قوات الحاكم.

ويكتوي المدنيون، أكثر من غيرهم، متوزعين بين انياب الجوع، وقصف الهليوكوبترات، وجولات فرق الاعدام، التي تعمل بهمة خارقة في المدن التي فتحت عنوة على يد بقايا الجيش الرسمي.

وتفيد بعض التقديرات ان من شأن أمد الحرب الاهلية ان يمتد، مطيلا عمر المأساة. فالمعارضة المنظمة، من جهة، تفتقد إلى القوة العسكرية الكافية، رغم سعة جماهيرها، التي هي في آخر المطاف، جماهير عزلاء قاتلت أول الأمر بالعصي والسكاكين والقبضات العارية، والنظام الحاكم في الناحية الثانية، تقلصت قوته، فلم يعد يتمتع بجيش المليون، فهو يقاتل ببقايا جيش لا يزيد عن ١٥٠ الف وبقايا جهاز امني، مولغ بدم العراقيين وما يزال متعطشاً للمزيد.

ان عشرين عاماً من احتكار حق النطق والتفكير والقول والعمل، في ظل نظام الحزب الواحد، قد افرغت العراق من جل قواه الحية، وفرضت صياماً سياسياً على شعب

بأسره.

ومن الطبيعي والحالة هذه ان تعيش قيادات المعارضة في المنافي أو في شعاب الجبال، وان تعود إلى وطنها وشعبها، أو تدير معركتها مؤقتاً من الخارج، فليس الوجود القسري في الخارج مطعناً في انتماء، بل شهادة حية على جموح البربرية، التي بطشت بالشعب وارغمت مليوناً ونصف المليون على التشتت عبر المنافي البعيدة، وتوزعت على اصقاع المعمورة. ويصعب على العراقيين الذين عاشوا عشرين عاماً تحت حكم «العباءة والخنجر» ان يتلمسوا وسيلة أخرى، غير العنف، للوصول إلى واحة الحرية. فهذا الخيار فرض فرضاً.

ان الاسئلة الحارقة تتقاطع: كيف السبيل إلى وقف الحرب الاهلية، دون استقالة صدام حسين؟ كيف السبيل إلى اعادة بناء العراق المدمر والمطعون والمفلس، دون عون من الاسرة العربية والدولية التي ترفض منح الثقة لمثير شغب لا يؤتمن. كيف السبيل إلى الحفاظ على وحدة العراق، مع اصرار الحاكم على تجاهل الرفض الشعبي له، ومن يحافظ على وحدة العراق والبلد غارق في حرب اهلية، ومن يزيل الاحتلال عنه، وسلطته المركزية تشرع بنادقها بوجه شعب يصوت ضدها بالسلاح، وكيف تتوقف الحرب الاهلية والحاكم المفرد يرى انه فوق أية مساءلة، وان أي اعتراض عليه هو الرجس الأكبر؟

لا فكاك من دائرة هذه الاسئلة الحائرة إلا بفتحها على خيار الحد الأدنى على الأقل: استقالة الحاكم العراقي الذي يفتقد إلى أي تفويض شعبي.

لقد صوت الجنود ضد الحرب، باستسلام جماعي قل نظيره في تاريخ الحروب، فقد وصل عدد الاسرى إلى ٢٠٠ الف خلال ١٠٠ ساعة، ويصوت العراق اليوم بصيغة جديدة افرزتها المأساة، مدن عاصية، متمردة، لا افراداً يدلون باصواتهم في صناديق اقتراع. وعلى الرأي العام العربي والعالمي ان يأخذ هذه الحقائق بنظر الاعتبار، فلا يتعامل مع المأساة بقفاز الرأفة، بل بعين الادراك والحكمة.

ان التاريخ مليء بحكايات وأخبار زعماء اخطأوا في حساباتهم في الحروب فلجأوا، بصرف النظر عن حسن النوايا أو سوئها، إلى محكمة الضمير الشخصي، وعولوا على فضيلة التأمل، فاصدروا، من ثم، الادانة على انفسهم بانفسهم، ضغطوا على زناد المسدس الموجه نحو الصدغ ونفذوا العقاب الذاتي. وهناك آخرون هالهم وزر الخطأ فلجأوا إلى الاستقالة، وهذا اضعف الايمان.

وحسبنا، في تاريخنا العربي المعاصر، ان نذكر مثالاً من مصر بعد حرب حزيران ١٩٦٧، بالرغم من عدم وجود مثال دقيق ينطبق على الظرف الراهن. كان الزعيم الراحل جمال عبد الناصر يخوض حرباً ضد اسرائيل، وهي حرب مقدسة محفورة في الوجدان

العربي وليست مجرد امجاد وهمية وطموحات شخصية، وكان القتال يجري على أرضه لا في أرض أخرى، ولقد شاءت الظروف ان تخسر مصر في هذه الحرب (الوطنية بكل المعايير) ١٥ الف شهيد في سيناء.

وسيان ان كان الخلل عسكرياً، أو سياسياً، فالرجل قدم استقالته باعتباره المسؤول الاول، وبقية القصة معروفة، فلقد تأثرت الجماهير لرهافة وحساسية هذا الضمير، فثارت، لا لتحاسبه، بل لتعيده إلى سدة الرئاسة.

نتأمل هذين التأريخين ـ مصر عام ١٩٦٧ والعراق ١٩٩١ ـ بوعي حزين. فها نحن نرى لغة بعض المثقفين والساسة العرب تصف الغضب العراقي الساطع بانه محض «اضطرابات» أو ترى في المأساة المركبة «مؤامرة خارجية» أهو إلتباس عقلي هذا الذي لا يبصر واقع العراق: امة جياع عليها ان تدفع ٢٥٠ ملياراً. امة غاضبة، حاكمها غير المفوض يتشبث بزمام السلطة، ولا يرمش له جفن حتى لو محق العراق محقاً؟

إلامَ تستمر دورة الموت والخراب هذه؟ هل كتب على العراقيين ان يعيشوا بين كل حربين حرباً ثالثة؟

هل يمكننا المفاضلة بين خيار ان يكون العراق مقبرة كبيرة، أو واحة للديمقراطية؟ وهل انغلقت أمامنا السبل، فلا حل لشعب كامل إلا بفرد واحد كما يقترح علينا بعض المثقفين العرب، فيختزلون وجود العراق في شخصية احادية واحدة، وممتهنين، بحسن نية نادرة، عقل وذكاء سبعة عشر مليون عراقي:

تتقاطع الاسئلة، وكل الالتباسات في هذا السؤال الأخير: هل المطلوب التضحية بوطن لانقاذ فرد، أم التضحية بفرد لانقاض وطن؟

٢٧ آذار ١٩٩١



صاروا ظلالا للجبال وتوقيتا للالم والكبرياء..

رجاء أحمد

جفاف حياتهم لا يعادله إلا مسيل دمائهم. ونواحهم.. ياالله،

نهر من النوح و«اللاووك»[1] الحزين، يخرج من الجبل، وإلى الجبل يعود..

من الجبل يجيء الاكراد، وإلى الجبل يعود الاكراد. كأنهم انشطروا لحظة انفصام العالم، فانشطرت اسماؤهم وذكرياتهم، يعودون إلى الثرى قبل ان يولدوا مكفنين بالبكاء.

دون توقيت للرحمة ولا زمن للطفولة، كأن خيط اندماجهم بالعالم مزّقه تتار السهول وذئاب ألوية الغروب. كأن البلوط والجوز والاسبندار أقدمُ من خلودهم، وهم دفنوا قبل جذوره، اسماءهم. كأنهم لم يصنعوا من ضراوة العزلة طرق ضوء جبلية، وشواهد قبور العابرين، ومواقد أمل البيشمركه الجائعين على مشارف (قزلر)، و(سويلمش) و(هندرين)[2].

يا للاكراد..

ميراث بنادق وشهداء، غضون غدر ومجازر، رايات دمع ومحبة، واسبندارات ابدية جبلية ترشد الفصول والغزلان والغابرين، شموع اذا أدلهم ليل النازحين مشاعل.

* * *

بين الدموع والمعابر تتقدم قوافل البكاء.

هل يوجد بيت للدمع؟ فلماذا وحدهم الاكراد يظلون على قارعة المأساة، عند منع

التجول الدامي؟ لا أحد يساعد العصافير، فكيف تبني في ليلة واحدة اعشاشها. ما بال الاكراد لا تمضي بهم الساعات ولا يمضي اليهم النوم. لا يتطلعون إلى غير قراهم ولا تشبه وحدتهم إلا ظلالهم. اشباح الساعات تدق اجراسها فوق ازمنتهم. بلا مهود لا ينام الاطفال، والبكاء لا يرضع الفقراء. المقرور لا يتوسده النوم على أسرة الماء الجبلية. في حضن الثلوج لا تسكن ثلوج ودّية. والرطوبة ترشد الموت إلى دهاليز الجسد وقوافل الاكراد. . والزمن لا ينظر إلى الراحلين إلاّ كما يرى المسافر عبر زجاج الطائر الحديدي، نهراً من ضباب يتشوش على شاشات العزلة والمصير. على وجنة الجبل رسموا أسماء من لم يعد يعنيهم التنفس.

تتهشم الاسماء كالسحب والحوادث البعيدة، كقطوع الجبال الغامضة والخطوات التائهة. لماذا تؤرخ تقاوم النابالم و «الكيمياوي» اسماءاً كردية تتدفق كالشلال؟

* * *

غابات الجوز تخطو خطوات الثلج تخطو، جيل الشقاء يخطو، الضجة تزداد ضجيجاً والاطفال يزدادون طفولة قبل أن يموتوا لأن الطريق موصدة بالرحيل. الرعاة صعدوا إلى «الجوستانات»[٣] قبل مواسم الصيف والاعناب فتجمدت قبل انتصافها الايام. من يزيح صهاريج الهم ويحرر (كاوه) الجبلي ويطلق «القَبَج»[٤] من فخ الصيادين؟

الهواء مبتل والدمع مبتل. الصراخ تحت اقدام شجر البلوط مذراة حقلية. اسفل الاشجار جثث مبللة، خيام مبللة، عراء مبلل في كون مبتل وليل من الامطار. والاكاذيب تبلل الهواء وتتسلل عبر مايكروفانات اذاعة «الكيمياوي» والجحيم الأصفر.

الماء ثقيل والراحة كالنوم العابر لا تأتي. وطريق الاكراد كالدهور لا تنتهي ولا تزول.

طريق الاكراد وخرافة الوصول بلا بداية ولا نهاية. يرتفع الأمل نحو الضباب. والضباب ينحني والجبال لا تنحني، والتوابيت تصطف واطفال الكرد يحتضرون وتغسلهم الصرخات.

الحوامل يجهضن فلا يتوقف خط الرحيل. الموتى، والاكراد المسنون، يهدهدهم الوداع فيدخلون في الغيبوبة والنعاس، وعلى نيران احلامهم، يهدىء الجوع روعه، وتتوسدهم أبدية شقاء الاكراد الجياع، بلا عزاء.

* * *

الاخبار هي التي وضعتهم في هذه المتاهة الجبلية.

هربوا من الساعات المنهكة فداهمهم الخوف والترقب وامطرتهم المدفعية الثقيلة وحوامات اللصوص والكلاب، والافق انسد برعدة «الكيمياوي» وزمهريره.

انفجر تاريخهم كالغام حرب مجنونة تحمل رقماً مجهولاً في سلالات ابادة الآمنين.

ركضوا في شعاب الاكراد خلف مفارز الجبال. توغلوا في زمهرير خوفهم، وبسيقان ملحية واوردة عارية من الدفء، صاروا ظلالاً للجبال وحياة طينية تفككها رموز الماء وقذائف الحركة الكونية للجوع والاضطهاد والاستبداد.

* * *

جبليون منسيون..

معلقون عند خواصر الألم كشامات جبلية. يفسرهم الصوت في الهاوية المسدلة الاضواء، ولا يسمع عويلهم العابرون.. ليس ثمة غير الجبال والالوان الشرقية للريح وقوافل الجوز والاسبندرار والاحلام الذهبية لـ (الروبارات)[٥]، والوجنة الدامية لنسيان يولد كل عام باسم شقائق النعمان، وزنابق الذكرى الحجرية مثل قبور بلا شواهد،

ليس ثمة غير ظلال الجبال وتوقيت الألم والكبرياء..

ليس ثمة غير الاكراد..

الهوامش

(١) غناء ملحمي كردي فلكلوري معروف بادائه الطويل الشبيه بالولولة والنواح.

(٢) امكنة في كردستان شهدت معارك بطولية خاضها الانصار ضد القوات الحكومية.

(٣) الجوستانات هي المناطق الباردة عند قمم الجبال يذهب اليها الرعاة الاكراد في الصيف بحثاً عن المراعي لاغنامهم، مقابل الهبوط إلى الوديان شتاءاً طلباً للدفء.

(٤) «القبج» كأنه الدراج في المناطق العربية.
طائر كردي جميل يصطاده الصيادون طمعاً في لحمه اللذيذ.

(٥) الروبارات جمع (روبار). النهيرات الجبلية.



في ضيافة الحبيبة

غاتم حمدون

انطلقت بنا حافلات المؤتمر إلى بيروت والقلوب نهب لشتى الهواجس والمشاعر، واختلط النقاش بالذكريات والنكات. لكن انتفاضة الوطن لم تغب عن اللسان والاذهان. فالآمال قد انتعشت بخلاص العراق، وخلاصنا، نحن المنفيين، من الغربة المريرة.

ها قد أمسيتُ في الثالثة والستين، ونالت الغربة من عمري نيّفاً وعشرين سنة، على دفعتين. لكنني، والحق يقال، عشت قبلهما غربة أخرى: في ربيع الشباب امضيت اربع سنوات، لا أحلى منها، في بيروت. قصدتها للدراسة على نفقة الدولة، بعد مراهقة ذهب العُسر والانطواء بمسراتها حتى نفرت من مدينتي، رغم انها «أم الربيعين».

ومن عاش مثلي حياة جامعية لا يعكّرها مرض أو رسوب، ولا خواء الجيب أو ندرة الخلّان، يعرف حلاوة تلك السنوات. فكيف وأيامها تهادت في بيروت؟ وكيف لا أغرم بعروس الشرق يومذاك؟ ومن لا يتوق إلى لقاء حبيبة؟

لكن الحبيبة ظلت تتغير. ولدى كل زيارة تفاجئني بفورة العمران واشتداد الصخب. وجامعتي العريقة، هي الاخرى، لم تسلم من بضع ابنية جديدة ثلمت بهاء حدائقها، وحجبت عن السائر في الدرب الذي يخترقها بعضاً من زرقة البحر المترامية حتى الأفق. كان القوم معجبين بازدهارها. أما أنا فكنت ازداد حسرة على بيروت شبابي.

ثم داهمتها الحرب الاهلية، فحل بيننا فراق طويل. لقد سمعت وقرأت الكثير عما اصابها من خراب، حتى لم يعد بي شوق إلى لقائها حين انتهت الحرب. لكن ما العمل وقد اختارت المعارضة بيروت منبراً للمؤتمر؟

ما أن دخلنا أرض لبنان حتى تذكرت مثلنا الشعبي: (اللّي يشوف مو مثل اللّي يسمع). فطوال الطريق رافقتنا جراح الحرب: أشلاء ابنية كانت تمنح الدفء والفيء للناس، ومدارس لتعليم اطفالهم، وبيوت عبادة لشتى الطوائف، وفنادق لراحة المصطافين، ومقاه لمواعيد الاحبة.. هياكل صدئة شوهاء لسيارات من الاصناف جميعاً.. اكوام واكوام من النفايات.. اهمال يكرب النفس في كل مكان..

ترى ما حال شيخ، مثلي، كدّ وشقى بضعة عقود حتى ملك شقة تأوي عياله ويمضي في امانها بقية أيامه، فاذا بحرب الطوائف والاحزاب تحولها إلى انقاض؟ ماذا حل بأهل كل هذه البيوت المحطمة؟

في الفندق حرن المصعد في منتصف الطريق. لكن الصبي المكلّف به قال ان مولّد الفندق سينجدنا بالتيار فوراً. فبيروت عليها القناعة حتى بست ساعات من الكهرباء. ماء المغسلة مج لا يكاد يبري الصابون. ماء الشرب يباع بالقناني..

وأهلنا في الوطن، ماذا يشربون؟ أتراهم يستحمّون؟ وكيف يعيشون بلا كهرباء؟ وهل لديهم بطاريات للراديو علّه يوافيهم بشيء عن مؤتمرنا؟ ها قد سبقونا إلى الثورة على الطاغية بعد ان طفح الكيل. فهل يضيء المؤتمر طريق العراق إلى السلام والامان، إلى حقوق الانسان، إلى بناء حضاري؟

من شرفة غرفتنا رأيت العتمة تلف حَبيبتي، إلا من أضواء سيارات تدفقت في شارع الحمراء القريب، وبقع تمنحها المولدات الخاصة لهذا الفندق، أو ذاك الدكان. عبثاً حاولت عيناي رؤية برج الساعة في جامعتي. ترى هل طوّحت به حرب الاخوة - الاعداء؟ لبثت ساهماً والقلب يهمس:

ايتها الحبيبة التي شوّه القتال محياها، وحرمها من الفرح والنور، جودي على مؤتمرنا بدروس تجربتك المريرة! يالبنان المستفيق لتوّه من كابوس الموت والعذاب والتدمير، علّمنا من خبرتك الفاجعة كيف نمارس خلافنا وتنافسنا لكي لا تؤدي المصالح الضيقة، والاوهام غير القليلة، إلى إطالة عهد صدام، وإلى اغراق بلاد الرافدين بالمزيد من الويلات عقب انهياره!

* * *

زملاء وتلاميذ

تلك الهواجس وهذه الابتهالات رافقتني إلى فندق البريستول. وفي بهوه شاركت في العناق الدائر على قدم وساق. بدأت بنجاد (نژاد بالكردية) صيحاتنا المرحة ادهشت رفيقاً على مقربة منا، فقلت له: هذا الملعون هو الذي ورّطني بالشيوعية. لكنه الآن مقاول متقاعد..

في السنة الاولى بجامعة بيروت الامريكية كان صاحبي من الخمسة الذين شاركوني ردهة القسم الداخلي: تجفيان، راويّ، وكردي آخر من السليمانية. وعامذاك لم يدخر نجاد مساعيه لاذابة النفور من الشيوعية الذي رافق نشأتي.

في الطفولة كانت جدتي الحنون تقطع حكاياتها الاخّاذة حين يرتفع صوت المؤذن لصلاة العشاء، فتتشاهد وتنهض إلى سجادتها، فأجد نفسي مستوحشاً ازاء الظلمة الرابضة بعفاريتها وراء نافذة الغرفة، وحركة الظلال على السقف المرتفع مع رعشة النور الذي يبثه فتيل الفانوس. فكنت افزع إلى جوارها، فاركع واسجد معها حتى قبل ان تعلّمني تلاوة «الفاتحة» وتعدني بالجنة لأني «من الصالحين». كان رمضان يحل في الشتاء فيهون الصيام وتتضاعف متعة طقوسه. لكن وضوء الشتاء ظل يحول دون صلاتي حتى يجيء الصيف، فكنت اقضي الكثير من ساعاته في مسجد الحي. وسمح لي شيخه بالآذان مرتين، وعلمني تعويذة شافية للرعاف فنجحت مرة في وقف النزيف من انف أحد اخوتي.

في أعقاب الحرب العالمية الثانية أخذ محمد محمود الصواف، داعية (الاخوان المسلمين) يتردد على ديوانية عمي، فكنت ادور بركوة القهوة على الرواد واستمع واياهم إلى مواعظ الرجل الوسيم والانيق الذي عاد لتوه من الأزهر.

كان نجاد انشط اليساريين الكثيرين بين طلبة بعثتنا، وسبقهم إلى الانتضام في خلايا الحزب الشيوعي اللبناني. ومما ساعد على جرّي، أنا الموصلي الحريص على الدروس وعلى نعمة البعثة، إلى معمعان السياسة ان جامعتنا شهدت موجةًعارمـة من الاحتجاج على قرار تقسيم فلسطين. وهكذا شاركت في تظاهرة سياسية لأول مرة في حياتي. هتفنا بسقوط ترومان وستالين... الخ وطالبنا ملوك العرب بانقاذ فلسطين، ورددنا بضعة أناشيد حماسية كان أحبها إلى نفسي ذلك الذي مطلعه:

يا اوربـا لا تغالـي لا تقـولـي الـفـتـح طاب
سوف تأتـيك الـليالـي نورهـا لمـع الـحـراب

وفي تلك الايام المتأججة بالغضب كان لاحدى الحصص تأثير كبير في زعزعة الايمان الذي بذرته جدتي. كان استاذنا د. انيس فريحة يعلمنا الانكليزية،فحاد ساعتها عن الموضوع وحدثنا عن جذور الصهيونية في عقائد اليهود وتطورها من الوثنية إلى التوحيد...

ثم انـدلعت وثبة كانون في بغداد فاضربنا وتظاهرنا، وإن باعداد أقل. وهنا لعب اليساريون الدور الاساسي في التحريض على التظاهر وقيادته.

في السنة الثانية أقمت في غرفة واحدة مع يساري غير حزبي، وتوطدت علاقتي بعدد من أمثـالـه. وقبل انتهاء السنة دفعت أول تبرعاتي للشيوعيين: عشر ليراتٍ، لدعم مجلة

(الطريق) التي كادت تتوقف عن الصدور بسبب ضائقتها. لكن اهتمامي بالدروس لم يتغير. أما نجاد فكان نشاطه السياسي على حساب دروسه. فغادرنا إلى باريس. ومن هناك إلى (اتحاد الطلبة العالمي) في براغ. ففاجأته سلبيات التطبيق الاشتراكي، شأنها مع أغلب شيوعيينا. وحين دخلت الحزب بعد ثورة ١٤ تموز كان هو في قيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني. ثم علمت انه ترك الحياة الحزبية.

التقينا عام ١٩٦٤ من جديد هنا في بيروت. فقد وصلتُها بجواز سفر بأسم حسن دحام العزاوي، والمهنة سبّاك. فاذا بي أجد نجاد طالباً يدرس «ادارة الاعمال» في جامعتنا وهو أب لاربعة اطفال. وكانت شقته وشقة الشاعر بلند الحيدري من المنتديات شبه اليومية للمغتربين اليساريين في بيروت. وسرعان ما شكلنا لجنة الدفاع عن الشعب العراقي، فكلفوني بسكرتاريتها، ربما لأني الوحيد الذي سلمت من الاعتقال فبقيت حزبياً رغم انقطاع صلتي بالحزب منذ شباط ١٩٦٣.

وها هو المؤتمر يجمعني مرة ثالثة بزميل الشباب في بيروت. وفيما كان يوجز تقريره عن الزوجة والاولاد والاحفاد أقبل علينا بلند الحيدري فتعانقنا بصداقة لا يشوبها اختلاف في موقفنا من نظام بغداد. سألته عن احتمالات المشاركة في المؤتمر من جانب واحدٍ من أبرز رجال الأدب، فاجاب بكل جد: «أي طبعاً. قال احضر حتى اشوف بلند». فلم نستغرب جوابه!

كانت للجواهري الكبير أولى مداخلات المؤتمر. وفيما اصغيت إلى صوته المتهدج تذكرت نصف عمود بالانكليزية كلفتني صحيفة الجامعة بكتابته للتعريف بالشاعر الذي الهب اكف الطلبة بالتصفيق. فقد دعي إلى امسية شعرية في جامعتنا بعد أيام من القاء قصيدته المدوية في تأبين عبد الحميد كرامي. وكان نصف العمود فاتحة ما نشر لي في الصحافة.

اعتلى منصة المؤتمر أحد شيوخ الشعر الكردي والحركة السياسية الكردية، الاستاذ ابراهيم أحمد. وقوطعت كلمته بالتصفيق، على غير ما درج عليه المؤتمر، حين قال ما معناه ان الديمقراطية مفتاح الحل لمشاكل العراق المستعصية وانه منستعد ان يؤجل مطالبه القومية ان هي أعاقت الوفاق العام على الديمقراطية.ثم ناشد قوى التيار الاسلامي اتخاذ موقف مماثل.

كان بجانبي شاب بعمامة وعباءة فهمست في اذنه: «ها، أخي، مارأيك بكلامه؟» هز رأسه، وأجاب هامساً: «جيد، صحيح!» وبعد هنيهة مال ليسألني: «استاذ، صحيح عارضتم ذكر «البسملة» في بيان (لجنة العمل المشترك)؟» اقترحتُ مناقشة ملابسات الموضوع في أقرب فرصة. فوافق مسروراً.

لا أدري كيف التقطت اذني اسم السيد غانم السماك، زميلي في الثانوية قبل ٤٤ سنة. فاستحنت بالدكتور علي كريم ليدلني عليه. وأخيراً عثرت عليه فتعانقنا بحرارة، ثم قدّم اليّ جليسه، السيد النوره جي. وسرعان ما انغمرت مع زميلي في مقايضة الاخبار عن مصيرينا ومصائر تلاميذ صفنا. اخبرني انه شارك في جميع الانقلابات منذ ١٩٥٨ لكنه ظل خارج الاحزاب القومية. وحين تم انقلاب تموز ١٩٦٨ هاجر إلى القاهرة، ثم ابعده السادات منها، فاستقر في دمشق. درس القانون في غربته وصار محامياً ناجحاً في دمشق ومدرساً للقانون في الجامعة، وقد انجز رسالة الدكتوراه وهو يتأهب لمناقشتها.

ظل جليسه ينصت إلى ذكريات الشيخين واسمه يخربش ذاكرتي. وحين تأملت محياه لم أعثر على ما ينجد الذاكرة. لكن بعد بضعة اسئلة اكتشفت انه من تلاميذي في ثانوية الاعظمية. كان ضابطاً وهو الآن يعمل في السعودية. قلت لزميلي: تقول أن ملامحي لم تتغير وها هو تلميذ ظل ينظر إلى وجهي ٤٥ دقيقة يومياً طيلة عام أو عامين، وهو الآن لا يتذكرني.

أما زميلي فلم تتغير ملامحه كثيراً، لم يفقد إلا قليلاً من شعره الذي لم يبيض مثل شعري. وما زال لسانه لاذعاً، كعهدي به. وفيما كنا مستغرقين في ذكريات المدرسة، وضع الشاب المعمم يده على كتفي وذكرني بالحوار الموعود. فاستمهلته ريثما ارتوي من ذكريات الايام الغابرة، فوافق ضاحكاً. وكم يؤسفني اننا لم نلتق بعدئذ. (ارجو معذرته، والاتصال بي،فاني تواق إلى الحوار المؤجل).

اعجبتني كلمة (اتحاد الديمقراطيين العراقيين) لطرحها الدقيق والشيق حول ضرورة وجوهر الديمقراطية وضوابطها. حدقت من خلال عويناتي بالرجل الانيق الذي القاها بهدوء وثقة. إلا ان وجهه لم يبدُ مألوفاً كأسمه: سمير شاكر محمود. صفقت له طويلاً. خرجنا سوية، فصافحته مبدياً اعجابي،وسألت: «الاستاذ معظماوي؟». قال مستغرباً: لا. وبعد هنيهة اضاف «لكنيُ داومت في ثانوية الاعظمية سنة ١٩٥٨». قلت في نفسي وهو ينظر إليّ باهتمام: «هذا دليل آخر على ما فعل بي الدهر». ثم اضفت بصوت مسموع: «ياسيدي، علمتك الانكليزية. وأنت تعلمني الديمقراطية». ففرح بلقاء معلمه المتتلمذ. ثم كتب عنوانه في مفكرتي لأرسل له صورته على المنصة.

أما التلميذ الثالث فلم يغب عن ذاكرتي لا اسمه ولا محياه (رغم ما فقد من شعر رأسه). فقد تجاورنا في السكن مرتين قبل ١٩٦٣. ثم شاهدته على شاشة التلفزيون يترجم لضيف بارز من الاتحاد السوفييتي، وقرأت له في الصحافة، وسمعته محاوراً من اذاعة لندن. انه الزميل كاميران قره داغي.

والسيد هاني الفكيكي هو رابع تلاميذي في المؤتمر. لم أكن في القاعة ساعة القى

كلمته. ثم سمعت من أحد الحاضرين انه شبّه فرحته بالمؤتمر بفرحته يوم ٨ شباط. فكدّت انهض للبحث عنه. لكن الجالسين برأوه من هذه التهمة. فكفوني شر العتاب.

مع زملاء المهنة

كان المؤتمر يعج برجال الاعلام ونسائه. ومراسلة التلفزيون الايطالي هي التي بحثتُ عنها حتى وجدتها. قبّلتُ يدها: «شكراً لفضلك على شعبنا!» واشرقت اساريرها بالفرح لما اخبرتها ان الاذاعات ذكرت ان التلفزيون الايطالي قطع برامجه ليذيع نبأ عن ضرب البصرة بالسلاح الكيمياوي. حدث ذلك بعد ساعات من لقائي معها في دمشق قبل يومين. فقد نقلت اليها ان الـ (بي بي سي) اوردت في نشرة الصباح تقريراً نشرته (الديلي تلغراف) حول ضرب البصرة بالكيمياوي. وحين سألتني عن جلية الأمر، أوجزت لها السجل الاجرامي لعلي حسن المجيد الذي عينه صدام وزيراً للداخلية، واخبرتها بالأمر الذي اصدره بطرد كافة الصحفيين الاجانب من العراق. فادارت المراسلة الهمامة قرص التلفون ورطنت بايطاليتها الموسيقية مع مديرتها في روما.

نادت صاحبتي ثلاثة من زملائها الايطاليين. أحدهم سلّم عليّ بحرارة، فهو المصور الذي حضر لقاء دمشق معها. يومها اختتمتُ المقابلة بجد مصطنع: ملايين الحسناوات في ايطاليا سيحسدنك على أول مقابلة تلفزيونية مع شاب وسيم مثلي، فلا تبخلي عليّ بلقاء في بيروت، ولو كان صحفياً!

اقتدت الايطاليين إلى ركن قليل الصخب في البهو، فامطروني بوابل من اسئلة باتت كلائشية أثناء المؤتمر:

- كيف يتلاقى الاصوليون والشيوعيون؟ ما مصير تجمعكم المتنافر بعد سقوط صدام؟ ألا تخشون من قيام نظام اسلامي يقطع رؤوسكم، كما حصل في ايران؟ هل ترضى السعودية بقيام ديمقراطية في العراق؟ وتركيا هل توافق على حصول اكراد العراق على حقوقهم القومية؟ أليس لايران يد في ما يحدث في الجنوب؟ هل بقي للشيوعية كثير من الانصار بعد انهيار «الاشتراكية» في اوربا وازمتها الحادة في الاتحاد السوفييتي؟ وهكذا دواليك.

لم أكن أطمع بالكثير من دقائق مع صحفيين كهؤلاء، لكني افلحت بانتزاع ساعتين. بدأت بانتقادهم لانهم يسعون وراء الزعماء لا القواعد، ويلتقطون الامور المثيرة، وهي سلبية في الغالب، بينما يهملون الايجابيات. تعهدت لهم بعدم المبالغة واللف والدوران كما يفعل اغلب القادة بدوافع شتى. لكني اشترطت ألا ينقلوا عني اقوالاً معينة ساحددها لهم، وذلك حرصاً على تفادي الحساسيات. فمؤتمرنا ظاهرة فريدة بالنسبة للعراق والمنطقة، هو أشبه بفسيفساء بمختلف الاشكال والالوان، وعناصره بحاجة إلى قدر

من التماسك. جمعتها المصائب والويلات على يد صدام الذي لا مثيل لجرائم نظامه في عالم اليوم. واعطيتهم فكرة عن ماضي العلاقات بين أبرز الاحزاب المشاركة في المؤتمر، والحاجة الماسة إلى استمرار الوفاق الذي جاء بعد مخاض عسير بيننا. الخلاف لا يمكن ان يزول. ونحن بحاجة إلى تبادل النقد. لكن هذا النقد ينبغي ان يأتي في المكان والزمان والصيغة المناسبة. ينبغي ان نتعلم كيف نختلف ونتنافس بسلام. ثم انتقدت الاعلام في الغرب والشرق لانه كان، قبل احتلال الكويت، يتجاهل المعارضة العراقية وعليه الآن التكفير عن خطيئته بتفادي البحث عن السلبيات فقط. حتى في الايجابيات يمكن العثور على عناصر الاثارة التي تريدها الصحافة. وقلت: انظروا، مثلاً، إلى الشيوعيات وقد جلسن سافرات وسط حلقة من العلمانيين بمظهر اوربي، وبالقرب منهم جلس الاسلاميون بمظهرهم التقليدي. ثم انظروا إلى تلك التي على يمين ذي الصلعة الكبيرة، انها الرفيقة التي كانت تقودني حزبياً قبل مغادرة العراق. حتى انتم قد لا تصدقون هذا، فكيف ببعض الاسلاميين الذين يحرمون على المرأة السفور، باستثناء الوجه والكف؟ ومن أجل انعقاد المؤتمر بهذه السعة كان من الضروري ليس فقط التغلب على بعض الاوهام والافكار المسبقة، بل كذلك الاهتمام بامور لا تخطر على بال الاوربيين. وخاطبت الزميلة الايطالية: على سبيل المثال، انظري إلى تلك الشابة بمعطف (الجينز) الفضفاض قرب المدخل، انها مثلك صحفية كانت تعمل في اذاعتنا بكردستان قبل ضرب المنطقة بالسلاح الكيمياوي. وهي حالياً مسؤولة عن تحرير دورية لحزبنا باللغة الكردية. ارادت حضور المؤتمر بزينتها الاعتيادية. فرجاها مسؤولها الحزبي ان تمسح احمر الشفتين ونزع القرطين الكبيرين مراعاةً للحساسية. فثارت ثائرتها لهذه السابقة. لكنها رضخت على مضض. لقد تزوجت عربياً من البصرة كان معها في الاذاعة الانصارية. لم تكبح الايطالية فضولها النسائي: أهو الذي يتحدث معها الآن؟ فاجبت: لا، هذا هو شيركو بيكه س، اشهر الشعراء الاكراد حالياً. زوجها مشارك في المؤتمر، وربما يغبط شيركو على شَعره وليس على شِعره فقط. فصلعته اوسع من صلعتي رغم انه هنا يمثل (اتحاد الشبيبة الديمقراطية). رفيقتنا خسرت بعض زينتها لكنها غنمت مقابلة للمجلة «ستفخر بها» مع أبرز شعراء قومها. وهي، بالمناسبة، «تتلهف للعودة إلى كردستان المحررة كي تمارس مهنتها على أرض الوطن».

كما ترون، نحن نختلف مع الاخوة الاسلاميين حول أمور جوهرية، مثل حقوق المرأة. نحن نرفض القسر الاتاتوركي في نزع الحجاب كما نرفض القسر الايراني في فرض الحجاب. بالمناسبة، وفدنا يضم وزيرة سابقة، كانت تقود الحركة النسائية السرية وعملت طويلاً في قيادة اتحاد النساء الديمقراطي العالمي. سنظل مع حرية المرأة ومساواتها في الحقوق. ولكننا نريد التعبير عن خلافاتنا باسلوب حضاري، وإلا فان العراق

مهدد، بعد صدام، بدوامة العنف. ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فتحت باب الحريات، فعينت الـوزيرة الـوحيدة في تاريخنـا، ثم حل الاستبداد لأن الاطراف الممثلة هنا في المؤتمر لم تحرص على اقامة ديمقراطية حقيقية. بالمناسبة، ايضاً، يضم وفدنا ارملة قائد حزبنا سلام عادل الذي استشهد تحت التعذيب عام ١٩٦٣. التدخلات الخارجية اججت الصراع الداخلي، فلم يكن للمتدخلين مصلحة في اقامة نظام ديمقراطي في العراق، الذي يمتلك، كما تعرفون، احتياطياً هائلاً من النفط. ولا اظنكم من السذاجة لتعتقدوا ان اميركا والغرب، عموماً، قد حاربا صدام لأنه اعتدى على الكويت، فسبق ان قدما له الدعم في عدوانه على ايران. وبدون ديمقراطية سيظل العراق بؤرة لعدم الاستقرار في المنطقة. وهذا ما لم تدركه الدول المعنية حتى الآن. فاميركا، خاصة، تبحث عن جنرال مقبول بديلاً لصدام. والسعودية تريد الحكم لمؤيديها، وكذلك ايران، وهكذا دواليك.

كان لابد من اطلاق سراح الطليان الصابرين لكني واصلت استطراداتي: الانتفاضة عفوية حفزتها الهزيمة العسكرية المذلة بعد الدمار الهائل والضائقة الاقتصادية. وانعقاد مؤتمرنا، بحد ذاته، دعم معنوي هائل للانتفاضة. ولكن ما لم يخرج بصيغ وضوابط للتنسيق وتوحيد الخطاب السياسي بشأن الانتفاضة فانها معرّضة لافدح الاخطار. حزبنا عضو في الجبهة الكردستانية التي تميزت حتى الآن بدرجة طيبة من التنسيق وتأكيد حرصها على برنامج لجنة العمل المشترك، لكن بعض القوى الاسلامية توحي باعلامها ان الانتفاضة في الوسط والجنوب تابعة لها، وهي لا تبرز برنامج ودور لجنة العمل المشترك. وهذا طرح ضار بالانتفاضة ومفيد للنظام الذي يسعى لتشويه الطابع الشمولي للانتفاضة وهذه أمور تناقش بجد بين التيارات وداخل كل تيار وفصيل. ويمكنكم تلمّس اصداء الخلافات حولها في كلمات الوفود وتصريحاتها. اؤكد لكم وجود تغيّر في فكر وطروحات جميع احزاب المعارضة وإن بدرجات متباينة. نحن تغيرنا كثيراً. اليكم المثال التالي من تجربتي، قبل سنوات اقترحت في منظمتي الحزبية انضمام السيد سعد صالح جبر وجماعته إلى تحالف المعارضة. يومها اعتبروني خَرِفاً. ولعل السيد سعد نفسه كان سيعتبرني خرِفاً لو سمع يومئذ بمثل هذا الاقتراح.

التفتُ إلى مراسل (اونيتا): عام ١٩٧٨ كلفني الحزب بكتابة مقالة تهاجم «الشيوعية الاوروبية» وكنتم ابرز دعاتها. لكن المقالة لمْ تنشر، لحسن الحظ. فحزبكم والفرنسي والبريطاني تضامنوا معنا ضد التنكيل الفاشي، في حين امتنعت الاحزاب الشيوعية الحاكمة عن ادانته علنياً، وظلت تتعاون مع النظام حتى ازيحت من الحكم. لقد تغيرنا كثيراً. ونحن، في نظر المتياسرين، نستحق صفة التحريفية التي كنا نطلقها على حزبكم. أما بشأن سؤالكم عن نفوذنا فاكتفي بالقول ان صدام لم يخرجنا، رغم كل الضربات، من

اولويات بطشه ومناوراته ، واننا نلعب دوراً أساسياً في حوار المعارضة ونشاطها ، وفي هذا المؤتمر بالذات .

ودّعت اسراي الطليان قائلاً لزميلتهم بجد مصطنع : «احجزي لي موعداً لنرقص في ناد ليلي مكافأةً على محاضرتي المملة» . وفي اليوم التالي اقتدتها قائلاً : «عندي مكافأة لك على صبرك مساء البارحة . انظري ، تلك سيدة معصوبة الرأس ، لعلها الوحيدة بين مندوبي التيار الاسلامي . احرزي سبقاً جديداً بمقابلتها!» .

وفيما لبثتُ أشاهد نجاح مسعاها ببدء التصوير جيء إليّ بمندوب وكالة الانباء الجزائرية طالباً اجراء مقابلة معي . فرطنت بالدارجة الجزائرية : «سي محمد ، يرحم والديك ، حوّز على واحد قيادي!» . فردّ ضاحكاً : «يا سيدي ، والله ، ما كانش والو . .» فادركت أن قيادتنا في واحد من اجتماعاتها الكثيرة ، كما حصل في دمشق حين كلفت بمقابلة صاحبتي الايطالية . ومن حسن الصدف اننا التقينا باستاذ سابق في جامعة تلمسان من التيار الاسلامي . دشنت جلستنا بالعتاب على الجزائر التي تتضامن مع جزار العراق . فاحتج قائلاً : ان الجزائر تتضامن مع شعب العراق . وحين قلت ان صدام يشن حربه على الشعب العراقي حتى قبل حربه على ايران وان التضامن مع شعبنا يقتضي ادانة بطش صدام والمطالبة بالانسحاب من الكويت لتفادي الكارثة المحتومة . قال ان تجربة الجزائريين مع الاستعمار تجعلهم يقفون إلى جانب من تحاربه فرنسا واميركا ، وان هدف الحرب تدمير العراق لا تحرير الكويت . قلنا ان الهدف لا يخفى على عاقل وكان ينبغي عدم تشجيع صدام على اصراره لتفادي هذا التدمير .

وذكرناه بمأساة الحرب ضد ايران التي يسميها صدام الآن فتنة شريرة . وذكرناه بقصف حلبچه بالكيمياوي وتضامن العرب معه ضد الحملة التي ثارت في الغرب على تلك الجريمة . ثم انضم الينا د . علي كريم ، فقلت اننا ، الثلاثة ، من مئات المثقفين الذين هاجروا إلى الجزائر من العراق الثري الذي يستورد مئات الاساتذة وان عدد المهاجرين والمهجرين مثلنا يتجاوز المليون . . .

فتح الجزائري دفتره مبتدئاً المقابلة المطلوبة مع الزميل الأسلامي (الذي رفض الافصاح عن هويته الحزبية رغم الحاح الجزائري) فدار حوارهما حول المشروع الاسلامي في العراق . وكان منطلق الجزائري في الاسئلة ما تطرح وتمارس (جبهة الانقاذ الاسلامي) في بلاده ، وهي مناقضة لجوهر التعددية الحزبية والفكرية ، واستعان كذلك بتجربة ايران ، والسودان مؤخراً ، في هذا الشأن . وكان هجومياً في اسئلته ، وبدا انه لم يقتنع بدفاع محاوره ، فالتفت الينا : اراكم تتكتكو على بعضكم؟ فقلت : ليتك تتابع كلمات المؤتمر . دروس التجربة المريرة ماثلة في غالبيتها . وفي المؤتمر الذي يجسّد التعددية . الاتفاق

البرنامجي في ٢٧ ديسمبر يحتوي على أهم عناصر النظام البرلماني الديمقراطي. التكتكة موجودة ولكن البرنامج تعهدٌ مسجل على الجميع، ويجب علينا جميعاً السعي لتحويله من كلام إلى فعل. هناك تغير يجري داخل المعارضة وفي كل تيار وحزب بفعل هول الكوارث الذي سببتها الدكتاتورية، وكذلك بتأثير التغيرات الجارية في العالم، مثل انهيار نظام الحزب الواحد في شرق اوربا، وفي الجزائر وغيرها من بلدان العالم الثالث ايضاً. هاك مثلاً: قبل سنة دشّنا ممارسة جديدة فنشرت مجلتنا مقالات وبيانات تعبر عن وجهات نظر الاحزاب الأخرى. في العدد الحالي اجرينا مقابلة مع أحد قياديي التيار الاسلامي. وكان رد الفعل لهذه الممارسة ايجابياً على العموم. لو قرأت جريدة (نداء الرافدين) التابعة للمجلس الاسلامي الاعلى، التي وزعت في بداية المؤتمر، لوجدت فيها بياناً لحزبنا. . وقبل اسابيع من المؤتمر اتفقنا في دمشق على عقد ندوات للحوار بين محرري صحف المعارضة،وقد كلفت باعداد ورقة عمل حول دور هذه الصحف في اقامة وادامة البديل الديمقراطي. . ليس لدينا اوهام. الطريق إلى الديمقراطية شاق، ولكن هل من طريق آخر؟

فسألني: هذا التحول بتأثير البريسترويكا على حزبكم؟

فقلت: الواقع اننا سبقنا البريسترويكا فرفعنا السلاح مع المعارضة ضد نظام صدام عام ١٩٧٩ تحت شعار «الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي الحقيقي لكردستان» وعام ١٩٨٥ ثبّت مؤتمر حزبنا هذا التوجه، وانتقدنا انفسنا للاستهانة بقضية الديمقراطية السياسية في تحالفنا مع النظام منذ ١٩٧٣. البريسترويكا عمقت القناعة بخيارنا الديمقراطي، دون ان نتخلى عن الماركسية كمنهج لا كنصوص، ودون التنكر لتاريخنا النضالي، كما يحدث في اوربا الشرقية منذ بدء البريسترويكا.

ادركنا الوقت فلم يتسن لي سماع طروحات د. علي كريم باعتباره من وفد قيادة قطر العراق لحزب البعث. فقد اتفق مع الزميل الجزائري على موعد لاحق.

الغرام الاول وغرام السياسة

اخترت لمشاركة غرفة الفندق شيخاً مثلي هو الرفيق ابو نضال. كنا نأوي مبكّرين إلى الفراش وقد انهكتنا اعباء النهار. وفي الصباح نبكّر إلى قاعة الفطور وقد سبقنا اليه كهل بالدشداشة والعقال، لطيف المحيا واللسان. انه ملاك أو مزارع من اطراف الناصرية. ذات مرة باركت له تحرير المدينة ساخطاً على الموصل لأنها تخلفت عن ركب الانتفاضة. فواساني بالقول ان المواصلة يعرفون متى يجب ان يتحركوا. صباح اليوم الثالث لم تطل دردشتنا لأني اصطحبت ابو نضال في زيارة إلى جامعتي.

للمرة الاولى شاهد صاحبي البحر وقد ترامت زرقته المائجة من وراء ملاعب الجامعة

الخضراء وخط الكورنيش الذي لا تكاد العين تميزه. فلذّ لشيخنا ما رأى وبان فرح الطفولة على محياه. ورحنا نطوف حرم الجامعة وأنا لا أكف عن التعريف بمعالم لا تعنيه في شيء: في أولى سنواتي سكنت مع نجاد في هذا المبنى، أما في السنة التالية ففي غرفة مستقلة مع عبد الوهاب في ذلك المبنى. وفي السنة الثالثة سكنت في غرفة تحت برج الساعة مع نور الدين الصافي. وكدت اقص على رفيقي كيف قتل ذلك الصديق النقي مع ابنه حين تحطمت بهما الطائرة في اميركا، لكننا وصلنا الكنيسة التي كان ارتيادها ثلاث مرات في الاسبوع واجباً لا مفر منه حتى لغير المسيحيين. لكن ترتيلة واحدة كانت تلذّ للجميع فننشد على انغام (الاورغن) كلماتها الجميلة بحماس. وعاد مطلعها يرن في اذني بما يعني:

لدى كل انسان وامة تأزف لحظة الحسم
فاما إلى جانب الحق، واما إلى جانب الشر
الحق دوماً على المشنقة والباطل دوماً على العرش

وفيما كنا عند مبنى الاجتماعات والنادي، تدفق الطلبة خارجين من صفوفهم. فراحت عيناي تلتهم اسراب الصبايا.. الله، ما اكثرهن واجملهن هذه الايام! على أيامنا كانت الطالبات لا ينقلن من كليتهن إلى الجامعة إلا في السنة الثالثة. فتحسّرت مع الشاعر الذي قال: ألا ليت الشباب يعود...

وما لبثت اللعنة ان صبّت على هوس شبابي حين افسد عليّ أول غرام.

في ربيع السنة الثانية نظم طلبة قسمنا الداخلي نزهة إلى نهر الكلب. وكالعادة دعوا ثلة من طالبات كلية البنات لترطيب الجو. ودفع الحظ (ا. م) إلى كرسي بجانبي. وفي رحلة العودة تجاهلتْ دعوات المنافسين لتجلس معي. واصلنا ثرثرة لم اذق مثلها من قبل. وتمتعنا بدنو الشمس من افق البحر الازرق تحف بها غيمات توهجن بالذهب. اعطتني عنوانها في نزل تديره الراهبات لأرسل اليها تصاوير النزهة. ثم دعوتها للسينما فواعدتني عند متحف بيروت، ومن هناك نزلنا إلى سينما (دنيا) في ساحة البرج (تري ماذا حل بكل هذه المعالم؟) ثم جاءت عطلة الصيف فرحلتْ إلى اهلها في القدس.

أما أنا فامضيت الصيف في بيروت بين السباحة وقراءة الكتب الشيوعية والنزهات الطويلة في رأس بيروت برفقة اصحابها. ومع احدهم شربت أول كأس من البيرة في مقهى (شوران) المطل على المسبح العسكري ونحن نمتع العيون باجساد السابحات. وهكذا صرت أحمر «وإن لم انتم»! وصار التبرع فقرة ثابتة في مصروفي الشهري. واستطاع اصحابي اشراكي في زيارات للصحف لنبلغها احتجاجاً على أمر ما، أو مطالبة بشيء آخر. واستطاعوا جرّي حتى إلى تظاهرات صغيرة في مركز بيروت، كفيلة بطردي من البعثة لو

القت الشرطة القبض عليّ.

وفي أواخر العطلة تلقيت رسالة من (ا. م): أصل بيروت يوم كذا، وانتظرك في الساعة كيت بالقسم الداخلي. وبدل توقيعها ذيّلت الرسالة بحمرة الشفتين. . .

في الموعد ذهبت، والقلب خافق. انتظرت في قاعة الاستقبال فيما نودي عليها. فاقبلت باسمة متأنقة والعطر يسبقها بخطوات. لكن اشراقة محياها اخذت في التلاشي اذ لم تسمع اطراءً لجمالها، ولا شيئاً عن الشوق إلى هذا اللقاء، أو القبلات التي انطبعت على دمغة الشفتين في رسالتها، أو أياً من العبارات اللذيذة التي انتظرتها طوال الصيف، بل بدأتُ بالخوض في «السياسة» التي تنفر منها. والانكى من ذلك هاجمتُ الكنيسة الكاثوليكية التي تقدّسها. وهالها في الختام ما قلته عن حسنات الشيوعية وهي التي لم تسمع عنها إلا ما يشين. ثم غادرتها وأنا اجر اذيال الخيبة، فلا أنا تمتعت بمغازلتها ولا افلحت في اقناعها بالانحياز إلى صفوف الثورة العالمية. وبعد اسابيع رأيتها في حدائق الجامعة تتضاحك مع طالب سوري لا «يتدخل في السياسة»..

كان ابو نضال يحوم حول الشجرة، التي تتوسط الساحة بين مبنى الاجتماعات والمطعم، مشدوهاً بالجذور المتدلية من اغصانها إلى الأرض. ربتُّ على كتفه وقلت متنهداً: وأنت، ما ضيعت لك السياسة أي غرام؟ لكنه لم يسمع همستي في صخب الشبيبة من حولنا. فسحبته من ذراعه لنعود إلى «السياسة» في قاعة المؤتمر..

١٣/ آذار

* ما أن عدنا من المؤتمر حتى ودّعنا ابو نضال. عاد فرحاً إلى أهله في كردستان التي حررتها الانتفاضة. لو تنبأتُ بفراقه المبكر لاسمعته ما يستحق من اعجاب بتفانيه في العمل وتواضعه الجم، وكنت سأخرق تعليمات الطبيب لأسامره في غرفة الفندق على قنينة، ربما من عرق رزوق «امير السوق» كما يقول الاعلان الذي كان يلاحقنا في بيروت أيام زمان. ففي جعبة هذا الكهل ذكريات نضالية لم اسمع إلا بعض نتفها.

قبل أيام تلقينا صوراً من انصارنا. في احداها كانت ثلة منهم تتأهب لعبور «دجلة الخير» إلى الوطن. صحت: هذا ابو نضال! كانت شيبته مع بعض وجهه بادية خلف كتف أحد الشباب. ترى هل اسعفه الحظ بلقاء الاهل والبلدة مبهورة بحريتها الغضّة؟ أم ان حوامات صدام ودباباته القت به في بحر النازحين الذي لا مثيل له في التاريخ الحديث؟

يا رفيقي ابو نضال، أين بلغك نبأ المفاوضات بين زعماء الاكراد وطغمة صدام؟ لعل خبرتك الكردستانية تهوّن عليك وقع هذا التحول الذي شرخ وفاق المؤتمر. لقد حسبنا ان وحدة المعارضة ستنهي غربتنا عما قريب. فهل ستعود إلى غربتنا من جديد؟

٢٠ نيسان

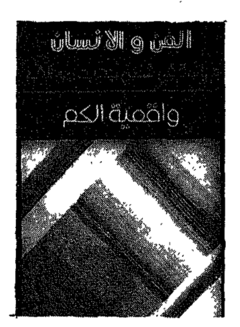
اخبار الثقافة والفن

ندوة خاصة للفنان محمود صبري

على هامش حضوره مؤتمر المعارضة العراقية في بيروت، أقام فرع رابطة الفنانين والصحفيين والديمقراطيين العراقيين في سوريا ندوة خاصة للفنان محمود صبري، حضرها عدد من المثقفين العرب.

ألقى الفنان صبري في الندوة محاضرة عن «واقعية الكم» استعرض فيها تطور فكرته وفنه، وقدم لمستمعيه أهم الخطوط الرئيسة في موضوعة «السياسة، العلم، الفن» منوها بضرورة التمعن بما يجري أبعد من الواقع لمعرفة جوهر هذا الواقع.

كما تطرق إلى بداياته الفنية كتمهيد لظهور «واقعية الكم». كانت المحاضرة، وتعقيبات الحاضرين، مهمة وشيّقة. قدم للمحاضرة النحات مكي حسين.



«الفن والانسان»

دراسة في شكل جديد من الفن/ واقعية الكم

صدر للفنان محمود صبري كتابه الجديد «الفن والانسان» ـ دراسة في شكل جديد من الفن (واقعية الكم) عن مركز الابحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي ـ ط٢.

ضم الكتاب سبعة عناوين اضافة للملاحق والجداول المرفقة ونماذج تطبيقية. يقع الكتاب في ٣١٩ صفحة من القطع المتوسط.



«نزهة الآلام»

شعر

عن دار صحارى صدر للشاعر العراقي عبد الكريم كاصد ديوان شعري جديد بعنوان «نزهة الآلام» ضم سبع عشرة قصيدة/ عشر منها لم تنشر من قبل اذ أن السبع الأخرى سبق أن ضمتها مجموعتاه السابقتان «الحقائب ـ ١٩٧٥» و«وردة البيكاجي ـ ١٩٨٣».

خطوط الغلاف للفنان صادق الصائغ والتخطيط الداخلي للفنان فيصل صاحي.

الديوان من القطع الصغير ـ ٦٤ صفحة.

«هنا الوردة فلنرقص هنا»

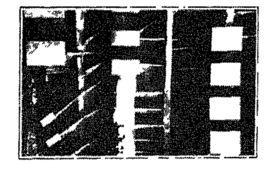
ـ شعر



الشاعر العراقي عواد ناصر صدرت له عن دار صحارى مجموعته الشعرية الثانية، كتابه الثالث، بعد «من أجل الفرح أعلن كآبتي» ـ ١٩٨٢ عن دار الفكر الجديد ـ بيروت ـ وبعد كتابه النثري «حَدَثَ ذات وطن» عن دار بابل ـ ١٩٨٦.

المجموعة من القطع الصغير ـ ٦٤ صفحة ـ تضم ثلاث قصائد (طويلة نسبياً) هي على التوالي: «أصوات الحمى»، «عربات الفولاذ السريعة»، «مرثية صيف راحل».

الخطوط للفنان صادق الصائغ.



«شجرة العائلة»
مجموعة قصصية

للكاتب شاكر الانباري ـ منشورات الصوت (الدنمارك) صدرت المجموعة القصصية الثانية بعد مجموعته الاولى «ثمار البلوط» في الدنمارك أيضاً.

تضم المجموعة ثماني قصص قصيرة بـ ٩٨ صفحة من القطع المتوسط.



«الكوميديا الفلاحيّة»
ـ رواية

العمل الروائي الثالث للكاتب السوري نهاد سيرس بعد روايتيه «السرطان» ـ ١٩٨٧ و «رياح الشمال» ـ ١٩٨٩.



مقتطفات ومعالجات

إلى السادة وزراء خارجية جامعة الدول العربية المحترمين ـ القاهرة . .

تحية وبعد :

تحيي (لجنة العمل المشترك لقوى المعارضة العراقية) اجتماعكم الموقر وتناشدكم التدخل فوراً لمساندة الشعب العراقي وانقاذه من المحنة الرهيبة التي يعاني منها بسبب سياسة النظام القائم .

إن لجنتنا المنبثقة في ٢٧/١٢/١٩٩٠ بائتلاف (١٧) طرفاً سياسياً وطنياً واسلامياً عراقياً ، والتي عملت في المؤتمر العام لقوى المعارضة العراقية المنعقد في بيروت (١١ ـ ١٣/٣/١٩٩١) على توسيع صيغة عملها ، قد اصدرت برنامجاً وطنياً لانقاذ العراق وتحقيق الحرية والسلام فيه وصيانة وتعزيز وحدته الوطنية . وقد أرفقنا رسالتنا بمجموعة وثائق صادرة عن لجنتنا بما فيها مذكرة مطولة إلى اجتماعكم حول مجمل أوضاع العراق .

أما المهمة الأكثر الحاحاً الآن فهي معالجة حالة التردي الخطير في وضع بلادنا والناجمة أساساً عن النهج الاستبدادي لنظام صدام حسين الذي واصل ارهاباً شديداً ضد الشعب العراقي عرباً وكرداً وأقليات بمختلف عقائده وقيمه ، طوال أكثر من عقد ، وورط بلدنا في حربين مدمرتين الأولى ضد الجمهورية الاسلامية الايرانية والثانية بعد مغامرته المجنونة بغزوه وضمه الجارة الكويت ، والنتائج الكارثية لهاتين الحربين . وما ان توقف اطلاق النار في الحرب الأخيرة حتى هب الشعب العراقي ليعبر عن ارادته ورأيه في النظام وسياسته الجائرة سواء ضد العراق ـ شعباً وجيشاً ومقدسات ـ أو ضد جيرانه . وعمت المدن والقصبات العراقية المظاهرات الشعبية التي بادرت أجهزة النظام إلى التصدي لها ، كما هو نهجها الاستبدادي ، بدلاً من إطلاق الحريات كيما يعبر الشعب عن إرادته . ونجم عن ذلك انفجار الغضب الشعبي في شكل انتفاضة جماهيرية واسعة تحولت بسبب دكتاتورية النظام إلى مصادمات مسلحة بين قواته واجهزته من جهة ، والشعب الأعزل من جهة أخرى ، .

إن النظام الذي لا يمتلك شرعية لدى شعبنا وقواه الوطنية بكافة تياراتها وانتماءاتها يواجه انتفاضة الشعب بأساليب رهيبة ومنها: الاسلحة المحرمة مثل قنابل النابالم والفسفور، وضرب المدن والاحياء بالمدفعية الثقيلة والدبابات والقصف الجوي، وضرب الأماكن المقدسة واضرحة الأئمة الاطهار والمستشفيات وغيرها من دون تمييز، وفرض الحصار على سكان المناطق المنتفضة، وتجويعهم إضافة إلى ضربهم، واسوأ من كل ذلك هو الاعتقال العشوائي لآلاف الاطفال والنساء والرجال ووضعهم في مؤسسات النظام أو أمام المتاريس، كدروع بشرية، وغيرها من أعمال الابادة الجماعية التي راح ضحيتها عشرات الالوف من الشهداء والجرحى.

أيها السادة المحترمون:

إن النظام الذي أصر على مغامرته المجنونة في الكويت كان قد رفض الاصغاء إلى كافة مطالبات الرأي العام الداخلي والخارجي بما فيها قرارات ونداءات جامعتكم الموقرة واعضائها (باستثناء الحكومة العراقية نفسها)، ويصر اليوم على قيادة البلاد نحو كارثة داخلية أشد هولاً.

لذا فاننا نناشدكم التدخل فوراً من أجل:

١) ادانة الارهاب وأعمال الابادة الجماعية ضد شعبنا، والتدخل لايقافها فوراً وارسال لجنة للتحقيق في كافة الانتهاكات لحقوق الانسان. كما نناشدكم واعضاء الجامعة إبداء الاستعداد للقاء بوفد لجنتنا لشرح الاوضاع عن كثب.

٢) تقديم العون المادي والغذائي العاجل، والمباشرة بالاسال الأدوية والبعثات الطبية الميدانية للمنتفضين عن طريق لجنة العمل المشترك لقوى المعارضة العراقية لضمان ايصالها مباشرة إلى المنتفضين وجماهير المناطق التي لا تخضع لسيطرة النظام.

٣) الاعتراف بحالة النزاع القائمة حالياً بما يترتب عليها من اقرار بأن الحكومة العراقية الحالية لم تعد قادرة حتى على التظاهر ولو شكلياً بكونها تمثل الشعب العراقي، والاعتراف بالمعارضة العراقية ممثلاً للقوى الأساسية لشعبنا وإقامة العلاقات معها للتشاور بشأن مستقبل البلاد.

٤) السعي بمختلف الوسائل لاقناع حكومة صدام حسين بالتنحي عن السلطة نزولاً عند إرادة الشعب العراقي والمساعدة على تشكيل حكومة ائتلافية تضم كل القوى السياسية المناهضة للدكتاتورية مهمتها الأولى تصفية الأوضاع الجائرة والمؤسسات القمعية، وتمكين الشعب من التعبير عن رأيه في نظام الحكم، عن طريق انتخابات عامة وحرة، تشمل جميع العراقيين رجالاً ونساءاً ممن يحق لهم التصويت، ينبثق عنها مجلس تأسيسي يشرع دستوراً دائماً للبلاد ويحدد قوام الحكومة القادمة.

مع فائق التقدير والاحترام والسلام عليكم

أمانة لجنة العمل المشترك
لقوى المعارضة العراقية

المرفقات:

١ ـ مذكرة مفصلة إلى السادة الأمين العام المساعد للجامعة العربية وممثلي الدول الاعضاء فيها.

٢ ـ رسالة لجنة العمل المشترك إلى الأمم المتحدة والمنظمات الاقليمية بتاريخ ٥/ آذار/ ١٩٩١.

٣ ـ رسالة لجنة العمل المشترك إلى السيد الأمين العام للأمم المتحدة والسادة أعضاء مجلس الأمن بتاريخ ١٩٩١/٣/٢٠.

٤ ـ بيان لجنة العمل المشترك الصادر في ١٩٩٠/٢/٢٧.

٥ ـ البيان الختامي للمؤتمر العام للمعارضة العراقية في ١٩٩١/٣/١٣.

السيد أسعد الأسعد الأمين العام بالوكالة لجامعة الدول العربية المحترم
السادة ممثلي الدول الأعضاء في الجامعة العربية المحترمين
تحية وبعد:

محنة الشعب العراقي الثائر في ظل حكومة جائرة لا تستند في تعاملها معه إلى أية مؤسسات دستورية لا يمكن لأحد تجاهلها. فالبلاد لا تتمتع بدستور دائم. وهي تحكم منذ عشرات السنين استناداً إلى دستور مؤقت خضع إلى كثير من التعديلات مع ان شبكة واسعة من القوانين تنظم مناحي الحياة العامة والشخصية، الاجتماعية والاقتصادية، قد وجدت واستمرت في الوجود منذ العهد الملكي.

ومما زاد الطين بلة أن الحكومة العراقية لم تلتزم بالقوانين المرعية ومنها الدستور المؤقت، وكانت ارادة الحاكم الفرد، ولاسيما في عهد الرئيس الحالي المستبد بأمره صدام حسين، هي القانون الاسمى وينطبق هذا في كل ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى في الحياة الشخصية للأفراد. ومن مظاهر الاستبداد الصارخة أن بعض قرارات مجلس قيادة الثورة، وهي هيئة غير دستورية فرضت نفسها بأساليب التآمر والقوة الغاشمة على المجتمع والشعب، تعتبر قوانين نافذة على الرغم من تناقضها مع كل المعايير والقواعد القانونية وتنص على أحكام تصل حد الاعدام على أفعال ـ اذا وصفناها تجاوزاً بالجريمة ـ لا يمكن اعتبارها وفق كل المعايير القانونية السليمة سوى جنح. وقسم

من هذه القرارات يصادر حق الانسان في الاعتقاد والرأي ويحرمه من جميع أشكال التعبير عنهما، مع ان هذا الحق مكفول في الدستور العراقي المؤقت الذي سنته السلطة الحالية في عام ١٩٧٠ بعد أن الغت الدستور المؤقت لعام ١٩٥٨. ولا يفوتنا في هذه المناسبة، أن نذكر أن التعذيب الجسدي والنفسي للانسان محرم دستورياً حيث تنص المادة (٢٢) من الدستور المؤقت على ضمان كرامة الانسان وتحريم ممارسة أي نوع من أنواع التعذيب الجسدي والنفسي بحقه، كما يحظر ذلك قانون العقوبات العراقي رقم ١١١ لعام ١٩٦٩ الذي يحرم كل الأفعال الماسة بحياة الانسان وسلامة بدنه وكرامته، وينص على معاقبة كل موظف أو مكلف بخدمة عامة اذا استخدم القوة أو القسوة مع أحد الناس اعتماداً على وظيفته.

والخلاصة ان الحكومة العراقية تحت زعامة صدام حسين تنتهك حقوق الانسان الأساسية، ومن بينها حقه في الحياة الحرة الكريمة، في تعارض صارخ مع القوانين المحلية والتزامات العراق الدولية بموجب توقيعه على الاعلان العام لحقوق الانسان لعام ١٩٤٨ والعهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لعام ١٩٦٦. وقد وصل هذا الانتهاك حد ابادة الجنس بالاسلحة الكيمياوية المحرمة دولياً ضد أبناء الشعب الكردي العزّل كما حدث في بلدة حلبجة عام ١٩٨٨ وفي الاهوار في الجنوب عام ١٩٩٠ على سبيل المثال لا الحصر. وقد تمادت الحكومة فكرست انتهاك حقوق الانسان في تشريعاتها، وهذا ما أثار استنكار جميع المؤسسات العربية والدولية المدافعة عن حقوق الانسان. وسجلت «المنظمة العربية لحقوق الانسان» (١٧) قراراً منذ آذار ١٩٧٦ وحتى عام ١٩٨٧ تجيز عقوبة الاعدام في (٢٩) نوعاً من الأفعال المرتكبة، في حين أن المواثيق الدولية لحقوق الانسان تنص على عدم جواز فرض عقوبة الموت إلا بالنسبة لـ «أكثر الجرائم خطورة فقط».

أما المحاكم في العراق، وبخاصة المحاكم التي تنظر في ما يسمى بالجرائم السياسية فهي في العادة محاكم خاصة، أي استثنائية، تتألف هيئاتها القضائية من عسكريين معظمهم بعيد عن النزاهة أو الالتزام بالمعايير القانونية في اصدار الاحكام. والمتهم لا يتمتع بحق الدفاع المقدس عن النفس، هذا اضافة إلى ان أحكام هذه المحاكم غير قابلة للنقض إلا من الرئيس العراقي نفسه. ووصل الجموح برئيس مجلس قيادة الثورة (صدام حسين) ان أصدر قراراً برقم ٧٠٠ بتاريخ ١٩٨٨/٨/٢٧ يمنح فيه حق اصدار حكم الموت وتنفيذه في الحال للمنظمة الحزبية للحزب الحاكم، وهي هيئة ليست قضائية، وذلك عن «جريمة» الهروب من الجيش أو التخلف عن أداء الخدمة العسكرية.

ويمارس الحكم مختلف ألوان التمييز القومي والديني والطائفي بحيث أصبح هذا

التمييز سياسة ثابتة انتهجت منذ بداية الاستيلاء على الحكم في عام ١٩٦٨ . فالموقف من الشعب الكردي والمسألة الكردية في العراق لا يحتاج إلى ايضاح. وقد واصل الحكم حروبه الجائرة ضد الكرد وأفرغ الحكم الذاتي لكردستان من أي محتوى حقيقي. وقام بحملات التهجير النظامية ضد مئات الالوف من العراقيين بسبب الاختلاف المذهبي، واشتدت هذه الحملات في أثناء الحرب العراقية ـ الايرانية.

واحتكر السلطة واعتبرها وقفاً على اتباعه وأزلامه حارماً بذلك قطاعات واسعة من شعبنا من المشاركة في ادارة البلاد العامة، مسبباً بذلك اهداراً لطاقات أبناء العراق المبدعة، وتسرباً لها إلى الخارج في وقت نحن بأمس الحاجة اليها. واصبح المجتمع محاصراً بنظام قاس للحزب الواحد، بل للفرد الواحد وأنصاره. واختنق الناس تحت وطأة الحرمان من الحريات الديمقراطية العامة، ومن بينها حرية التنظيم السياسي والرأي والضمير والصحافة والتجمع والتظاهر السلمي.

لقد اشتدت مظاهر الأزمة الداخلية وتفاقمت في أواخر السبعينات وشهدت بداية عقد الثمانينات أطول حرب دموية في القرن العشرين بين بلدين جارين عاشا لعقود طويلة في سلام. ففي ٢٢ ايلول ١٩٨٠ عبرت القوات المسلحة العراقية إلى الاراضي الايرانية بقرار من الدكتاتور الذي مزّق اتفاقية الجزائر لعام ١٩٧٥ بطريقة مسرحية، مدعياً أنها فُرضت عليه في الوقت الذي وقعها، هو نفسه، وبارادته، كوسيلة لحل القضية الكردية بالعنف. لقد جاءت الحرب تعبيراً عن ارادة الفرد المستبد وأعوانه في غياب كامل لكل المؤسسات الدستورية والحريات الديمقراطية والمؤسسات المعبرة عن الرأي العام والاحزاب السياسية، مما يعطينا الحق في التأكيد بأن هذه الخطوة ما هي إلا انتهاك لارادة الشعب العراقي المسالم والمتعاون مع جيرانه على أساس الاحترام المتبادل للخيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية. ونعتقد أننا لسنا بحاجة إلى سرد ما سببته الحرب التي دامت ثماني سنوات من دمار مادي وروحي وآلام لا توصف للشعبين الجارين المسلمين العراقي والايراني. علماً أن صدام حسين عاد إلى الاعتراف باتفاقية الجزائر التي اتخذها ذريعة لحربه العدوانية.

وما ان توقفت الحرب وأخذ شعبنا يسترد أنفاسه حتى عاجله الدكتاتور المختنق بالأزمة الاقتصادية والسياسية الداخلية بتوتير العلاقات مع الكويت الشقيق.

ومنذ البداية أعربت قوى المعارضة العراقية عن رأيها في ضرورة حل المسائل المتنازع عليها بالطرق السلمية. وما ان تحركت القوات المسلحة العراقية نحو الكويت حتى أعلنت موقفها صريحاً وواضحاً في اعتبار الفعل الصدامي غزواً لبلد عربي شقيق عضو في الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة، وطالبت بسحب الجيش العراقي دون قيد أو

شرط من الكويت والجلوس إلى مائدة المفاوضات لحل القضايا المختلف بشأنها.

وعندما تلاحقت التطورات وازداد النظام الدكتاتوري تصلباً وصمماً ازاء كل المحاولات والمساعي الحميدة العربية والدولية لحل النزاع على أسس سلمية بعد انسحاب العراق غير المشروط من الكويت، أدركت قوى المعارضة مدى الكارثة التي أعدت لبلدنا وشعبنا، فضلاً عن الكويت وشعبه. وحدثت الطامة الكبرى وأصيب بخراب مذهل بلدنا العراق والكويت الشقيق، تحطم الجيش العراقي وأُذل، واحتل جزء عزيز من وطننا، وزهقت عشرات ألوف الارواح الغالية ويهدد العراق اليوم شبح مجاعة مريعة، وربما اجتاحته الأوبئة الفتاكة بسبب تردي الاحوال الصحية ونقص الأغذية والأدوية والكهرباء وتدمير نظام تصريف المياه وتناثر الجثث في شوارع عدد من المدن العراقية.

لقد استفاق شعبنا العراقي على هول الجريمة. وهبت الجماهير العزلاء مطالبة الدكتاتور وأعوانه بالتنحي عن الحكم. وهي اليوم تلتحم في صراع دموي غير متكافيء ولا رحمة فيه مع هذه المؤسسة المستبدة وأنصارها من الحرس الجمهوري. أن هؤلاء، ولاسيما بعض القادة العسكريين الذين أخطأوا في المعركة وفروا من أرضها ـ يستأسدون على شعبنا الأعزل إلا من ايمانه بقضيته العادلة. ويقتضيهم شرفهم العسكري المهان قبل ان تقتضيهم دواعي الانسانية أن يوجهوا دروعهم واسلحتهم الثقيلة إلى صدر من تسبب بالكارثة وليس إلى صدور أبناء الشعب العزل الذين لم يعد أمامهم أية وسيلة للتعبير السلمي عن آرائهم في الحكم القائم والحكم الذي يريدون.

إن شعبنا العراقي كله، وليس فئة محدودة منه سواء أكانت قومية أو دينية كما تحاول وسائل الاعلام الدولية أن تصور الأمر، يمارس الشكل الوحيد المتبقي له، نعني به شكل الانتفاضة المسلح، على حكم يرفض التسليم بالهزيمة وتقديم الحساب أمام الشعب ومؤسساته القانونية العادلة.

ولا شك أنكم تعرفون ان الانتفاضة الشعبية التي تتطلع إلى مساندتكم تسيطر على مساحات واسعة من أرض العراق. ونحن نأمل في ان يحسم قادة الجيش موقفهم التردد وان ينضموا إلى الانتفاضة لاختزال تضحيات الناس وآلامهم. فالجيش العراقي ذو التقاليد الوطنية والجذور الشعبية ينبغي ان يكون جيش الشعب وليس جيش الطاغية الذي لم تكن جريمته بحق الجيش بأهون من جريمته بحق الشعب والبلاد.

إن حكومة صدام حسين قد خرقت ميثاق الأمم المتحدة في عقد واحد مرتين على نحو خطير، وكذلك ميثاق الجامعة العربية، وانتهكت نظام العلاقات العربية والاقليمية، وحوّلت العراق من عامل استقرار وأمن في المنطقة إلى عامل قلق وتوتر. ولا يخفى عليكم ما في ذلك من مخاطر واحتمالات تنذر بتكرار المآسي سواء بالنسبة لشعبنا العراقي أو أبناء

الأمة العربية والاسلامية والشعوب الصديقة.

ويبقى أمانة في أعناق الجميع، وأولهم اخواننا العرب والمسلمون، تقديم العون المادي والمعنوي لشعبنا المظلوم. اذ فقدت الحكومة العراقية الراهنة مصداقية ادعاءاتها، وهي تشن حرب ابادة شاملة على شعبنا، ويبدو أنها تفضل ان تحكم البلاد من غير شعب، في حين أن المبرر الاول لوجود الحكومة - أية حكومة - ان تعمل على توفير أفضل أساليب العيش في أمان لسكان البلاد جميعاً.

وتفضلوا بقبول احتراماتنا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أمانة لجنة العمل المشترك
لقوى المعارضة العراقية
٢٥/٣/١٩٩١

حول المؤسسات الدولية وصدام

محمد علي كاظم

صفق العالم طويلاً لاعادة بعث الروح والحياة في مؤسساته الدولية التي انشأها بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ومنها مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة.

واستبشر المجتمع الدولي خيراً أثناء متابعته، «لشرعيته»، وهي تواجه العدوان الصدامي على الكويت وتحاصر بمجموعة من قراراتها ممارسة الاحتلال اللامشروع لهذا البلد. وحسبنا - وقتها - ان الارادة الدولية لم تعد عرضة للضياع، وان «الاجماع» لم يعد رهاناً مستحيلاً في العلاقات الدولية. وبتنا ننتظر من مصانع «التحميض» الدولي انتاج مصاديق أخرى لتغيرات تاريخية، تكتب عالماً جديداً عناوينه الرئيسية: الديمقراطية والعدالة، والسلام، واحترام حقوق الانسان، ومنع استخدام القوة في حل المشكلات المحلية والاقليمية والدولية، وخيل لنا، جميعاً، ان هذا الأمل بات في متناول القادم القريب من الزمن.

وهكذا، عشنا على وشك الايمان بانه ما عاد مسموحاً في ظل النظام الدولي الجديد

أي حالة «شاذة» وصورة «نشاز» تخرج على تلك العناوين، وربما توقعنا ـ بناء على ذلك ـ مباركة دولية شاملة لالغاء السلوكيات العدوانية والمناهج الارهابية عبر اسقاط النظم الدكتاتورية التي لا تنضح إلا بما يسيء للانسانية والحضارة وروح العصر والتطور.

وكان من حقنا ان نتوقع ان ردع العدوان عن الشعوب والانتصار لقضاياها التحررية وما تستلزمه من مواقف وقرارات ستأخذ دورها الفاعل في دعم انتفاضة شعبنا المذبوح بذات السكين التي أرادت اغتيال الكويت وذبحها. . وساقنا، «حسن الظن» إلى أمل ان يقف المجتمع الدولي بكل «شرعيته» وبقوة ومسؤولية إلى جانب شعبنا الذي يواجه بمفرده حرب ابادة شاملة يشنها صدام ضد عربه وكرده، شيعته وسنته واقلياته، ومختلف قواه السياسية والعقائدية، مستخدماً على مرأى ومسمع العالم «ما لذ وطاب» من الاسلحة الكيمياوية، والحوامض القاتلة، وقنابل النابالم والفوسفورية. . . وكل هذا يجري في وقت ينادي أبناء الانتفاضة بذات الشعارات التي يطرحها عالم اليوم بعد انتهاء الحرب الباردة من ديمقراطية وحرية وتعددية سياسية واحترام لحقوق الانسان وغيرها من مبادىء ومفاهيم يسعى عالمنا المعاصر لبناء نظامه على اساسها.

إلا ان أملنا لم يتحقق وتعثرت «الشرعية الدولية» في دعم ثورة شعب يتطلع للخلاص والانعتاق من ظلم الدكتاتورية، ولم نسمع سوى اصوات حرة هنا وهناك ضاع صداها أو كاد في عالم الضجيج الاعلامي والسياسي، عالم التزييف والتأويل والاختلاق. . . حتى صرنا نعتقد اننا نركض وراء السراب. . . ونناشد مجتمعاً من «الطرشان» لسماع صوت قضيتنا:

واذا كان قرار مجلس الامن الأخير، الذي أدان ممارسات صدام ضد شعبنا وما تبعه من مساعدات انسانية، قد أعاد قبساً من بارقة الأمل. . . فان ما يجري في العراق من حرب ابادة وتجويع وتشريد وقتل وتدمير، مازال بحاجة لخطوات وخطوات دولية تتجاوز حدود التنديد والشجب. . . وإلا فان مصداقية الاصلاح والتغيير والوفاق والسلام ستبقى عرضة لمخاطر التشكيك. . . والادانة.

عن (البديل الاسلامي) ١٨ نيسان

مصداقية جميع المبادىء والقيم

يمر الشعب العراقي بعربه وكرده وتركمانه وسائر مواطنيه بفترة تاريخية صعبة للغاية لا تطاق بكل المقاييس والموازين وعلى كافة الاصعدة. ولم يحصل دمار لوطن ولا ابادة لشعب في المنطقة كما حصل ويحصل الآن للعراق وحتى في الحربين العالميتين الاولى والثانية لم تتعرض أية دولة من دول المنطقة في الشرق الاوسط إلى ما تعرض له الشعب العراقي من حروب متتالية وخسائر في الارواح والاقتصاد وظلم دكتاتوري فاضح وفاقع وفوق ذلك لم ينظر العالم إلى حركة الشعب ومطالبه الحقة في الحياة الحرة الكريمة إلا من منظار ضيق ووفقاً لمصالحه ولا يهمه ان يتحول صديق الأمس إلى عدو اليوم ومن ثم ينقلب صديقاً في الغد.

نعم هكذا تعامل الغرب مع صدام ومع الشعب العراقي وانتفاضته الباسلة في الشمال والجنوب. وان دعاة حقوق الانسان وحرية البشر وأصحاب المبادىء في الأمم المتحدة لم ينصفوا العراق وشعبه ولم يقدموا له في محنته سوى النزر اليسير الذي لا يغني عن عطش ولا يسمن من جوع.

ان انقاذ الشعب العراقي من الواجبات الا خلاقية والادبية لكافة الشعوب والحكومات التي تؤمن بالانسان وحريته وكرامته.

الشعب العراقي يعيش وسط عالم متحضر. ووسط مجتمعات متمدنة ولا يليق بعالم اليوم ان يذبح شعب بكامله ويدمر وطن من شماله إلى جنوبه على مرأى ومسمع منه. وان كافة الشعوب ذاقت ويلات الظلم والطغيان وعانت الأمرين منها في تاريخها الطويل.

انقذوا شعب العراق لأن في انقاذه مصداقية جميع المبادىء والقيم التي تبشرون بها وتدعون اليها وتؤمنون بها.

عن (الدليل) صوت الاتحاد الاسلامي
لتركمان العراق ـ العدد الاول

المحنة الدامية وطريق الخلاص

الكثير جداً من الاوساط السياسية الدولية والاقليمية والعربية توقعت الهزيمة التي يمكن ان تلحق بالقوات العراقية في حرب الخليج، لكن أحداً، حتى في واشنطن ذاتها، لم يتوقع ان تقع الهزيمة بالسرعة وبالاسلوب الذي وقعت فيه، كما لم يكن هناك ـ ربما باستثناء واشنطن ولندن ـ من يتوقع حجم الدمار الذي سيلحق بالعراق جراء الحرب. فقد جرى في (٤٤) يوماً من القصف الشامل وباستخدام آخر ما توصلت اليه ترسانة الحرب الامريكية والاوربية من اجهزة متطورة تحويل العراق إلى حطام بالمعنى الحصري للكلمة ـ كل شيء تحول إلى حطام: مئات المصانع، عشرات المؤسسات الحيوية، الجسور، محطات الكهرباء، وخدمات الماء والهاتف وحتى الطرق وسكك الحديد. وقد القي على العراق في فترة زمنية قصيرة ما يساوي ما القي على المانيا طيلة الحرب العالمية الثانية، واستخدمت ضده كميات من الصواريخ «الذكية» تساوي ما استخدم في تسع سنوات في حرب فيتنام.

واستناداً إلى تقرير مساعد الأمين العام للأمم المتحدة فان العراق عاد إلى ما قبل الثورة الصناعية، هذا هو الفصل الاول في المغامرة الكارثة التي جر صدام اليها بلادنا. وهو ليس فصلاً ككل الفصول السابقة من ويلات ودمار ومآسي سياسة صدام وحروبه الداخلية والخارجية. أما الفصل الثاني فبدأ بعد وقف اطلاق النار مباشرة: من اقصى الجنوب العراقي إلى اقصى كردستان مروراً بمدن الوسط فاقت الملايين بعد وقف النار على اطلال حرب صدام وشاهدت الويلات والخراب والذل، الذي الحق بالشعب والجيش، وهو ما لم يحدث ابداً في تاريخه. فهبت وسط الدمار والجوع والامراض ضد من كان سبباً في الحرب، ومن قدم الذريعة على طبق من ذهب للامريكان وحلفائهم ليفعلوا ما يفعلوا بالعراق في وقت كان الجلاد وطغمته مختبئين في ملاجئهم الحصينة متشبثين بكرسي الحكم وكأن مصير العراق وحطام البلاد ودماء الناس والجوع والذل، لم يكن من صنع ايديهم.

وفي الوقت الذي ابدى فيه صدام استعداداً للقبول غير المشروط لكل ما يطلبه البيت الابيض، فانه شهر كل ما تبقى لديه لتنفيذ الفصل الثاني من الابادة، وهكذا شهدنا ما جرى في البصرة والناصرية والعمارة والكوت والنجف وكربلاء وكركوك ومئات القرى والبلدات الصغيرة: دمار شامل والوف الجثث لا تجد من يدفنها، والصواريخ والمدفعية والطائرات السمتية تدك الاحياء السكنية، في حرب هي الوجه الآخر لحرب صدام الخارجية.

لكن الشيء الرئيسي هو ان الشعب العراقي بعربه وكرده واقلياته القومية وبكافة تياراته واتجاهاته السياسية ادرك منذ اللحظات الاولى لانتفاضته انه لم يعد هناك ما يخسره، فكان تصميمه على الثورة والاستمرار فيها لا عودة عنه.

فقد نجحت الحركة الثورية الكردية والقوى العراقية المناضلة في تحرير كردستان خلال فترة لا تتجاوز «٢٠» يوماً، وواجهت الانتفاضة في الجنوب ووسط البلاد قوات صدام ووحشيتها بمقاومة عنيفة مازالت مستمرة. وفي بغداد ذاتها، وقعت حوادث كثيرة اظهر فيها الشعب غضبه بالمظاهرات والقتال. ومن الناحية العملية تحول العراق برمته إلى ساحة معركة. ورغم مزاعم صدام حول السيطرة على الوسط والجنوب فان كافة المؤشرات تؤكد حقيقة ان الانتفاضة مازالت تقاتل في كل مكان من أرض العراق.

وخلال الانتفاضة وبتأثيرها تمكنت قوى المعارضة العراقية بكافة اطرافها الاسلامية والقومية الكردية والعربية والديمقراطية وبشخصياتها المستقلة من عقد أول مؤتمر وطني عام لها كان مظاهرة سياسيةكبرى اظهرت عزم كافة الاطراف السياسية دون استثناء واتفاقها على هدف واحد هو الاطاحة بالنظام الدكتاتوري الشوفيني واقامة حكم وطني ديمقراطي تعددي يحقق للكرد كامل حقوقهم القومية العادلة.

ولما ينتهي الفصل الثاني بدأ الفصل الثالث في مساعي جديدة لتطويق العراق وتكبيله اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً ورهنه لعشرات من السنوات القادمة. وتجد واشنطن - رغم ما تزعمه - في وجود صدام أحد أهم أسباب حصولها على كل ما تريد. فليس هناك أفضل من دكتاتور مهزوم لا يهمه سوى كرسيه ليقدم لها ما تشاء، خاصة وان بديلاً مأموناً لم يظهر لحد الآن، واصبح من الواضح الآن ان القوات الامريكية التي تحتل ١٥٪ من الاراضي العراقية تعمل بهدف ترتيب البديل المطلوب عن طريق انقلاب عسكري. واذا لم يحدث هذا فان صدام هو أحد الخيارات الباقية.

ان العراق كوطن وشعب وحاضره ومستقبله يقف الآن على مفترق طريق تاريخي سيحدد مصيره لعشرات من السنوات اللاحقة. فاما بقاء الطاغية وتكبيل العراق واذلاله ورهن اقتصاده وارادته، واما نظام حكم وطني يعمل على انقاذ العراق وحمايته من مخططات الاعداء، وتوفير الأمن والاستقرار إلى جانب الديمقراطية وتأمين حقوق الشعب الكردي، وحماية وحدته واستقلاله.

وليس من شك في ان هذه المهمة ليست سهلة، بل انها في غاية التعقيد في الظروف المحيطة ببلادنا، لكن الانتفاضة الشعبية الباسلة قطعت خطوات كبيرة إلى الأمام وقد تصبح سريعاً خطوات لا عودة عنها، وهو الأمر الذي يفتح ابواب الأمل أمام مستقبل مختلف عن الماضي والحاضر. وليس أمام الشعب وطلائعه السياسية المعارضة من طريق

سوى مواصلة الانتفاضة حتى الاطاحة بالطاغية، اذ اصبح وجود الأخير لا يعني الابادة والارهاب والمجازر والدمار والذل وحسب، بل ايضاً اصبح صنواً للجوع والامراض ومؤشراً حالك السواد للوطن وشعبه. ومن الناحية الموضوعية والذاتية فان العد التنازلي لحكم صدام قد بدأ، واصبح وجوده موضوع وقت ليس غير. وشعبنا العراقي بعربه وكرده واقلياته وكافة قواه المعارضة يهمه الآن تقصير أمد الالام والنزف والويلات، وتلك هي مهمة الساعة الملحة.

افتتاحية (راية الحرية) عدد آذار

السياسة الغربية . . . والثورة في العراق

عادل رؤوف

لقد مضى ما يقارب الاربعة اسابيع على اندلاع الاحداث الثورية في العراق ضد نظام صدام حسين الدموي ـ الارهابي . . وفي هذه الفترة الزمنية اقترفت يد الطاغية في بغداد جرائم ومجازر يندى لها الجبين الانساني، مجازر راح ضحيتها عشرات الالاف من الناس الابرياء وممارسة اساليب لم تعهدها الانسانية من قبل . . احماض كيمياوية سائلة ترش على رؤوس الاطفال. . وغازات سامة تخنق المدنيين وهم في الشوارع وداخل البيوت . . وأطفال يربطون إلى ظهور الدبابات لمواجهة الثوار. . وصواريخ أرض ـ أرض تدك بها المدن الآمنة، ووحشية أين منها وحشية هتلر وموسوليني؟ وكل ذلك يمارس من قبل حاكم ارهابي خرج للتو من مواجهة بأبعد ما يكون للاذلال والخضوع من معنى . . وليس المقصود هنا ان نسلط الضوء على تلك المفارقة الغريبة العجيبة الناجمة من المقارنة بين ذروة الاذلال الذي انتهى اليه صدام حسين في مواجهته مع الحلفاء وبين ذروة الوحشية الجبانة التي مارسها ازاء أبناء الشعب وهم يثورون بوجهه رافضين الخضوع وإلى الأبد إلى هذا اللون الذي لم تعرفه الدنيا من قبل في ارشيف طواغيتها وجبابرتها. فاذا كانت هذه المفارقة مخيفة في ايقاعاتها على غير العراقي. . . فان ابن العراق ربما لم يفاجأ بها كثيراً. . لأنه عايش صدام عن قرب وادرك قبل غيره حدود الماهية الاجرامية وحجم الشذوذ النفسي والسلوكي له. ان نقطة الاثارة هنا ترتبط بممارسة كل ما حصل خلال أيام الثورة من قبل حاكم العراق وعلاقة هذه الممارسة بالحرب التي سبقت الثورة وخروج صدام

الاذلالي منها فصدام حتى وهو يتعرض إلى تهديد جوي من الداخل ما كان قادراً على ان يلجأ إلى استخدام الغازات السامة ضد شعبه في وقت ما بعد الحرب مباشرة.. لولا ان ضوءاً دولياً اخضراً كان قد شجعه واعطاه الفرصة الكافية لاحداث ما حصل من مجازر...

بالطبع قد تلتبس صورة الموقف الدولي ازاء ثورة العراق من جهة وحاكم الغراق من جهة أخرى على بعض من يراقبون الموقف من بعيد.. باعتبار ان خطاب الخصومة الدولي مع صدام أثناء حرب (تحرير) الكويت كان يتطلب تواصلاً بأي شكل من الاشكال وان سياق المواجهة الكلامية والاعلامية كان لا يقبل اجراءات التجميد الفوري لهذه المواجهة ولا يتقبل أي انعكاسة محولة لمعنى الخطاب الدولي من التنديد إلى التأييد.. وعليه فان الاعلام الغربي كان مضطراً لأن يواصل كلامه التنديدي بحاكم العراق وكان مضطراً لأن يفسر التحول في الموقف السياسي الدولي لاسيما الامريكي الذي حصل بعد اندلاع الثورة بحاجات ترتبط بالمصلحة الامريكية وما ينتظرها من (مخاطر) على ضوء التحولات الثورية في العراق.. لقد فسّر الاعلام الغربي تأييد صدام حسين أيام الثورة في إطار المخاوف الاوربية والامريكية (المشروعة) من امكانية مجيء حكم شيعي (متطرف) إلى العراق.. الأمر الذي يهدد مصالح الغرب القديمة والجديدة.. ومثل هذا التفسير مهما استشهد البعض بصورة مقصودة أو عفوية على مصاديقه من خلال بعض الشعارات الاسلامية الثورية التي رفعت في العراق يبقى بعيداً التأكيد عن الحقيقة والواقع للاسباب التالية:

١ ـ لأن الغرب يدرك بزعامة واشنطن ان الواقع القومي والمذهبي بالنسبة للوضع في العراق لا يمكن ان يعزز انفراداً شيعياً في السلطة لما بعد صدام حسين.. وان طبيعة الشعب العراقي بعيدة تماماً عن المشكلة المذهبية على الرغم من محاولات صدام في ايجاد مثل هذه المشكلة من خلال سياسته الطائفية والمذهبية.

٢ ـ ان الاسلاميين المعارضين السنة والشيعة اعلنوا رسمياً لمرات عديدة بأنهم يسعون إلى نظام قائم على التعددية السياسية والحزبية وعلى مبادىء الائتلاف والانتخاب وعلى الاسلوب الحر في ممارسة العمل السياسي الداخلي.. وانهم توجوا هذا الاعلان ببرامج عمل مشتركة مع قوى المعارضة العراقية الوطنية والكردية والقومية.. وتوجوه ايضاً بمؤتمر عام للمعارضة العراقية عقدوه في بيروت بالتنسيق مع القوى المعارضة الأخرى قبل أكثر من اسبوعين.. ولقد اسمعوا العالم ـ كل العالم ـ صوتهم الوحدوي ووضوح برامج عملهم السياسي المستقبلي بطريقة تبعث على الاطمئنان ولا تعطي ذريعة لأي طرف لأن يشكك بما أعلن.

٣ ـ ولأن كل اطراف المعارضة العراقية أكدت بما فيه الكفاية بأن ثورة العراق هي نتاج كل العراقيين بكافة قواهم السياسية الداخلية وانتماءاتهم المذهبية.. والدليل على ما

أكدته هذه الاطراف بهذا الصدد هو وصول الثورة حتى إلى تكريت معقل أعضاء النظام الحاكم. . ان عامل الشمولية كان واضحاً في حركة الثورة حتى وان انطلقت شأنها شأن ثورات العالم الأخرى من نقطة أو مدينة ذات أكثرية مذهبية. . لهذه الاسباب وغيرها يستطيع المرء ان يقول بأن ما قيل اعلامياً وسياسياً في الغرب من امكانية مجيء حكم شيعي لا يعدو في كونه جداراً للاستدارة اللامعقولة التي شهدها الموقف الغربي والامريكي من صدام حسين بعد انتهاء الحرب واندلاع ثورة العراق هذا الموقف المسؤول عن كل ما حل بابناء العراق من مجازر مخيفة في الايام الماضية على يد حاكم العراق. . فلولا اطمئنان هذا الأخير إلى ان العالم الغربي سوف لن يعاقبه على ما قام به من ممارسات دموية لما تجرأ على ذلك في وقت بات فيه عاجزاً عن مخالفة أي قناعة امريكية بعد هزيمته بالحرب واستسلامه الذليل لكل شروط الحلفاء. . ومن هنا يمكن القول ان الموقف السياسي الغربي السلبي من ثورة العراق نابع من التناقض الطبيعي بين ارادة الثورة أي ثورة مهما كانت الايديولوجيا التي تحركها وبين ارادة الكبار الاستغلالية والمصادرة لحق الشعوب في الحياة الحرة الكريمة البعيدة عن حالات التسلط الخارجي والاستغلال ونهب الثروات ومص دماء الفقراء وممارسة منطق الاخضاع القسري. . وازاء كل ثورات العالم يتكرر هذا الموقف السلبي الغربي بلون من ألوان التبرير. . فارادة الثورة هي النقيض الطبيعي لارادة الكبار في هذا العالم. . وهذه حقيقة تبقى راسخة في شعور العظمة الامريكي. . حتى لو ملأنا الدنيا تصريحات مطمئنة وتفسيرات وردود معقولة ازاء الذرائع التي يسوقونها لمواقفهم السياسية. واذا كان اللسان السياسي الامريكي يعود لمبدأ الموازنة فيما يدلي به من تصريحات مهددة لصدام حسين من مغبة استخدام الاسلحة الكيمياوية أو استخدام الطيران ضد الثوار. . فهو لا يفعل ذلك انطلاقاً من اشارات التطمين التي تصدر من هنا وهناك ـ على رغم ضرورة هذه الاشارات ـ إنما يفعله انطلاقاً من واقع ما وصلته الحركة الثورية من نتائج ميدانية في المواجهة مع الطاغية في بغداد. . . بمعنى آخر ان نجاح الحركة الثورية ارغمت هذا اللسان الامريكي على التحدث بلغة الموازنة. . ولذا فانه من العبث في المقاييس السياسية ان تبقى الحكومة الامريكية إلى جانب صدام حسين ظاهرياً وهو يقترب ساعة بعد أخرى نحو مصيره المحتوم. لقد جرب الغرب كل الوسائل الممكنة بغية استنزاف قوة الثوار وايقاع أكبر قدر من الخسائر في اوساطهم من خلال غض النظر عن صدام حسين وهو يمارس مجازره الدموية بحقهم. . إلا ان هذا الاسلوب لم يثن عزيمة الثوار بقدر ما كان سبباً في اعطائهم زخماً ثورياً جديداً وبقدر ما تحول إلى عامل من عوامل الاصرار على مواصلة الفعل الثوري مهما كان الثمن. . لأن الخيار الآخر هو ان يموت الشعب في العراق وان تسحق ارادته إلى الأبد.

عن (نداء الرافدين) ٢٧/ آذار

لا خوف على وحدة العراق من الانتفاضة

ننشر ادناه المقابلة التي نشرتها (صوت الكويت) مع د. ماريون سلغلت، وهي باحثة معروفة في الوسط الثقافي التقدمي العراقي، وزوجة الضابط الشهيد فاروق جلال، وتعكف حالياً على اعداد كتاب عن «العراق من الثورة إلى الدكتاتورية» ويشمل الفترة من ١٩٢٠ إلى غزو الكويت.

■ **هل ترين ان ثورة الشعب العراقي على نظام حكم صدام حسين سوف تقود العراق إلى التقسيم؟**

- أنا لا اعتقد بأن التحرك السياسي والعسكري القائم هناك سوف يؤدي إلى تمزيق العراق، خصوصاً ان الاختلافات الطائفية والعرقية هناك ليست عميقة إلى الحد الذي يهدد بتقسيم العراق. واظن ان التاريخ العراقي خير شاهد على ذلك، بدليل ان ما حدث في عام ١٩٥٠ قبل ثورة عام ١٩٥٨، ثم بعد الثورة كان دليلاً على ان الخلافات السياسية التي قامت في هذه المراحل، لم تؤد إلى قيام صراع طائفي أو مذهبي يمكن ان يهدد الوحدة الجغرافية للدولة.

وقد تكررت هذه الخلافات خلال الحرب العراقية - الايرانية إلا انها لم تصل إلى كل طبقات المجتمع، ولم تؤثر على الوحدة العراقية. (. . .)

■ **ولكن ماذا عن الدعم الذي يقال ان ايران توفره للثورة الشعبية في العراق؟**

- لابد وانك تذكرين ان آراء كثيرة توقعت خلال الحرب العراقية - الايرانية ان يفر العديد من رجال الجيش العراقي الشيعة إلى ايران، وقد ثبت ان قلة قليلة منهم فعلت ذلك، وحافظت الأكثرية الساحقة منهم على انضباطها وولائها للعراق.

واعتقد بأن العراقيين الشيعة يشعرون بانهم عراقيون أولاً، وشيعة ثانياً، وهم لا يقبلون عن وحدة بلادهم وتحررها بديلا.

وما يحدث اليوم في العراق ليس ثورة شيعية، بل هو حالة غضب وثورة عراقية شاملة تشارك فيها الاحزاب والفئات الرافضة لحكم صدام حسين، وهو غضب وصل إلى حدود الثورة على النظام القائم، وستنضم الفئات الخائفة من بطش صدام أو المترددة إلى هذه الثورة بشكل متتابع ومستمر إلى ان يحقق الشعب العراقي أهدافه.

■ **ما هي توقعاتك لمستقبل صدام؟**

ـ هنـاك حالـة رعب زرعها صدام حسين في نفوس العراقيين مع ايحاءات تقول ان من المستحيل التصدي لصدام لأنه شخص لا يغلب.

وقد أدت هذه الحالة إلى زرع الخوف في نفوس المواطنين العاديين والبسطاء وإلى تمكين صدام من البقاء في الحكم لأكثر من عشرين سنة.

واخشى ان يبقى هذا الشعور سائداً حتى بعد انكشاف موقف صدام في حرب تحرير الكويت لأن استمرار هذا الشعور سوف يؤثر على الانتفاضة العراقية.

على الـرغم من ذلـك تبقى امكـانـات التخلص من صدام حسين وحكمـه واردة بالاغتيال أو بوسائل أخرى، مع العلم بأن الاغتيال يكاد يكون الوسيلة الوحيدة الناجحة، لأن صدام حسين لا يزال يسيطر على الجيش أو على بقايا الجيش والحرس الجمهوري فضلاً عن حرسه الخاص ومخابراته الخاصة.

ويمكن انقـاذ العـراق من حكم صدام حسين أيضـاً، بثـورة شعبية وفق الـطريقة الرومانية، وذلك عندما يخرج الشعب إلى الشارع في جميع أنحاء العراق، ويطالب برأس الحكم دونما خوف من القمع، ولا يعود الشعب إلى بيوته إلا بعد ان يحقق مطالبه، كما فعل الشعب الروماني بتشاوشيسكو.

ويبدو ان الجميع ينتظرون الطريقة الاولى للتخلص من صدام حسين، بالاغتيال والسؤال هو من سيقوم باغتياله، اذا لم يفعل ذلك أحد حراسه المقربين؟

استمرار مقاطعة عراق صدام

■ **ما هو موقف الدول المتحالفة من هذا الموضوع؟**

ـ يبدو لي اليوم ان الحلفاء لا يهتمون كثيراً باستمرار صـدام حسين في الحكم، وذلك لأن الدول الحليفة دمرت قواته العسكرية وضربت جيشه ونزعت مخالبه التي كان يهدد بها دول المنطقة.

وتهتم دول الغرب بتغيير صدام حسين لسبب أساسي هو انها تحتاج إلى نظام جديد يقبـل بالتعاون معها في العراق، بعد ان سقط صدام من حسابات العالم كرئيس يمكن التعامل معه في أمن المنطقة وفي اعادة اعمار ما هدمته الحرب في العراق.

وأتوقع ان يتابع الغرب مقاطعته لصدام حسين، حتى يسقط في الداخل.

■ **هل تتوقعين تبديلاً في مواقف صدام حسين؟**

ـ صدام حسين سيبقى الطاغية القاتل حتى آخر يوم له في الحكم، وهو لن يبدل مواقفه لأن الانسان لا يستطيع ان يغير جلده، والأدلة كثيرة ومنها اقدامه على تعيينه وزير للداخلية

معروف بتاريخه الحافل بالقتل والقمع والطغيان وعدم الرحمة.

واتصور ان يكون السؤال الذي يطرحه صدام حسين على نفسه اليوم ليس هو كيف يمكنني ان أبقى في الحكم، بل هو: كيف يمكنني ان أبقى على قيد الحياة.

ويحاول صدام ان يحفظ حياته بكل الوسائل، وهو قد يحرض بعض الفئات العراقية على محاربة الفئات الأخرى، على أساس قاعدة «فرق تسد» إلا انه لن ينجح في مسعاه «للبننة» العراق.

لا أحد مع تقسيم العراق

■ ما هو دور كل من ايران وتركيا في موضوع التقسيم اذا تم؟

ـ لا ايران ولا تركيا تريدان تقسيم العراق، تجنباً لاخطار قيام الكيان الكردي المستقل على حدودهما، ولا هما ترغبان في اقتطاع جزء من العراق وضمه إلى اراضيهما لأنهما تعرفان ان كل دولة منهما لن توافق على ان تقتطع الأخرى جزءاً وتضمه اليها، ومن هنا فأنا لا أرى خططاً تركية أو ايرانية فعلية لتقسيم العراق.

الوضع الامني في المنطقة

■ كيف تقوّمين «اعلان دمشق»؟

وهل ترينه يضع أساساً جيداً لوضع امني متين في المنطقة، وهل يبقى هناك مبرر لبقاء قوات غربية في الخليج؟

ـ لا اعتقد بأن القوات الغربية ستبقى طويلاً في المنطقة، وكما اعتقد بأن اتفاقية الدول الثماني في دمشق سوف تكون فاعلة على المدى القريب والمتوسط، وهي ستعطي كلاً من سورية ومصر دوراً أكبر في الشرق الاوسط وتوفر للكويت الثقة الأمنية التي تحتاج اليها، ولا اتوقع بروز متاعب سياسية أو عسكرية في طريق هذا الاتفاق.

■ هل هناك تفاؤل بقرب حل القضية الفلسطينية؟

ـ الغزو العراقي للكويت الحق بالفلسطينيين أينما وجدوا أضراراً فادحة.

وأتوقع ان نرى اتفاقات أو معاهدات شبيهة باتفاقات كامب ديفيد بين دول عربية واسرائيل، ولكن من دون حل شامل للقضية الفلسطينية، الأمر الذي سيؤدي إلى قيام عقبات وخلافات أكبر في المنطقة.

وآمل ان تخيب توقعاتي هذه وان يتمكن الاميركيون من فرض الحل المناسب لهذه

المشكلة.

رجل مسكون بجنون العظمة

■ **ماذا سيقول التاريخ عن صدام حسين؟**

- سيكتب التاريخ قصة رجل جاء إلى الحكم من عائلة بسيطة متواضعة، فأساء استعمال السلطة، ووظف القوة التي منحه اياه الحكم باسم الشعب ضد هذا الشعب، وبات حاكماً ضائعاً اسكرته السلطة والقوة حتى أوصل بلاده إلى الخراب وأوصل نفسه إلى العزلة.

يبدو لي صدام حسين عندما افكر حالياً فيه انساناً غريباً له تصوره الخاص والغريب عن العالم.

حاكم تخيل انه اذا أقدم على إحراق آبار النفط الكويتية فان المجاعة ستجتاح دول الغرب وتتوقف آلياته عن العمل.

رجل يطلق الاكاذيب الدعائية ثم يصدقها بسذاجة وغباء ورغبة في اجتياح العالم، وقتل كل من لا يرى رأيه حتى وان كان من أقرب المقربين اليه.

وسيقول التاريخ ان صدام حسين لم يكون مجنوناً، بل كان حاكماً مصاباً بمرض العظمة «مغلومينيا» وبأمراض عشق القوة والسيطرة. حاكم استدرج الغرب إلى هذه الحرب ضارباً بمصالح العرب والفلسطينيين والعراقيين عرض الحائط، ونافق إلى أبعد الحدود في سبيل مطامعه.

وتاريخ صدام حسين خير شاهد عليه، فهو استغل مشاعر العراقيين في عام ١٩٧٢ بطرح مشاريعه الاشتراكية وأفكاره الداعية إلى المساواة ثم هو الذي وعد الاكراد بالاستقلال ثم حاول ان يتحايل عليهم، فلما اخفق بادر إلى قتلهم، ثم هو أيضاً الذي كذب على الشيوعيين ثم قتلهم.

وها هو اليوم يكرر اسلوبه نفسه مع الفلسطينيين ومع جنوده الذين زج بهم في معركة غير متكافئة ودمرهم مع آلياتهم واسلحتهم.

حالف السوفييت عندما كان في حاجة اليهم ثم سعى إلى اميركا ليحصل على القمح والسلاح والمعلومات. وسكت عن اسرائيل، ثم هددها، ساير الدول العربية ثم انقلب عليها، وارسل جيشه ليحتل الكويت.

باع دينه بدنياه، ثم فجأة لبس مسوح الايمان وصار عبد الله المؤمن، لأن ظروف الحرب فرضت عليه اللعب على حبال الدين لاجتذاب المسلمين إلى جانبه.

وقد خسر الذين ايدوه الكثير من مصداقيتهم كالملك حسين وياسر عرفات، رغم علمهم بأنه فعل ما فعله عن سابق تصور وتصميم وليس خطأ أو بالصدفة.



بيان
إلى الرأي العام العربي والعالمي

لوقف جرائم القتل الجماعي ضد الشعب العراقي
وحرب الابادة ضد الشعب الكردي في العراق!

يا أخيار العالم كافة!

يا أنصار العدالة وحقوق الانسان في كل مكان!

تشهد بلادنا مأساة مروعة، قل نظيرها في تاريخ العالم من حيث البشاعة والوحشية والشمول. فمئات الالوف، بل الملايين من أبناء شعبنا العراقي، وخصوصاً من أبناء الشعب الكردي، يتعرضون لخطر الابادة بالمعنى الحرفي للكلمة، في ظروف بالغة القسوة. ويموت العشرات، بل المئات، يومياً، جراء الجوع والبرد والامراض. وسبق ان هلك مئات الالوف في حربين شنهما نظام صدام حسين في غضون عقد واحد من الزمن، وفي خضم ارهاب دموي لا مثيل له، وحرب شوفينية ضد الشعب الكردي.

ان العالم كله يشهد وقائع هذه المأساة الفظيعة عبر شاشات التلفزيون وتقارير الصحفيين ووكالات الانباء، التي لا تستطيع ان تغطي، عملياً، سوى جانب ضئيل من هذه الوقائع المحزنة.

ولم يكن لهذه المأساة، ان تحدث، أو تستمر، لولا مصادرة حقوق وحريات الشعب العراقي واصرار صدام حسين وطغمته على التشبث بالحكم، بوجه معارضة واسعة شملت كل أبناء الشعب بعربه وكرده وإقلياته القومية وطوائفه الدينية، على الرغم من ان هذا التشبث بالحكم يعني، في الواقع العملي، ابادة الملايين من مواطني بلادنا، بعد ان استسلم صدام حسين وخنع، في الواقع العملي، ابادة الملايين من مواطني بلادنا، بعد ان استسلم صدام حسين وخنع وساوم القوات الامريكية والاطلسية إثر هزيمته النكراء عسكرياً وسياسياً، وتسبب في احتلال اجزاء عزيزة من وطننا، يناضل شعبنا لانهائه.

لقد حذرت المعارضة العراقية، بكل فصائلها، في مؤتمرها الذي عقدته في بيروت

في ١١-١٣/٣/١٩٩١، من هذه الكارثة وناشدت الرأي العام العالمي، والامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة والمؤسسات الانسانية كافة، تقديم العون المادي العاجل، وانقاذ شعبنا من جرائم النظام الدكتاتوري. وانطلقت المعارضة، في موقفها هذا، من معرفتها بطبيعة هذا النظام وقيادته وأساليبه، ومن تجربة الشعب معه طيلة ما يزيد على عقدين من الزمان.

ان المجتمع الدولي مطالب بمدّ يد المساعدة العاجلة، وارسال الاغذية والخيام والدواء، لانقاذ ملايين المشردين من الموت. وهو ما يتوجب ان تقوم به وكالات الامم المتحدة والصليب الاحمر الدولي، بدعم فعال من جميع الحكومات، وكذلك تأمين عودة الملايين من ابناء الشعب الكردي وكل المشردين العراقيين، إلى مدنهم وقراهم، وحمايتهم من بطش النظام الدكتاتوري وانتقامه.

غير ان القيام بهذا الواجب الانساني، من جانب «المجتمع الدولي»، وهو ما لم يتم بالشكل المطلوب، مع الاسف، حتى الآن، لا يكفي وحده بمعالجة مأساة الشعب العراقي المنكوب بحكم صدام حسين، مادام هذا الحكم متسلطاً على رقاب الشعب بقوة الحديد والنار، ويمتلك القدرة على انزال كوارث جديدة بالشعب والوطن. ومن حق شعبنا ان يطالب الامم المتحدة، والمجتمع الدولي كله، بتحمل المسؤولية الاخلاقية والسياسية في الموقف من صدام حسين وحكومته، التي خرقت، ولا تزال، ميثاق الامم المتحدة والقوانين الدولية، والاعلان العالمي لحقوق الانسان، ولائحة الحقوق المدنية والسياسية لعام ١٩٧٦، بعدوانها على ايران عام ١٩٨٠، وعلى الكويت عام ١٩٩٠، واستخدامها الاسلحة الكيمياوية في الحرب ضد ايران وضد المواطنين المسالمين في حلبجة، وقوى المعارضة في كردستان والاهوار في ١٩٨٧، ١٩٨٨، ١٩٨٩.

وان ما تقوم به الحكومة العراقية الآن، من أعمال وحشية، بابادة المواطنين جماعياً، بقصفها الاحياء السكنية وتدمير الاماكن المقدسة ومحلات العبادة، واعدام الالوف وتشريد المواطنين بالقوة، بحجة مساهمتهم في الانتفاضة، هي جرائم بحق الانسانية، ولا يصح اعتبارها قضية داخلية لا تعني الجمعية العامة للامم المتحدة ومجلس الامن والمجتمع الدولي. وانما يجب ادانتها بقوة، وتمكين شعبنا من محاكمة مرتكبيها وانزال العقاب العادل بهم. وان انتفاضة شعبنا، التي شملت البلاد كلها، قدّمت الدليل القاطع على ان حكومة صدام حسين لا تمثل الشعب العراقي الذي يرفضها ويناضل، من أجل التخلص منها، بقوة السلاح لأنه محروم من التعبير عن ارادته بأية طريقة أخرى، في ظل الارهاب الفاشي الدموي المسلط عليه.

ان هذه الحكومة التي جاءت إثر انقلاب عسكري، واقامت دكتاتورية فردية مطلقة

ليس لها أية صفة تمثيلية. ولا يصح ان تستمر في تمثيل العراق في الاسرة الدولية والامم المتحدة. ولذا فان حزبنا الشيوعي العراقي يناضل، إلى جانب كل قوى المعارضة العراقية، لاقناع المجتمع الدولي بتعليق الاعتراف بحكومة صدام حسين، وتشديد عزلتها السياسية، والاعتراف بالمعارضة العراقية، وتمكين شعبنا من تقرير مصيره واجراء انتخابات حرة مباشرة، بحضور مراقبين من هيئة الامم المتحدة، لاقامة مجلس تأسيسي يسن دستوراً ديمقراطياً للبلاد، ويؤمن الحريات الديمقراطية للشعب العراقي كله، والحقوق القومية للشعب الكردي والحقوق الثقافية والادارية للاقليات القومية، ويقر التعددية السياسية، ويضمن قيام دولة القانون، ويعزز وحدة وطننا، أرضاً وشعباً وكياناً، ويدرأ مخاطر تمزيقه، ويصون استقلاله وسيادته الوطنية.

ويتطلع شعبنا إلى دعم واسناد كل الاخيار في العالم، وكل انصار العدالة وحقوق الانسان لنضاله العادل من أجل تحقيق هذه الاهداف النبيلة.

الحزب الشيوعي العراقي
١٥/ نيسان/ ١٩٩١

حول قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧

اصدر مجلس الأمن الدولي يوم أمس قراره المرقم ٦٨٧ الهادف إلى تكريس حالة الوقف الدائم للقتال، وانهاء حالة الحرب بين التحالف الدولي، الذي تحتل قواته اجزاء واسعة من العراق، ونظام صدام حسين المهزوم هزيمة نكراء، في الحرب التي ارادتها الامبريالية الامريكية واسرائيل، وسعتا اليها، تنفيذاً لخططهما، وتعزيزاً لهيمنتهما على المنطقة وثرواتها، والتي تسبب صدام حسين باشعالها، ورفضه كل الجهود والمناشدات من الاشقاء والاصدقاء لتجنيب شعبنا هذه الحرب الكارثة والدمار الرهيب الذي الحقته بوطننا الحبيب وقدراته البشرية واقتصاده الوطني وبنيته التحتية، وكذلك تجنيبه العواقب الوخيمة على مستقبل العراق وسيادته الوطنية، هذه العواقب التي يشكل هذا القرار القاسي الصادر عن مجلس الآمن مظهراً واحداً من مظاهرها المؤلمة.

ان جريمة غزو الكويت واحتلالها، وضمها للعراق، ارتكبها صدام حسين وطغمته، وأعلن شعبنا، ممثلاً بقواه الوطنية والاسلامية، براءته منها، وناضل من أجل سحب القوات

العراقية من الكويت وتحميل صدام حسين مسؤولية جريمته.

وان انتفاضة الشعب الباسلة في آذار/ ١٩٩١، التي لم يخمد اوارها، رغم القمع الوحشي، الواسع النطاق، عبّرت عن رأي شعبنا كله، عرباً وكرداً واقليات، والتي استهدفت الخلاص من حكم صدام حسين، خير دليل على ان هذا الطاغية لا يمثل الشعب في شيء، وانه مستعد لارتكاب أي جريمة - بما فيها ابادة المواطنين بالجملة، وباسلحة محرمة دولياً - من أجل البقاء في السلطة بأي ثمن كان.

وسبق لحزبنا الشيوعي العراقي، ولكل قوى المعارضة العراقية، ان أعلنت تمسكها بخيار السلم، واصرارها على ضرورة انسحاب القوات العراقية من الكويت، ورفضها لخيار الحرب طريقاً لحل الأزمة، وذلك لأنها كانت تدرك، بعمق، مدى الدمار والكوارث الرهيبة التي يمكن ان تلحقها الحرب بوطننا وشعبنا. وهو ما تحقق فعلاً، تحت ذريعة تحرير الكويت، التي إستُغلت كشعار من قبل الامبريالية الامريكية وحلفائها، لتحقيق اهدافها.

وطالب حزبنا، وقوى المعارضة العراقية كلها، بمعاقبة صدام حسين كمجرم حرب، وليس معاقبة الشعب العراقي المنكوب بحكمه الدكتاتوري الدموي.

غير ان ما حصل، في الواقع، هو تحميل شعبنا مسؤولية جرائم لم يرتكبها، وظل مرتكب الجريمة طليق اليد، بل ويلقى الدعم بهذا الشكل أو ذاك، لمواجهة غضبة الشعب، ولانزال كوارث جديدة بشعبنا المنتفض في الجنوب والوسط في كردستان العراق.

وان القرار ٦٨٧ اذ يعالج بعض عواقب الحرب المدمرة يفرض على شعبنا عقوبات قاسية، ويحمله التزامات مرهقة تثقل كاهله لاماد طويلة.

ان شعبنا يناضل في ظروف غاية في الصعوبة والقسوة، ضد نظام لا نظير له في عالم اليوم، من حيث الوحشية والهمجية في التعامل ليس مع معارضيه فحسب، بل ومع أبناء الشعب البسطاء كلهم، بمن فيهم النساء والشيوخ والاطفال. تشهد على ذلك مدننا المخرّبة والوف الجثث التي تملأ شوارعها وساحاتها، ومراقد الائمة الاطهار والاماكن المقدسة التي دمرتها قذائف المدفعية والطائرات، والتجمعات الكبيرة للمشردين في صحارى الجنوب، برياحها العاتية وشمسها المحرقة، والطوابير التي تمتد عشرات الكيلو مترات وتضم أبناء الشعب، بالملايين، في جبال كردستان ووديانها حيث الثلوج والبرد القارس وانعدام الغذاء والدواء.

ومن حق شعبنا، الذي يواصل النضال رغم كل هذه الصعوبات، ان يتطلع إلى دعم الرأي العام العربي والدولي، ممثلاً في هيئة الأمم المتحدة ووكالاتها، ومجلس الأمن والجامعة العربية، وحركة عدم الانحياز والمؤتمر الاسلامي، وكل الاحزاب والهيئات والاتحادات الوطنية والاقليمية والدولية، ونصرة نضاله العادل من أجل الخلاص من حكم

الطاغية ، وما سببه من دمار وخراب ومجاعة واوبئة وكوارث بيئية ، ومقاطعة هذا الحكم وعزله واعتباره خارجاً عن المجتمع الدولي ، وتقديم العون المادي والمعنوي لشعبنا المناضل ، وليس إلى تكبيله بقيود ثقيلة تعيق مسيرته لاعمار وطننا المدمر ومجتمعنا المثخن بالجراح ، وسيكون من حقه المشروع طلب اعادة النظر بالاحكام الثقبلة التي سببها عدوان صدام حسين ، ونص عليها قرار مجلس الأمن ٦٨٧ ، والتي ترهن مستقبل العراق وتعيق تطوره المستقل .

واننا لعلى ثقة من أن شعبنا العراقي ، اذا ما تخلص من طغيان الدكتاتورية والاحتلال الاجنبي ، واقام نظامه الديمقراطي ودولة القانون على أساس التعددية السياسية واحترام حقوق الانسان واطلاق الحريات الديمقراطية للشعب كله ، وتأمين الحقوق القومية للشعب الكـردي في العراق ، وهو ما يحتاج لتحقيقه دعم اشقائه واصدقائه ، سيكون عامل أمن وسلام في المنطقة وفي العالم .

ومن أجل هذا فهو جدير بالدعم والاسناد المادي والمعنوي من كل القوى الخيّرة التي تطمح لبناء عالم جديد يسوده الاستقرار والسلام .

٤/ ٤/ ١٩٩١ **المكتب السياسي**

الاشتراك السنوي:

٢٥ دولار أو ما يعادلها
يدفع مقدماً بشيك أو حوالة مصرفية
إلى رقم الحساب :
282243 - 54
Banque Libano - Francaise
Bar Elias - Libanon

المراسلات:

الثقافة الجديدة
سوريا ـ دمشق
ص . ب ٧١٢٢



نرجوكم ساعدونا جميعا على الخروج من مخيمات اللاجئين في تركيا!
اسمي هيرمان عبد الله ياسين بازي، عمري ثمان سنوات، أصبت في انفجار بمخيم كيزيلتيبة. كل اطفال المخيم يحتاجون مساعدتكم.

السعر دينار ونصف